إميل زولا

نانا

غانية باريس

رواية

ترجمة

عمر عبد العزيز

تقديم وتحرير

جلال عبد الحميد

الكتاب: نانا غانية باريس (رواية)

الكاتب: إميل زولا

ترجمة: عمر عبد العزيز

تقديم وتحرير: جلال عبد الحميد

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

زولا، إميل

نانا غانية باريس / إميل زولا، ترجمة: عمر عبد العزيز، تقديم وتحرير: جلال عبد الحميد – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٤٦ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٥ – ٠٠٥ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٧٨٢٨/ ٢٠٢٠

نانا

غانية باريس

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

كان إميل زولا واقعا تحت تأثير الفلسفة الوضعية التي قدست العلم، وكان يرى أنه على الكاتب أن يصور الواقع من خلال التجربة العلمية المحسوسة، وطالب الروائي بأن يدرس الطبائع البشرية كما يدرس عالم الحيوان الطبائع الحيوانية، وذلك دفعه لأن يدرس تأثير البيئة والوسط الاجتماعي على الشخصيات، فاهتم بدراسة التحولات التي تطرأ على حياة الشخصية التي يقدم عنها الرواية مثل نانا أو تريزا راكان وغيرهما، وكانت تلك وسيلته لدراسة أخلاق عصره، وعادات وتقاليد مجتمعه في ذلك العصر، ومن خلال تركيزه على عائلة فرنسية معينة من خلال كل رواية من رواياته.

وقد أسهمت إبداعات زولا المختلفة وكذلك مقالاته النظرية في انتصار المدرسة الطبيعية التي انتزعت السيادة من الرومانتيكية بفضل جهود أدباء كبار منهم في فرنسا إميل زولا الذي كان أستاذا ومرشدا أدبيا للكاتب الشهير جي دي موباسان. وقد كتب في نهاية القرن التاسع عشر: " لقد طغت الرواية على مختلف الميادين وسادت العالم بقدر ما ساده العلم، فقد تناولت كل الموضوعات، فكتبت التاريخ وتصدت للفيزيولوجيا وعلم النفس وصعدت إلى أرقى القصائد ودرست المسائل الأخرى المختلفة من اقتصاد اجتماعي وأخلاق ودين، حتى لقد اتخذت الطبيعة كلها ميدانًا تصول فيه وتجول ".

ومن أشهر أعمال زولا "نانا" التي أسهمت في ذيوع اسمه وشهرة رواياته، وتحكي قصة فتاة "نانا " استخدمت جمالها و أنوثتها من أجل تحقيق أهدافها، للانتقال إلى المسرح، والذي كان يمثل في منتصف القرن التاسع عشر ما يمثله اليوم السينما والتلفزيون، وأصبحت نجمة شهيرة و أصبح لها نفوذ ورجال يأتمرون

بأمرها، ومنذ ترجمة ونشر الروية باللغة العربية في أوائل خمسينات القرن الماضي، يومها هوجمت الرواية وكاتبها، ونال مترجمها وناشرها نصيبهما من الهجوم، لكن ذلك الهجوم لم يحل دون إقبال جمهور القراء على الرواية.

فمن هو زولا الذي أحدث كل ذلك الصخب؟

ولد إميل زولا في الثاني من إبريل ١٨٤٠م في باريس، لأب ينحدر من أصول إيطالية وفرنسية، وأم فرنسية، انتقلت العائلة إلى مدينة أكس في جنوب شرق فرنسا عندما كان زولا في الثالثة من عمره، ثم توفي والده عام ١٨٤٧م وتولت والدته رعايته، وفي عام ١٨٥٨م عادت الأسرة إلى باريس وهناك تعرف زولا على صديقه الرسام بول سيزان، وبدأ في الاتجاه للكتابة بالأسلوب الرومانسي، ولم يتلقى زولا تعليمه كاملاً، حيث لم يستطع إكمال دراسته في كلية سان لوي وغادرها عام ١٨٦٠م وكانت والدته تأمل أن يصبح أبنها محامياً إلا أنه فشل في امتحان البكالوريا، فاضطر لقبول العمل في وظيفة كاتب في إحدى شركات النقل البحري، ثم انتقل منها للعمل في إدارة المبيعات في دار نشر فرنسية "هاشييت"، كما قام بالكتابة في الأدب والفن في إحدى الصحف الفرنسية، وهو العمل الذي أتاح له الاتصال بعدد من أساتذة النقد والأدب في تلك الفترة، من مثل رينان وسانت بوف وميشليه ولامارتين وليتريه وتين، كما سمح له بالتعرف على بعض محرري الصحف اليومية الذين ساعدوه على العمل بالصحافة، وضمن من طريقهم الكتابة المنتظمة في جريدتي "لو بيتي جورنال" في باريس و"لو سالوبوبليك" في ليون.

وحدث في سنة ١٨٦٦م أن صاحب جريدة "الفيجارو" فيلمسان أصدر صحيفة "الحدث" وهي صحيفة أدبية قرر أن يعتمد في تحريرها على الأدباء الناشئين، وكان من بينهم إميل زولا الذي ترك عمله في مكتبة هاشيت ليتفرغ تماما للصحافة والأدب.

وفي ختام هذا العام انعقد "مؤتمر فرنسا العملي" بمدينة أكس لمناقشة

موضوع الرواية وتاريخها، ووجد فيه زولا فرصة لعرض أفكاره، فأرسل مذكرة إلى المؤتمر أعلن فيها أن الإنتاج الذهني يترجم وسيلة الحياة لمختلف المجتمعات البشرية. وبعد أن استعرض تاريخ الرواية قال: "لو أني طلبت من بلزاك في حال حياته أن يحدد لي معنى الرواية لرد علي دون شك قائلًا: الرواية هي رسالة في تشريح الطبائع والأخلاق، وتجميع لأحداث البشرية، وفلسفة تجريبية للأهواء، هدفها وصف حقيقة الناس والطبيعة".

هكذا اقتنع زولا بمذهب الحتمية وأهميته في دراسة الواقع الاجتماعي، وكتب وفقا لهذه القناعة روايتين نشر أولاهما في سنة ١٨٦٧ بعنوان "تريز راكان" أما الثانية "مادلين فيرا" فقد نشرها في العام التالي، ويمكن ربطهما بإنتاجه الضخم "أسرة روجون ماكار"، فالأبطال في الروايتين "أناس مثقلون بالرواسب الوراثية ويتطورون تحت تأثير البيئة".

لقد ظهر زولا في عصر ازدهرت فيه العلوم الطبيعية وقام فيه الباحثين بالإقبال على دراسة الحياة وتسجيل ظواهرها وإجراء التجارب وتدوين النتائج والملاحظات، فرفضوا الخيال وتمسكوا بالحقائق الملموسة، وكما تمسك الباحثين والعلماء بالحقائق الطبيعية الثابتة، فعل الأدباء مثلهم فابتعدوا عن الخيال والشعر واتجهوا نحو الحقائق والطبيعة والبيئة التي يحياها الإنسان ويتأثر بها ويؤثر فيها، ومن هنا امن زولا بأهمية بناء الرواية على التفكير العلمي والوصف الحقيقي والدقيق للمجتمع والواقع، فيرى أن من واجب الرواية أن تدرس الطباع الإنسانية والتكيفات العميقة الأثر للعضوية البشرية تحت ضغوط البيئة والأحداث.

ورواية "نانا" نشرها زولا في عام ١٨٧٩م وتدور أحداثها حول الحسناء "آنا كوبو" ابنة جرفيز، وهو رجل مدمن للخمر يهمل أسرته... وكأن وظيفتهما في هذه الرواية فقط هي إنجاب آنا أو نانا التي يغطي حسنها على حرمانها من أي موهبة، فهي رائعة الجمال، لا تخلو شخصيتها من الدهاء، مما يساعدها في أداء الدور

الكبير الذي تقوم به في الرواية، والمعبر عن فترة ما في مسار المجتمع الفرنسي.

أول ظهور لنانا في الرواية، حينما تكون على وشك البدء بالقيام بدور البطولة في مسرحية غنائية تقدّم على مسرح المنوعات، حيث لا تجيد الغناء مع أن بطولة المسرحية تتطلب منها ذلك، كما أنها لا تجيد التمثيل لكن جمالها يجعلها موضع إعجاب الرجال جميعاً، وهم بدورهم يتتابعون في حياتها، ومنهم شتاينر الذي ينفق عليها من أموال البنك الذي يعمل به... لكنها سرعان ما ستتخلى عنه مفضلة عليه رفقة الممثل فونتان الذي يذلها قبل أن يتخلى عنها، بعد محنتها تلك تتكشف نانا على حقيقتها .. إنها امرأة تعرف أن لا أحد يحبها في الحقيقة، وهي نفسها لا تحب أحداً، لذلك تقرر ان تتحول الى فتاة ليل أو بائعة هوى... وتقرر تدمير كل الذين يرغبون فيها ويقعون في طريقها. وهكذا يتوالى على حياتها العشاق وهي تواصل تدميرهم واحداً بعد الآخر دون أن تأخذها بهم شفقة، لكن ذلك وإن حقق رغباتها إلا أنه لم يحقق لها السعادة، وتدفعها تعاستها في نهاية الأمر إلى الإنتحار.

إن نانا إذ تنتقم من ظلم المجتمع لها عبر تدمير كل هؤلاء، فهي تدرك حقيقة ما تفعله، دون أن تقف لحظة لتسأل نفسها عن الغاية من ذلك كله، غير أن كل ما فعلته يظل لا شيء مقارنة بما تفعله مع الكونت مارتل، وهو أحد كبار موظفي القصر الإمبراطوري. وهو رجل خجول ومتردد لكنه يعشقها أما هي، فإنها تستغله وتعامله وكأنه خادم، وتحرص دائماً على أن تذله أمام أعين الناس، قبل أن تسلّم نفسها اليه في مقابل ما تتوقعه منه من مكاسب...

ولأن لكل شيء نهاية، ينتهي الأمر بنانا الى ان تسأم حتى الموت من هذا المجتمع، فتقرر أن تعزل نفسها في قصر فخم يبنيه الكونت الأحمق، لكنها لن تكون وحيدة في عزلتها، بل ستكون مع الكونت وقد قررت لفترة أن تبقى وفيّة له، لكن سرعان ما تستعيد رغبتها الانتقامية فتدمر كل الرجال المحيطين بها، كاشفة لهم خيانات زوجاتهم وعلاقاتهن، وصولاً الى الكونت الذي تكشف له علاقة زوجته بأحد الصحافيين. وتستمر هكذا دون أن تدرك أنها تنتقم من نفسها بأن تجعل نفسها منبوذة، تعيش وحيدة في غرفة

فندق مريضة تحتضر. بينما تعلو الهمسات في الشارع..

في فرنسا تعلن الحرب على بروسيا. وهكذا.. تختفي نانا ويختفي معها في الوقت نفسه بهاء مجتمع باريسي قام على النفاق والكذب، مما يضفي على نانا بعدا رمزيا، وتجعل من تفتّت نانا صورة عن تفتّت مجتمع فرنسي معين.

وإميل زولا نفسه لم يفته أن يؤكد هذا في كل مرة تحدث عن هذه الرواية التي اعتبرها أكثر رواياته رمزية وتعبيراً اجتماعياً، كما أن قراء زولا أنفسهم، ينظرون إلى نانا باعتبارها أقوى أعماله.

وبعدها توالت أعمال زولا بعدها مشيدة صرحا روائيا وأدبيا مازال شامخا حتى اليوم، ويضم الإنتاج الأدبي لزولا سلسلة قصصية عن المدن وحياتها وبعض الروايات التي يبشر فيها بإنجيله الاجتماعي ومجلد من الروايات المسرحية، وعدد من المجلدات في النقد، وبعض القصص القصيرة.

وقد توفي زولا في ٢٩ سبتمبر من عام ١٩٠٢م مختنقا بغاز أول أكسيد الكربون الذي انبعث عندما توقفت إحدى مداخن المنزل. وكان عمره حينها ٦٢ عاما.

وقد روج البعض حينها لفكرة اغتياله علي يد أعدائه لمحاولاتهم السابقة لاغتياله، ولكن لم يتمكن أحد من إثبات ذلك، لكن القاتل اعترف بعد عشرات السنين وهو على فراش الموت أنه هو الذي أغلق فوهة المدخنة لأسباب سياسية.

ودفن زولا في البداية في مدافن مونتمارتر في باريس، ولكن في ٤ يونيو ١٩٠٨، أي بعد ما يقرب من الست سنوات بعد وفاته نُقلت رفاته إلى البانثيون "مقبرة العظماء" بباريس، حيث دفن في قبو بالقرب من مقبرة فيكتور هوجو.

جلال عبد الحميد

الفصل الأول

بلغت الساعة تمام التاسعة، وبالرغم من ذلك كان مسرح "الفاريتيه" خاليا إلا من نفر قليل من المشاهدين، وقد تناثروا في المقصورات والصفوف الخلفية، وضاعوا في المقاعد المخملية الأنيقة وسط صالة فخمة مترامية الأطراف لا تكاد الأنوار الضئيلة تصل إلى جدرانها، وعلى الرغم من اقتراب موعد رفع الستار، إلا أن السكون كان شاملًا.. ومقاعد الاوركسترا خالية من الموسيقيين.. وليس ثمة حركة أو صوت ينبعث من خشبة المسرح.

ودخلت عاملة الصالة لكي ترشد شابين في مقتبل العمر إلى مقعديهما في الصفوف الأمامية.

ووقف الشابان.. وأجالا الطرف في أنحاء المكان.. وقال أحدهما محدثًا رفيقه:

– ألم أقل لك إن الوقت لا يزال مبكرًا يا هكتور؟ أما كان يحسن بك إن تدعني في الخارج حتى أتم تدخين سجارتي؟

ومر بهما في هذه اللحظة أحد المشرفين على نظام الصالة فهتف بالمتكلم بلهجة تنم عن الألفة:

– أهذا أنت يا مسيو فوشيري؟! إن التمثيل لن يبدأ قبل منتصف الساعة العاشرة.

فقال هكتور في ضجر:

– إذن لماذا أذاعوا في اعلاناتهم أن العرض يبدأ في الساعة التاسعة؟ لقد أقسمت كلاريس على أن الستار سيرفع في هذه الساعة بالضبط. وهي بين اللائي سيشتركن في التمثيل كما تعلم.

فهز فوشيري كتفيه وغمغم:

– إذا كنت تستقي معلوماتك من أمثال هذ الصدر، فخير لك أن تكون على حذر.. إن كلاريس لا تتحرج من أن تقسم على أنها ترى النجوم في رابعة النهار.

وساد الصمت بينهما.. وجعلا يجيلان النظر بين المقاعد والمقصورات، ولكن الجمهور الذي حضر كان يعد على أصابع اليد الواحدة.

قال هكتور:

– هل استطعت الحصول على مقصورة مجانية لصديقتك لوسي؟

فأجاب فوشيري:

– نعم.. ولكن بعد عناء كثير.

وأرسل بصره نحو مقصورة قريبة من خشبة المسرح واستطرد:

– ولكن لا أظن أن لوسي قد بكرت بالحضور مثلنا!

وتثاءب وأردف بعد صمت قصير:

– ألم تشهد قط أول عرض لاحدى المسرحيات؟

– كلا.. هذه أول مرة أشهد فيها مسرحية تعرض لأول مرة، إنني جئت باريس منذ ثلاثة أسابيع فقط كما تعلم.

– إذن أنت سعيد الحظ.. فهذه المسرحية "فينوس الشقراء" ستكون مسرحية الموسم.. إنها حديث أهل باريس منذ ستة شهور.. لقد أدخل عليها "بوردنيف" نوعًا من الموسيقى لم أسمع له مثيلًا... إن هذا الشيطان موفق في عمله.. وقد أصاب حين احتجز هذه المسرحية ليقدمها بمناسبة افتتاح المعرض.

وأصغى هكتور إلى زميله بانتباه واهتمام.. ثم تنهد وسأل بشيء من الخجل:

– و"نانا" النجمة الجديدة ستقوم بور فينوس "الزهرة" هل تعرفها!؟

فصاح فوشيري بحدة:

– يا إلهي.. ألا أرتاح من هذا السؤال؟! إن اسم "نانا" يكاد يصم أذني منذ الصباح.. إنه يتردد على جميع الشفاه.. في كل مكان، ولم أقابل أحدا اليوم إلا سألني : هل تعرف نانا ؟! كأنني أعرف أهل باريس جميعًا.

كلا يا صديقي.. إنني لا أعرف نانا، ولكني اعتقد إنها إحدى "اكتشافات" بوردنيف.. وإنها لذلك يجب أن تكون "شيئًا" عجيبًا.. ذلك كل ما أستطيع أن أقوله لك.

وهدأت ثائرته قليلًا.

ولكن خلو المكان.. وضآلة الضوء.. وحركة فتح الأبواب وغلقها.... والأصوات الهامسة التي تشعر سامعها كأنه في كنيسة.. كل ذلك ضايقه وأضجره قال فجأة:

– كلا.. كلا. لا طاقة لي على البقاء هنا. هلم بنا. فقد نستطيع مقابلة بوردنيف.. والحصول منه على مزيد من التفاصيل والمعلومات.

وخرجا من الصالة..

وكانت الحركة أمام المسرح قد دب فيها دبيب النشاط.. وبدأت المركبات تتسابق إلى الأبواب الثلاثة... والنظارة يفدون جماعات وفرادى.. فيشق بعضهم طريقه إلى الداخل.. ويتسكع البعض أمام اللوحات الكبيرة التي كتب عليها اسم "نانا" بحروف ضخمة.

ووقف بالقرب من شباك التذاكر رجل طويل القامة عريض الكتفين. متين البناء. وراح يقول بخشونة وغلظة. محدثًا المزدحمين حوله:

– مستحيل.. لا توجد تذكرة واحدة.. لقد حجزت جميع المقاعد منذ أسبوعين..

فهتف فوشري وهو يشير إلى هذا الرجل:

– هو ذا بوردنيف. مدير المسرح..

وأبصر بهما بوردنيف قبل أن يقتربا.. فهتف محدثًا فوشيري في تهكم:

– إنك ظريف حقًا.. أهكذا تعلن عن مسرحيتي الجديدة! إنني تصفحت جريدة "الفيغارو" هذا الصباح.. وقرأت لك كلامًا كثيرًا عن المفوضية اليابانية ولم أجد كلمة واحدة عن "نانا". فدعني أهنئك على جدة موضوعاتك وطرافتها.

فأجاب فوشيري:

– ولماذا العجلة يا صديقي؟ يجب أن أرى "نانا" قبل أن أكتب عنها في جريدتي. وبعد.. فأنني لم أعدك بشيء.

وأراد أن يقطع على محدثه سبيل الجدل والمناقشة. فاستطرد على الفور:

– دعني أقدم إليك ابن عمي هكتور دي لافلواز الذي جاء إلى باريس لاتمام علومه.

فقلب بوردنيف شفته ولم يجب.

ونظر هكتور إلى مدير المسرح من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.. إذن هذا هو بوردنيف.. أشهر مديري المسارح الباريسية، وأكثرهم توفيقًا في اكتشاف الحسان.. وأقدرهم على ابتزاز أموال النظارة.

الرجل الذي يعامل ممثلاته كما يعامل المجرمون، ويتحدث إليهن بخشونة ضابط البوليس.

وأراد هكتور أن نترك مقابلته أحسن الأثر في نفس بوردنيف. فقال في أدب.. وبصوت موسيقي:

– إن مسرحك..

فقاطعه بورنيف في هدوء، وببرود الرجل الذي يفضل أن يدعو الأشياء بأسمائها الحقيقية:

– لماذا لا تقول ما خورتي؟

فضحك فوشيري.. ووجم هكتور.. وتبخرت من ذهنه عبارات الإطراء التي أراد أن ينطق بها.

وتركها بوردنيف في هذه اللحظة ليصافح أحد الناقدين الفنيين من ذوي الرأي المحترم. ولما عاد إليهما.. كان هكتور قد خرج من وجومه.. وأفاق من دهشته.. واصطنع الهدوء وقلة الاكتراث..

قال لكيلا يبدو في نظر بوردنيف ريفيًا جاهلًا:

– قيل لي إن لنانا صوتًا ساحرًا..

فهز بوردنيف كتفيه وأجاب:

– نانا؟ إنها لا صوت لها على الإطلاق.

فاستدرك هكتور بسرعة:

– مهما يكن من أمر فهي ممثلة بارعة.

فقال بوردنيف بصراحته المقيتة:

– ممثلة بارعة!! إنها حزمة من الخرق البالية.. لا تعرف ماذا تصنع بيديها وقدميها على خشبة المسرح؟

فاحمر وجه هكتور. وحار في فهم محدثه.. وقال بلسان متلعثم:

– إنني حرصت على ألا يفوتني العرض الأول لهذه القطعة الفنية التي يقدمها مسرحك..

فقاطعه بوردنيف بإصرار الرجل الذي لا يتحول عن رأيه:

– بل ماخورتي.

وكان فوشيري في شغل بمراقبة النساء.. فخف إلى نجدة ابن عمه.. الذي وقف حائرًا لا يدرى هل يغضب أم يضحك..

قال محدثًا هكتور:

– أنزل على إرادته يا صديقي.. وأطلق على مسرحه الاسم الذي يريده ثم تحول إلى بوردنيف واستطرد:

– ولكن.. إذا صح أن فتاتك لا تحسن الغناء ولا تجيد التمثيل كما تقول.. فإن مسرحيتك مصيرها حتمًا السقوط..

فهز بوردنيف رأسه ببطء. وقال في تهكم:

– نعم.. مصيرها حتما إلى السقوط !

ثم أردف بحدة:

– هل من الضروري للمرأة أن تحسن الغناء أو تجيد التمثيل!؟ أنت جاهل يا صديقي! إن لنانا مواهب أخرى غير الغناء والتمثيل.. إنها تجيد أشياء أفضل من الغناء والتمثيل، وإذا فشلت هذه المسرحية فلك أن تدعوني مغفلًا..

أنك ستري "نانا" الليلة.. وسترى أن مجرد ظهورها على خشبة المسرح كفيل بأن يثير حماسة النظارة وجنونهم..

ثم استطرد كمن يحدث نفسه:

– نعم.. إن نجاحها أمر مؤكد.. إني لا أقدم إلى النظارة مغنية.. أو ممثلة.. ولكني أقدم إليهم امرأة.

وطلب فوشيري المزيد من المعلومات والتفاصيل.. وأجاب بوردنيف على أسئلته بعبارات خجل هكتور من صراحتها وبذائتها.

قال أنه يعرف نانا منذ وقت طويل. ولكنه لا يسمح لامرأة بأن تثقل ناهله إلى ما شاء الله.. فهو إذا سئمها قدمها إلى الجمهور.. وإذا سئمها الجمهور لفظها ونفض يده منها.

ولكن نانا تختلفه عن سائر النساء اللاتي عرفهن.. وهو لذلك قد أدخرها لدور "فينوس".. وكان وجودها كفيلًا بأن يقلب مسرحه ظهرًا لبطن.. فإن "روز مينون" الممثلة الأولى والمغنية البارعة التي طالما هددته بترك العمل لم تكد "نانا" حتى انكمشت.. وكفت عن التهديد والوعيد حرصًا على مستقبلها.. واشفاقًا من هذه المنافسة الجديدة الخطيرة..

أنه يعرف قيمة كل امرأة في "ماخورته" فإذا تمردت عليه كلاريس أو سيمونا مثلًا.. فإنه يؤدبها بلكمة من قبضته أو ركلة من قدمه.. أما إذا تمردت الممثلة الأولى فإنه يعرف كيف يقهرها بامرأة مثلها..

وكان بوردنيف يتكلم وهو يرقب أبواب المسرح.. فغير مجرى حديثه فجأة وهتف:

– آه.. هو ذا مينون يتأبط ساعد ستيز عشيق زوجته.. أنه يشعر بأن قد بدأ يسأم "روز".. فهو يلازمه كظله حتى لا يفلت..

فأرسل هكتور بصره إلى حيث كان ينظر بوردنيف ورأى عملاقًا طويل القامة كبير الجسم يتأبط ساعد رجل قصير بدين قد وخط الشيب رأسه.. كان الأول هو مينون.. زوج الممثلة الأولى في مسرح الفاريتيه.. أما الثاني، واسمه ستيز، فهو ممول يهودي معروف في الأوساط المسرحية. وفي بيئات اللهو العبث..

قال بوردنيف:

– صبرًا.. سأسمعك الآن شيئًا عن نانا.

ثم أومأ إلى الرجلين. فاقتربا في الحال.. فقال محدثًا ستيز:

– إنك رأيتها أمس في مكتبي. فما قولك فيها؟

فهتف ستيز:

– آه.. تلك التي انصرفت من مكتبك ساعة قدومي؟ لقد مرت بي مرور النسيم فلم املأ عيني من منظرها..

وأصغى مينون إلى هذا الحديث وأطرق برأسه.. وجعل يعبث بخاتم في أصبعه وهو بادي الاضطراب والقلق.

كان يعلم أنهما يتحدثان عن نانا..

وراح بوردنيف يصف نجمته الجديدة وستيز يصغي إليه، وتتألق عيناه بين الفينة والفينة. إلى أن قطع مينون حديثهما بقوله:

– أظن أنه يجب أن تترك الحكم عليها وعلى مواهبها للجمهور. هلم بنا يا ستيز. أنت تعلم أن زوجتي تنتظرك في غرفتها.

وأراد أن ينطلق به. ولكن ستينر أصر على البقاء.

واشتد ضغط الجمهور حولهم. وامتلأ جو المكان باسم "نانا".

ردد الرجال هذا الاسم بلهجة الفضول والتساؤل. ورددته النساء في مزيج من القلق والدهشة.

من هي نانا ؟ ومن أين هبطت؟ لا أحد يعلم.. ولكن اسمها كان رقيقًا كالقبلة.. مألوفًا كالنغم المحبوب.. فردده القوم ببساطة وسهولة.. وتجاوب صداه داخل المسرح وخارجه.. واقترن بعلامات التعجب والاستفهام.

كان كل إنسان يريد أن يعرف نانا.. وإن يراها.

وصاح بوردنيف بالنظارة الذين أحاطوا به.. وأمطروه وابلًا من الأسئلة.

ألا توفرون على أنفسكم عناء السؤال والاستفسار؟! إنكم سترونها في التو واللحظة.

وشق طريقه بينهم. وهو يشعر بالارتياح والخيلاء لأنه استطاع أن يلهب حماسة الجمهور.

وهز مينون كتفيه بقلة اكتراث.. وذكر ستينر بأن "روز" تنتظره في، وأنها تريد أن تستطلع رأيه في الثوب الذي ستظهر به على خشبة المسرح في الفصل الأول.

وكان ستينر لا يزال مترددًا حين هتف هكتور:

ها هي لوسي قد أقبلت في مركبتها.

كانت لوسي ستيوارت امرأة في الأربعين من عمرها.. قصيرة القامة صغيرة الحجم طويلة العنق بشعة الوجه.. غليظة الشفتين.. ولكنها محبوبة من المجتمع لظرفها ودمائه خلقها.

وكان معها في تلك اللحظة صديقة لها تدعى كارولين هيكيه. وهي في مقتبل العمر.. تنم تقاطيعها الفاتنة عن البرود والجمود.

وذهب فوشيري إلى استقبال صديقته. فقالت له:

– لقد احتجزت لك مقعدًا في مقصورتي. فهلم معنا..

وأنه أجاب معتذرًا:

– شكرًا لك.. إنني أفضل الجلوس في المقاعد الأمامية لأرى كل فرد.

وامتعضت لوسي، وظنت أنه زاهد في صحبتها.. ولا يريد أن يراه أحد معها، ولكنها كتمت امتعاضها وقالت:

– ولماذا لم تقل لي أنك تعرف نانا؟!

– نانا؟ إنني لم أرها قط.

– لقد قيل لي أنك صديقها.

فقهقه فوشيري ضاحكًا.ولكن مينون أمسك بساعده فجأة وهتف:

– صه..

ثم أشار إلى شاب مر بهم في تلك اللحظة. واستطرد في همس:

– هو ذا صديق نانا..

فنظروا جميعًا إلى الشاب.كان رشيقًا جميل الطلعة..

قال مينون:

– إنه يدعي داجينيه. وكان يملك ثلاثمائة ألف فرنك أنفقها جميعًا على بنات الهوى.. وهو الآن يشتغل بأعمال البورصة ولا يكاد يملك ثمن باقة زهر يقدمها إلى عشيقاته.

فهمست لوسي وهي لا تحول عينيها من داجينيه: ما أجمل عينيه! ثم صاحت بغتة:

– آه.. ها هي بلانش.. إنها التي أكدت لي أنك صديق نانا.

وأقبلت بلانش دي سيفري.. وهي تستند بجسدها الضخم على ساعد شاب نحيل أنيق تبدو عليه دلائل النبل وكرم المحتد.

همس فوشيري:

– الكونت كزافييه دي فانديفر.

وأحنى قامته محييًا الكونت الشاب. واقتربت لوسي من بلانش. ودار بينهما حديث سريع.. تردد فيه اسم "نانا" أكثر من مرة..

وفي هذه اللحظة.. سمع رنين الجرس مؤذنًا بقرب رفع الستار.. فأسرعوا بالدخول. واشتد الزحام.. وتمزق ثوب إحدي السيدات.. وسقطت قبعة أحد الرجال. ودوت في الصالة عاصفة من التصفيق. وهتف النظارة بنغمة موسيقية:

– نانا.. نانا...

وشق فوشيري وهكتور طريقهما إلى الداخل.. ووقفا أمام مقعديهما وأجالا الطرف في أنحاء المكان.وكانت الأنوار تتلألأ.. والموسيقى تعزف. والنظارة لا يحولون أبصارهم عن الستار.

وخيل للصحافي وابن عمه.. إن باريس كلها قد اجتمعت في هذه الصالة الضيقة. وإن الفضيلة والرذيلة كانتا على موعد للقاء في "الفاربتيه".

كان النظارة خليط عجيبًا من رجال بعضهم من المبرزين في عالم الفن والأدب والمال.. ونساء أكثرهن من الغانيات المستهترات.. الشهيرات في عالم اللهو والعبث.. وقد ارتسمت على وجوههم جميعًا آية الدهشة والفضول.. والضجر..

وراح فوشيري يحدث ابن عمه عن بعض النظارة.. فهذا قاض مشهور بقسوة أحكامه.. وهذا مؤلف معروف سيقدم قريبًا إلى محكمة الجنايات.. وهذه السيدة هي موضع السخرية لأنها تعبد زوجها الذي يغازل شقيقتها.. وهذا الرجل النحيف هو من كبار الناقدين الفنيين.. و..

وكف فوشيري عن الكلام حين رأى هكتور يحيي رجلًا في مقصورة قريبة..

قال له في دهشة:

– إذن أنت تعرف الكونت موفات دي بيفيل..

– نعم.. إنني أعرفه منذ زمن بعيد.. فأملاكه مجاورة لأملاكنا.. وقد ذهبت لزيارته مرارًا. إن زوجته معه في المقصورة.. وهذا الشيخ الذي بجانبها.. هو والد المركيز دي شوار.

ورأى هكتور في عيني فوشيري أنه يغبطه على هذه الصداقة. فامتلأت نفسه خيلاء. وراح يدلي بالمزيد من التفاصيل. فقال إن المركيز من كبار موظفي مجلس الوزراء. أما الكونت فإنه عين أخيرًا كبير لأمناء الأمبراطورة.

وتناول فوشيري منظاره. وتحول به إلى مقصورة الكونت موفات. واستقر بصره على وجه زوجته الكونتس.

كانت امرأة ممشوقة القامة ناصعة البشرة. فاتنة الوجه ساحرة العينين. قال لصديقه:

– يجب أن تقدمني إليهم بين الفصول. لقد قابلت الكونت قبل الآن.ولكني أود أن أدعى إلى حفلات الاستقبال التي يقيمونها في قصرهم في يوم الثلاثاء من كل أسبوع.

وكان الزحام لا يزال شديدًا عند الأبواب وبين صفوف المقاعد. وقد ارتفعت الضجة حتى حجبت أنغام الموسيقى.

قال هكتور:

– انظر.. إنني أري رجلًا في مقصورة لوسي.

فارسل فوشيري بصره إلى المقصورة وغمغم:

– آه. نعم هذا هو لابورديت.

وقد قال ذلك ببساطة وقله اكتراث.. كأن وجود هذا الرجل في مقصورة لوسي أمر طبيعي.. ليست له دلالة خاصة.

ووقع بصر هكتور على ستيز ومينون وقد جلسا جنبًا إلى جنب في إحدى المقصورات. ثم على بلانش دي سيفري وقد حجبت بجسمها الكبير قامة الكونت دي فانديفر.

على أن أحدًا من هؤلاء جميعًا لم يثر في نفس هكتور مثل الفضول الذي أثاره داجينيه.. كان هذا الشاب جالسًا على مقعد متواضع في الصف الثالث خلف

"الاوركسترا".. وبجانبه تلميذ يناهز السابعة عشرة من عمره...

وقد راح الأول ينظر إلى الستار في فضول وقلق.. ولا يحول بصره يمنة أو يسرة.. بينما راح الثاني ينظر حوله في حيرة ودهشة.. كما لو كان قد دخل ذلك المكان لأول مرة في حياته.

قال هكتور فجأة:

– حدثني.. من هذه المرأة التي تحتل المقصورة الرابعة.. أعني هذه التي تجلس بجانب الفتاة ذات الثوب الأزرق.

فأجاب فوشيري:

– هذه هي "جاجا".

وصمت.. كأن هذا الاسم وحده يدل على أشياء يعرفها كل إنسان.

ولكنه عاد فتذكر أن ابن عمه لا يزال حديث العهد بالمجتمع الباريسي فقال:

– لا شك أنك سمعت عنها.. أنها كانت من أشهر الغانيات في بداية عهد "لويس فيليب".. لكنها لا ترى الآن إلا ومعها ابنتها..

ولكن هكتور لم يعبأ بالأبنة.. خيل إليه أن "جاجا" على شيء كثير من الفتنة والجاذبية رغم تقدمها في السن.. ورغم الأصباغ التي تلوث وجهها.. ولكنه لم يجرؤ على الإفصاح عن رأيه لصديقه.

وأخيرًا دق الجرس للمرة الثانية.. فصمت النظارة واعتدلوا في مقاعدهم.. وأشرأبوا بأعناقهم.. وارتفع الستار عن المنظر الأول فإذا هو يمثل جبل "الأولميب" تحيط به السحب.. وعن يمينه عرش "جيوبيتر".. إله البحار..

وخرجت "إيريس" يحيط بها طائفة من الجواري الحسان فترنمن بأغنية رقيقة. ورتبن مقاعد الآلهة حول عرش "جيوبيتر".

وعرف هكتور صديقته "كلاريس" في دور "ايريس".. فصفق لها بحماسة شديدة.. ولكنه شعر بالخجل وانكمش في مكانه حين لم يسمع لتصفيقه صدى..

ثم أقبلت "روز مينون" في زي الآلهة "ديانا"..

وعلى الرغم من نحافتها وسمرة بشرتها.. وانعدام التكافؤ بين شخصيتها وشخصية ديانا.. فإنها قوبلت من النظارة بعاصفة مدوية من التصفيق والهتاف.

وشكت "ديانا" زوجها مارس "إله الحرب" وساقت شكواها في أغنية بارعة قد صيغت عباراتها في ألفاظ ذات معنيين. ظاهرها برئ.. وباطنها إيحاء خبيث من الطراز الذي يلهب حماسة الجماهير.. فقوطعت بالتصفيق والهتاف واستعيدت مرارًا. وكان نجاحها عظيمًا.

ثم دخل زوجها "مارس" في ثوب "جنرال" يزين قبعته بريشة أطول من قامته. ويحمل حسامًا ترتطم قبضته بكتفه. وكان يقوم بهذا الدور الممثل المحبوب "يروليبه".. فاستقبله الجمهور بمظاهرة حماسية تضاءل أمامها نجاح روز مينون.

وتعاقبت بعد ذلك طائفة من المناظر الفاترة.. فظهر الممثل العجوز "بوسك" في دور "جيوبيتر". وعلى رأسه تاج هائل يثقل كاهله.. وهبطت حماسة النظارة إلى أدنى حد.. وبدأوا يشعرون بالملالة والسأم.

وراحوا ينظرون إلى بعضهم بعضًا ويتهامسون. ولا يقيمون وزنًا لما يقع على خشبة المسرح.. فانطلق مينون يطري مواهب زوجته.. وأخذت لوسي تضحك بصوت مرتفع.. وبرز الكونت دي فانديفر قليلًا فوق كتف بلانش دي سيفر. وجعل فوشيري يختلس النظرات من ركن عينه إلى مقصورة الكونت موفات وزوجته.. وكان الكونت جالسًا كالصنم وعلى وجهه دلائل الجد والصرامة كأنه في حضرة الإمبراطورة.. أما الكونتس فكانت تنظر إلى خشبة المسرح بعينين حالمتين. وعلى شفتيها ابتسامة غامضة.

وتهامس القوم في أنحاء الصالة: أين نانا؟!

وظهر على خشبة المسرح وفد من الأزواج المخدوعين برئاسة "نبتيون" وتقدم هؤلاء الأزواج من "جيوبيتر" بشكوي مرة من فينوس "الزهرة" لأنها تغري زوجاتهم بالتمرد عليهم.. والعبث بواجبات الزوجية.. وكان يقوم بدور "نبتيون" الممثل البارع "فونتان" وقد ارتدى ثوب حداد ريفي ذي الحية حمراء.. يزدان صدره بصورة قلب يخترقه سهم.

فهتفت سيدة في إحدى المقصورات:

– يا إلهي.. ما أبشعه!

وضحك النظارة وصفقوا.. ولكنهم عادوا يتساءلون: وأين "نانا"؟ وتجمعت سحب التذمر في جو المكان، وأوشكت أن تهدد بعاصفة استنكار حين انقشعت فجأ السحب التي تحيط بجبل "الأولميب" وظهرت "نانا"..كانت طويلة القامة ممتلئة الجسم. ناضجة الأنوثة.. يتماوج شعرها الأشقر الطويل الجميل على كتفين عاريتين أنصع من الثلج.

واقتربت في هدوء.. وهي تختال في ثوبها الأبيض الفضفاض وتبتسم المنظارة في بساطة كأنها تعرفهم جميعًا.

وانفجرت شفتاها الرقيقتان المخضبتان وترنمت بأغنيتها:

"عندما تخطر "فينوس" في ضوي القمر".

وما إن وقر صوتها آذان النظارة.. حتى وجموا.. ونظروا إلى بعضهم بعضًا.

ما معنى هذا؟! أهي دعاية خبيثة تفتق عنها ذهن "بوردنيف"؟!

أنهم لم يسمعوا قط صوتًا أكثر زيفًا ونشوزًا وأبعد عن أصول الفن من هذا الصوت.

لقد كان بوردنيف على حق حين قال أنها لا صوت لها.. وأنها لا تعرف كيف تقف وكيف تتحرك على خشبة المسرح.

وانبعثت ضحكات السخرية من هنا ومن هناك. وتأهبت الشفاه لإرسال عاصفة من صفير الاستهجان.. حين ارتفع من الصفوف الأمامية صوت ثاقب يقول صاحبه بلهجة الثقة والاقتناع:

– يا لها من فاتنة!

وتحولت جميع الأنظار إلى المتكلم.. كان هو التلميذ الذي اتخذ مكانه بجانب داجينيه. وكام وجهه في تلك اللحظة يفيض بشرًا وإعجابًا..

ولاحظ الشاب أنه محط أنظار الجميع.. فوجم. وأحمر وجهه.. ونظر إليه داجينيه وابتسم.

وانفجر النظارة ضاحكين.. ونسوا صفير الاستهجان الذي أوشك ان يفلت من شفاههم.. وصاح نفر من الشباب المعروفين في مطارح اللهو:

– نعم.. إنها فاتنة.. برافو..

ورأت نانا أن النظارة يضحكون.. فضحكت.. وخلقت بضحكتها الرنانة روحًا من المرح شملت المكان كله..

كانت الفتاة على جانب عظيم من الجمال والفتنة.. وليس في ذلك شك، وقد اكسبتها ضحكتها مزيدًا من الفتنة حين كشفت عن أسنان كاللؤلؤ المنظوم.. وانتظرت نانا حتى يسود الصمت..

انتظرت في سكينة وهدوء.. كما لو كانت قد قضت كل حياتها على خشبة المسرح...

وراحت توزع بسماتها على النظارة كأن بينها وبينهم ألفة قديمة وثيقة، وكأنما لتقول لهم فيما بينها وبينهم أنها تشعر بافتقارها إلى موهبة الغناء والتمثيل، ولكن ذلك لا أهمية له، لأنها تملك مواهب أخرى كما قال بوردنيف.

وأومأت إلى مدير الاوركسترا أن يواصل عمله، ثم استأنفت أغنيتها بذلك الصوت الحاد المعدني النبرات.. والابتسامة لا تزال تتلاعب على شفتيها الحمراوين، وفي عينيها الزرقاوين الصافيتين.

وكانت بعض ألفاظ الأغنية تنطوي على معان بذيئة تثير الغرائز الدنيا.. فكان الدم يصعد إلى وجهها وهي تترنم بها، فتزداد فتنتها ويتضاعف إعجاب النظارة بها. وحماستهم لها.

ولم تنقض بضع دقائق، حتى كان كل رجل في الصالة والشرفات موجهًا منظاره المكبر إلى كل مكان من جسدها.

ولما اقتربت من نهاية الأغنية.. انقطعت أنفاسها.. ولم تستطع بالاستمرار، ولكنها لم تضطرب ولم تنزعج.. وأتمت المقطوعة بحركة رشقة من فخذين مليئين لا يخفي ثوبها الشفاف استدارتهما.. ثم دارت على عقبيها وعرضت ثروة ثمينة من شعر ذهبي ينسدل على كتفيها وظهرها كالفراء على ظهر الحيوان البري، وحينئذ بلغت الحماسة أشدها.. وانطلقت الأصوات بالهتاف والأكف بالتصفيق.. حتى اهتزت جدران المكان.. وخيل أن السقف سينهار من شدة الاهتزاز.

وانتهى الفصل الأول وسط حماسة لم يشهد الناس لها مثيلًا.. وأخذ النظارة في الانصراف إلى المقصف أو لتنسم الهواء في الخارج.

وراح كل إنسان يبدي رأيه.

كانت المسرحية سخيفة بغير شك.. ولكن "نانا" هي أهم ما فيها.

والتقى فوشيري وهكتور بستينر ومينون في الردهة وسط الزحام والضجيج. فقال ستينر في همس:

– أنني أعرفها.. وأنا واثق من أنني رأيتها في مكان ما.. وأكثر من ذلك أنني رأيتها ثملة..

فقال فوشيري:

– يخيل إلى كذلك أنني قابلتها قبل الآن .. وأكبر ظني أنني قابلتها في حانة "تريكون".

فهتف مينون في غضب واشمئزاز:

– في حانة "تريكون".. أنك قابلتها في مكان بديع!!! والحق.. أنه مما يثير الاشمئزاز أن يرحب الجمهور بكل مخلوقة تقدم إليه.. وأن جيء بها من الأوحال.. وعما قليل يقفر المسرح من النساء الكريمات.. كلا.. كلا.. أظن أنه يجب على أن أمنع روز من الاشتغال بالتمثيل..

فأشاح فوشيري بوجهه.. ليخفي ابتسامة ارتسمت على شفتيه.. وكان الناس من حولهم لا يكفون عن إبداء رأيهم في النجمة الجديدة..

قال أحدهم:

– إنها لا تساوي شيئًا كممثلة، ولكنها منقطعة النظير كامرأة..

وقال آخر:

– إنها تؤكل.. ولا تسمع..

وقام خلاف بين شابين أنيقين، ثم انتهى الجدل بينهما إلى اعتراف مشترك.. بأن لنانا عينين ساحرتين..

ووافق هكتور من كل قلبه على جميع هذه الآراء.. وعقب بقوله.. إن نانا تصبح مغنية لا يشق لها غبار لو أنها تعهدت صوتها بالعناية والتهذيب والتدريب..

وأمسك مينون بساعد ستينر وقال له:

– هلم بنا إلى غرفة زوجتي.. لترى الثوب الذي أعدته للفصل الثاني..

الفصل الثاني

ودق الجرس ايذانا برفع الستار عن الفصل الثاني، فانحدر الناس من الشارع والمقصف إلى صالة المسرح. كما ينحدر الماء إلى البالوعة. وكان أول شيء فعله هكتور عندما احتل مقعده، أنه نظر من ركن عينه إلى مقصورة "جاجا".

ولشد ما كانت دهشته حين رآها تتحدث في غير كلفة إلى الرجل الطويل القامة. الذي رآه قبلًا يتحدث إلى لوسي.. فسأل فوشيري وهو يشير إليه:

– ما اسم هذا الرجل؟ أنك ذكرته لي. ولكني نسيته.

فنظر فوشيري إلى المقصورة. وقال في بساطة وقلة اكتراث كما فعل في المرة الأولى:

– آه.. نعم.. هذا "لابورديت".

وكان المنظر الثاني مفاجأة غير متوقعة، فإنه كان يمثل حانة باريسية معروفة، وقد اجتمع فيها جماعة من الفلاحين راحوا يرقصون ويترنمون بأغنية مبتكرة.وشوهد الآلهة بين الفلاحين. وقد هبطوا من السماء متنكرين.. ليبحثوا عن الزوجات اللائي أضلتهن "فينوس"وكان المنظر في جملته ناجحًا. ومثيرًا للضحك.. لاسيما حين وقع "جيوبيتر" في غرام إحدى القرويات، وراحت القروية تداعبه وتغازل لحيته الطويلة.

وكان سرور النظارة ومرحهم لا حد له، حين أقبل "مارس" وأسمعته إحدى القرويات أغنية تتضمن تعريضًا بارعًا بالجيش وبالحالة السياسية القائمة في فرنسا.

ونزل "نبتيون" ضيفًا على الحانة بعد أن أضناه البحث عن "فينوس" التي ظهرت أخيرًا في ثوب قروية حسناء. تعصب رأسها بمنديل أحمر وتتزين بقلادة ذهبية ضخمة تتدلى من جيدها الناصع البديع.

وكان منظر نانا في هذا الزي طبيعيًا خاليًا من الكلفة والتصنع.. ومن البساطة بحيث اجتذب إليها قلوب النظارة، فتضاءلت بجانبها روز مينون وكلاريس وسيمونا واختفت مواهبهن جميعًا أمام موهبة الجاذبية الجنسية التي تنعم بها هذا المخلوقة العجيبة.ومنذ تلك اللحظة، عميت أبصار النظارة وبصائرهم عن أخطاء نانا وعيوبها، فهي تستطيع أن تترنح على خشبة المسرح.. كما تشاء.. وتستطيع أن تتلعثم وتنسى دورها.. وبحسبها فقط أن تهز أردافها.. لتدب الحماسة في نفوس النظارة دبيب النار في الهشيم..

كانت امرأة بكل ما في الكلمة من معاني الأنوثة والجاذبية. وكانت أنوثتها وجاذبيتها.. هي كل فنها ومواهبها.

وانتهى الفصل الثاني بعد أن أستعيدت "نانا" مرارًا.. وكان جو الصالة خانقًا والحر شديدًا.. ففزع النظارة إلى الخارج بمثل السرعة التي كانوا يتزاحمون بها على الدخول..

قال هكتور: يجب أن أذهب إلى مقصورة الكونت موفات لأحيي زوجته الكونتس.

فأجاب فوشيري:

– خيرًا تفعل.. وحبذا لو قدمتني إليهما..

ولكن الوصول إلى مقصورة الكونت لم يكن أمرًا. ميسورًا.. فقد كان النظارة يتدفقون من الشرفات ويملأون الدهليز.. فاضطر الصديقان أن يواصلا السير ببطء شديد. وأن يعتمدا في تقدمهما على أيديهما دون أقدامهما.ومرا في طريقهما بمقصورة وقف ببابها أحد الناقدين الفنيين المعروفين.

وكان الناقد يدلي برأيه لنفر من أصدقائه..

قال إن المسرحية سخيفة. وأنها بصفة في وجه الأدب والأخلاق ولكنه عندما سئل عن رأيه في نانا.. لمعت عيناه.. وابتسم ابتسامة غامضة. ولزم الصمت.. على أن اسم النجمة الجديدة كان يتردد على كل لسان.. وكانت النساء– ذاوت الخلق المريب بصفة خاصة– أشد إعجابًا بها من الرجال.

والتقى فوشيري في طريقه بالكونت دي فانديفر، فهمس هذا في أذن الصحافي:

– أليست نانا هي الفتاة التي التقينا بها مرارًا في ركن شارع "بروفانس" حيث تتردد فتاة الأرصفة لإغراء المارة؟

فصاح فوشيري:

– صدقت.. إنها هي بعينها.. لقد كنت واثقًا من أنني رأيتها في مكان ما قبل الآن..

ووصل الصديقان إلى مقصورة الكونت موفات. وقدم هكتور ابن عمه إلى الكونت.. فاستقبله موفات في كبرياء وبرود.

ولكن الكونتس ما كادت تسمع اسم الصحافي، حتى ابتسمت له في أدب.. وهنأته.. بعبارات وجيزة مركزة على مقالاته في جريدة "الفيغارو".

ودار الحديث بين الزوجين والصديقين عن بعض الشؤون العامة..

وتناول "معرض باريس" فقال الكونت بلهجته الصارمة.. كما لو كان يتحدث في اجتماع رسمي:

– سيكون هذا المعرض من أعجب المعارض العالمية، وقد ذهبت منذ أيام لزيارته فملكتني الدهشة والعجب.

فقال هكتور:

– لقد قيل لي أنه لن يتم في الموعد المحدد لإفتتاحه.

فقطب موفات حاجبيه وقال:

– بل لابد أن يتم.. فتلك إرادة الإمبراطور.

ووصف فوشيري بعبارات مرحة.. كيف استطاع أن يدخل المعرض خلسة.. وأصغت إليه الكونتس بانتباه وابتسمت له مرارًا.. ولما فرغ من كلامه.. قالت تحدث هكتور:

– ارجو أن أراكما في منزلي. نحن نستقبل أصدقاءنا في أيام الثلاثاء.

ورأى فوشيري أن الدعوة تنسحب عليه كذلك. فشكر الكونتس بانحناء قامته.

ولم يدر حديث عن المسرحية ولم ينطق أحد باسم "نانا". وقال الكونت بصرامته المألوفة وكأنه يعتذر عن وجوده في ذلك المكان:

– إن المكريز دي شوار شغوف بالمسرح.. وقد دعانا لقضاء السهرة معه هذه الليلة.

وكان المركيز قد غادر المقصورة ليفسح مكانًا للزائرين.. فنظر فوشيري حوله باحثًا عنه.. ووجده واقفًا في الدهليز منتصب القامة رغم شيخوخته.. وعيناه لا تتحولان عن امرأة إلا لتستقرا على أخرى.

ورأى فوشيري أن من فساد الذوق أن يتحدث عن المسرحية وبطلتها الجديدة بعد أن لاحظ عزوف الكونت وزوجته عن هذا الضرب من الحديث.. فاستأذن في الانصراف.. وتبعه هكتور.

وأنهما يجتازان الدهليز، إذ كانت من هكتور التفاتة إلى مقصورة الكونت دي فانديفر. فرأى لابورديت يتحدث إلى بلانش دي سيفري في همس.

ويضع يده على كتفها في غير كلفة. فبهت وقال:

– يخيل إلى أن هذا المدعو لاورديت يعرف جميع النساء. انظر إنه الآن مع بلانش دي سيفري.

فقال فوشيري:

– يعرف جميع النساء طبعًا.. إن مهنته أن يعرف جميع النساء.

وفي هذه الأثناء كان مينون حريصًا على ألا يدع ستينر يغيب عن بصره فلما رآه يهم بمغادرة المقصورة تأبط ساعده عنوة ورافقه إلى المقصف.

ورأى مينون بعين الخبير بأهل البيئة التي يتمرغ في أوحالها.. أن نجاح نانا كان ساحقًا.. وأن نجمها الصاعد سيضع تحت قدميها حتمًا جميع أولئك السادة الذين يجدون المجد والسعادة في أن يعفروا جباههم ويضعوا كل ثروتهم تحت أقدام الكواكب الصاعدة، فراح يتحدث عن "نانا" حديثًا كله إعجاب وحماسة، دون أن يكف عن مراقبة ستينر من ركن عينه.

كان يعرف ستينر حق المعرفة.. ويعرف نزواته العارضة.. وجنونه بكل امرأة تصيب هوى من نفسه وقد ساعده مرارًا على خيانة روز، ولكن كان يرده إليها آخر الأمر تائبًا نادمًا. وجلس الرجلان في المقصف أمام قدحين من الجعة. ولم ينبس أحدهما بكلمة.. كان ستينر يفكر في نانا.. ويود لو يجد وسيلة تدنيه منها.وخطر له أن يبعث إليها بباقة من الزهر.. يعبر بها عن إعجابه وتهنئته وتكوون رسوله إليها. فدعا أحد الخدم. وأناط به هذه المهمة.

وسمع مينون أوامره.. وفهم مغزاها.. ونظر إلى ستينر نظرة أخجلته وأقلقته. وجعلته يدعو الخادم ويقول له.

– جئني بباقتين.. للنجمتين..

وما إن ابتعد الخادم حتى أسند مينون مرفقية على المنضدة. وقال وهو يحملق في وجه ستينر:

– حسنًا.. إنني سأقدمك إليها. ولكن يجب أن يبقى ذلك سرًا بيننا لا تعلم به زوجتي.

ودق الجرس، وعاد النظارة إلى مقاعدهم.وعندما هم فوشيري بالجلوس

لاحظ أن داجينيه يومئ إليه كأنه يريد أن يقول له شيئًا. فانحنى إلى الأمام لكي يسمعه.. قال داجينيه بصوت مسموع:

– ما قولك..

وفهم الصحافي أنه يريد أن يعرف رأيه في نانا فأجاب بلهجة غامضة:

– سوف أكتب عنها بما تستحق..

وكان وجه داجينيه يتألق سرورًا وارتياحًا.لقد وثق الآن من نجاح نانا.. إن الجميع يعترفون بنجاحها فليصطل إذن في حرارة مجدها. فلن يضيره أن يعلم الناس أنه صديقها.والواقع أن أصدقاءه المقربين كانوا يلوحون له بأيديهم مهنئين.ولم يكن جاره التلميذ قد غادر مكانه لحظة واحدة.

كانت نانا قد فتنته. وملكت عليه كل جارحة من جوارحه.. فأخذ يعبث بفقازه. منتظرًا بفروغ صبر أن يرتفع الستار ليرى فاتنته.

واجتمع لديه من الأدلة في خلال ذلك ما أقنعه بأن جاره يعرف "نانا" معرفة وثيقة، فجمع أطراف شجاعته وقال له في أدب وبلسان متلعثم:

– معذرة يا سيدي.. هل تعرف.. هذه السيدة التي تقوم بدور فينوس؟

فغمغم داجينيه بعد تردد قصير:

– نعم.. أعرفها.. قليلًا.

– إذن أنت تعرف عنوان بيتها.

وكان السؤال من الغرابة والجرأة، بحيث أوشك داجينيه أن يهوي بيده على وجه الغلام.

ولكنه ملك نفسه في اللحظة الأخيرة وقال ببرود:

–كلا.. إنني لا أعرفه.

واولاه ظهره.

وعندئذ فقط أدرك التلميذ أنه لابد قد تورط في غلطة فاحشة.. فاحمر وجهه.. وغاص في مقعده.

وارتفع الستار عن منظر يمثل كهفًا في "مونت اتنا".

وظهرت "ديانا" وهي تحاول التخلص من زوجها نبتيون.. وما إن تم لها ذلك، حتى دخلت "فينوس" وعندئذ سرت في أجساد النظارة هزة عنيفة.

هل ترتدي "فينوس" ثوبًا.. أم هي عارية؟

كلا.. إنها ليست عارية.. ولكن غلالتها الرقيقة لا تكاد تستر عريها..

كانت غلالة شفافة كزبد البحر.. فكأن "فينوس" قد خرجت من بين الأمواج لا يستر كتفيها الجميلتين وصدرها البارز وفخذيها المستديرين غير ما علق بجسدها وشعر رأسها من الزبد.لم يصفق أحد.. فإن الأيدي التي ارتفعت للتصفيق لم تلبث أن تراخت كأنما أصابها شلل.

ولم يبتسم أحد. فقد كانت وجوه الرجال جميعًا كالحة. ممتقعة. كأنهم يشعرون بخطر خفي.

لم يروا أمامهم "نانا" التي عرفوها في الفصلين السابقين، وأعجبوا منها ببساطة وسذاجة. كبساطة الأطفال الأبرياء وسذاجتهم، بل رأوا امرأة عاتية، على شفتيها ابتسامة غامضة، هي ابتسامة المرأة التي ترنو لتقتل.. وتتحرك لتبطش.

وكان "مارس" على موعد مع "ديانا" ولكنه وجد هذه عن يمينه و"فينوس" عن يساره. وعندئذ شهد الناس منظرًا بارعًا. منظر رجل تتنازعه امرأتان ساحرتان.. وتتوسل كل منهما بكل ما أوتيت من فتنة وإغراء لانتزاعه من قبضة غريمها.

وفي هذه اللحظة الدقيقة التي حبس فيها النظارة أنفاسهم. وتوجهوا بكل

حواسهم إلى ما يقع على خشبة المسرح. وأطل أحد الخدم من مقصورة ستينر ومينون وألقى تحت قدمي كل من الآلهتين باقة بديعة من الزهر.

وأومأت "نانا" و"روز" برأسيهما شاكرتين. والتقط "مارس" الباقتين. وتحولت الأنظار عن خشبة المسرح إلى مقصورة ستينر، فاحتقن الدم في وجه الممول اليهودي.. وسبح رأسه.. وأحتبست أنفاسه..

وخرجت "ديانا" من الكهف مقهورة مهيضة الجناح. وأحاطت "فينوس" بساعدها عنق "مارس".

ودخل "نبتيون" في هذه اللحظة.. وتطاير شرر الغضب من عينيه حتى رأى زوجته في أحضان "مارس".

وكان يحمل في يده شباكًا لصيد السمك، فتسلل وراء العاشقين الآثمين. وألقى عليهما شباكه. واقتنصمها متلبسين بخيانته.

وهنا أفلتت من أفواه النظارة غمغمة استحسان وإعجاب.. وصوبت المناظرات المكبرة إلى حيث كانت "فينوس" تتخبط في الشباك..كان بوردنيف على حق.

لقد نجحت نانا.. وكان يكفيها– كما قال بوردنيف– أن تظهر على خشبة المسرح. لتحتل قوب النظارة وتأسر ألبابهم.

ونظر فوشيري حوله ليرى ماذا فعلت "نانا" بجمهورها ؟

إنها صيرت جميع الرجال عشاقًا لها.

فها هو التلميذ الشاب قد وقف أمام مقعده. واشرأب بعنقه لكيلا تفوته حركة من حركاتها.

وها هو الكونت دي فانديفر.. ممتقع الوجه.. بادي الاضطراب.

وها هو ستينر يلتقط أنفاسه بصعوبة كمن يوشك أن يصاب بالصرع.

والكونت موفات.. ذلك الرجل الصارم الرزين.. ها هو ينظر إليها مشدوهًا وعلى خديه الشاحبين بقعتان حمراوان ملتهبتان.

وها هو المركيز دي شوار.. واقفًا وراء ابنته. وقد استحالت عيناه إلى بقعتين فسفورتين ومتألقتين كعيني القط.

وأخيرًا.. ها هي نانا هادئة باسمة تطل من سماء مجدها على ألف وخمسمائة عبد يتمنى كل منهم أن يضع حياته وثروته تحت قدميها.

وهبط الستار. فاهتز المكان بدوي التصفيق. وارتفع الهتاف في طلب نانا.. نانا.. نانا..

ورفع الستار.. وبرزت نانا في ثوبها الشفاف. تحيط بها روز مينون وكلاريس وسيمونا وسائر الممثلات والممثلين.. وعلى وجوههم جميعًا علامات البشر والاغتباط، فقوبلوا بعاصفة من التصفيق والهتاف.وبدأ النظارة في الانصراف. وأخذ بعضهم يترنم بأغنية نانا الأولى:

"عندما تمخطر "فينوس" في ضوء القمر".

والتقى فوشيري وهكتور ببوردنيف عند الباب. فانتحى مدير المسرح بالصحافي جانبًا. وحصل منه على وعد قاطع بتقريظ المسرحية وتشجيعها.

وكان بوردنيف ثملًا بنشوة الانتصار. فقال له هكتور في أدب:

– سوف تعرض هذه المسرحية بنجاح إلى ما شاء الله.. إنك ستشيد بها مجد مسرحك.

فقال بوردنيف في غضب:

– بحق الشيطان. لماذا لا تقول ماخورتي!؟

الفصل الثالث

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي.. كانت نانا لا تزال ممددة في فراشها..

كانت تقيم في الطابق الثاني من منزل كبير بشارع هوسمان وقد استأجر لها هذا الطابق تاجر روسي غني.. قضى الشتاء في باريس ثم عاد إلى موسكو.. بعد أن دفع سلفًا إيجار الطابق لمدة ستة شهور..

وكان الطابق فسيحًا كثير الغرف، ولم يتيسر لنانا قط أن تكمل تأثيثه.. بل لقد كانت في مخدعها أدلة كثيرة تنطق بأن الفتاة تقلبت في أيدي كثيرين من العشاق بعد أن تركها عاشقها الروسي. وأن حياتها في ذلك المكان كانت كفاحًا متواصلًا ضد الفاقة والعوز..

كانت نائمة على وجهها.. وزراعاها العاريتان تحيطان بوسادتها. ثم استيقظت فجأة. كأنما أدهشها السكون الذي يحيط بها.. ورفعت رأسها.. ونظرت حولها.. كمن يتوقع أن يرى شخصًا في غرفته، ولكن لم يكن في مخدعها أحدًا سواها.. ترددت قليلًا.. ثم مدت يدها في خمول.. ودقت جرسًا.. وفتح الباب.. ودخلت وصيفتها.

سألتها:

– هل ذهب يالويز؟!

فأجابت الوصيفة.

– نعم يا سيدتي.. إن مسيو داجينيه قد انصرف منذ بضع دقائق. قائلًا أنك متعبة. وأنه لا يريد أن يزعجك.. ثم طلب إلى أن أنبئك بأنه سيجئ غدًا..

وكانت الوصيفة تتكلم.. وهي تفتح النوافذ.. فانبثق ضوء النهار على وجهها المجعد الشاحب وشفتيها الغليظتين.. وعينيها القلقتين.

فغمغمت نانا.. وهي تغالب النعاس:

– غدًا.. غدًا.. أي يوم غدًا !!

– أنت تعلمين يا سيدتي.. أن مسيو داجينيه لا يأتي إلا في أيام الأربعاء..

فقالت نانا:

– نعم.. نعم.. أعلم ذلك.. ولكن كل شئ قد غير الآن..

وجلست في فراشها واستطردت:

– لقد كنت أريد أن أقول له ذلك، لأنني أخشي أن يلتقي بالزنجي.. فيكون الموقف ظريفًا..

فغمغمت لويز:

– كان يجب أن تخطرني سيدتي بذلك.. وإلا كيف أعلم أن سيدتي عدلت برنامجها؟! هل تريدين أن تكون زيارة "البخيل" في أيام الثلاثاء؟!

و"الزنجي" و"البخيل" هما الصفتان اللتان اصطلحت المرأتان على إطلاقهما على الرجلين اللذين كانا ينفقان على "نانا" وأولهم تاجر فحم غني في ضاحية "سان كلو" والثاني.. نبيل متقدم في السن شديد التقتير على نفسه وعلى عشيقته.

وكان داجينيه قد كمن في المطبخ. وانتظر بفروغ صبر حتى انصرف التاجر لعمله مبكرًا. فحل محله.. ولما دقت الساعة العاشرة انصرف بدوره لقضاء شؤونه.. وذلك هو النظام الذي وافقت عليه "نانا" ورحبت به، لأنه يترك لها مطلق الحرية طيلة النهار..

قالت نانا:

– إذن يجب أن أكتب إليه بعد ظهر اليوم.. وإذا جئت ولم يتسلم رسالتي..

وجاء غدًا كما وعد.. فعليك أن تمنعيه من الدخول.

وأخذت لويز تجول في أنحاء المخدع.. وترتب ما يستحق الترتيب عن النجاح العظيم الذي أحرزته سيدتها في الليلة السابقة.

قالت أن سيدتها قد أحرزت نجاحًا منقطع النظير.. وأنها عرفت كيف تبرز مواهبها كمغنية وممثلة. وأنها كانت تود من كل قلبها تهنئتها بنجاحها عقب عودتها من المسرح.. ولكن حال بينها وبين ذلك وجود "البخيل"..

نعم. لابد أن البخيل قد ضايق سيدتها وأتعبنها.. ولكن حمدًا لله أن سيدتها تستطيع الآن أن تركله بقدمها وتعيش بدونه.

وأصغت نانا إلى حديث وصيفتها.. وأطرقت برأسها سرارًا.

كان شعرها منسدلًا على وجهها. وقد انحسر قميصها عن كتفيها.

قالت ببطء:

– نعم.. أظن أنني أستطيع الآن أن أركله بقدمي.. وأن أعيش بدونه. ولكن ماذا يجب أن أصنع الآن؟ إنني أتوقع اليوم كل ضروب المضايقات.هل جاء البواب اليوم في طب الإيجار؟!

ودار حديث جدي بين نانا ووصيفتها.

لم تكن قد دفعت الإيجار منذ ثلاثة شهور.. وقد هددها صاحب البيت بالحجز على أثاثها. ثم هناك دائنون آخرون. كصانع الثياب.. والخباز.. والفحام. وصاحب اصطبل المركبات وغيرهم كثيرون.

وقد بكر بعض هؤلاء الدائنون بالحضور فأجلستهم لويز في إحدى الغرف.. وكان أكثرهم يطالبون بديونهم في أدب فيما عدا الخباز.. فإنه أحدث جلبة شديدة على السلم.

بيد أن هذه لم تلقق نانا.. بقدر ما كانت تشعر بقلق والانزعاج من أجل طفلها الصغير "لويس"..كانت قد رزقت بهذا الطفل من عابر سبيل وهي في السابعة عشرة من عمرها.. فعهدت بتربيته والعناية به إلى امرأة في "رامبوييه".. وهذه المرأة تطالبها الآن بثلاثمائة فرنك جزاء عنايتها بالطفل.

وكانت نانا قد زارت طفلها أخيرًا.. فحركت هذه الزيارة في نفسها أرق عواطف الأمومة.. وقررت بدافع الرحمة والحنان أن تسترد الطفل من تلك المرأة.. وتعهد به إلى عمتها مدام ليرا في بلدة "باتينول" حيث تستطيع أن تزوره كلما أرادت.

قالت بعد أن استعرضت ديونها العاجلة وعرفت مجموعها:

– إنني بحاجة إلى خمسة آلاف فرنك على الأقل.

واقترحت عليها لويز أن تفضي بمتاعبها إلى "البخيل".. فأجابت:

– إنني فعلت ذلك.. فاتهمني بقصر النظر وسوء التدبير.. وقال أنه ينقدني ألف فرنك شهريًا.. ولن يزيد هذا المبلغ سنتيما واحدًا.

أما "الزنجي" فإنه مفلس في هذه الأيام.. وأظن أنه خسر نقوده في الميسر.

أما داجينيه المسكين.. فإنه يبحث عمن يقرضه شخصيًا.. ولا يستطيع أن يقدم إلى غير باقات الزهر.

وكانت هذه أول مرة تتحدث فيها نانا إلى وصيفتها عن شؤونها الخاصة بمثل هذه الصراحة.. فأجابت الوصيفة بأنها مغتبطة بهذه الثقة وأنه ما دامت سيدتها قد صارحتها بمتاعبها.. فإنها تجد من واجبها أمام هذه الثقة وهذه الصراحة أن تدلي برأيها وتقدم نصيحتها.

ثم قالت أنها تحب سيدتها. وأنها تركت خدمة مدام "بلانش" من أجلها. وأنه كان في استطاعتها أن تجد عملًا في عشرات القصور ولكنها تفضل البقاء مع

سيدتها رغم عسرها وضيق ذات يدها. لأنها تؤمن بأن المستقبل لها.ولكن حبذا لو تأخذ سيدتها برأيها. وتعمل بنصيحتها. فإن سيدتها لا تزال في مقتبل العمر.. وقليلة الخبرة والتجارب. ويحتمل لذلك أن تتورط في كثير من الأخطاء.

ولكنها إذا أصغت إلى نصحها. واعتمدت على تجاربها وخبرتها فما أسرع ما تتخلص من متاعبها.

أن سيدتها تستطيع أن تنطق بكلمة واحدة.. فتهيأ لها السبل لإسكات دائنيها. والحصول على ما تريد من أسباب الترف والنعيم.

فقالت نانا في ضجر وهي تدفن أصابعها في شعرها الذهبي:

– نعم. ولكن كل هذه النصائح الثمينة لا تعني عن الثلاثمائة فرنك التي أريدها من أجل ولدي.

يجب أن أحصل على هذا المبلغ اليوم. بل في هذه اللحظة.إن مما يغبط حقًا. ألا تعرفي أحدًا يقرضك هذا المبلغ.

كانت تنتظر حضور عمتها في أية لحظة. لكي تذهب بالمبلغ وتعود بالطفل.وكانت حاجتها إلى الثلاثمائة فرنك. لإرضاء عاطفة الحنان الذي عبرت بقلبها. هي كل ما يشوه سعادتها. واغتباطها بالفوز الذي أحرزته في الليلة السابقة..

يا إلهي.. ألم يكن بين كل أولئك الرجال الذين استقبلوها بالتصفيق والهتاف من يعطيها ثلاثمائة فرنك؟! ما أشد تعاستها.وعادت تتحدث إلى وصيفتها عن طفلها الصغير العزيز.. الذي يدعوها "ماما" بلهجة جعلتها تغرق في الضحك..

وفجأة دق جرس الباب بعنف. فأسرعت لويز وفتحته.. وعادت تقول في همس:

– بالباب سيدة تطلب مقابلتك.

وكانت لويز قد قابلت هذه السيدة مرارًا. في بيوت الغانيات اللائي استخدمنها.. ولكنها تظاهرت بأنها لا تعرفها.. ولا تعرف صلاتها الخاصة بالغانيات اللائي يجدن أنفسهن في عسر مالي في بعض الأحيان.

استطردت لويز:

– أنها تقول أن اسمها مدام تريكون.

فصحات نانا:

– آه.. مدام تريكون.. قد نسيتها.. حسنًا.. دعيها تدخل أنها جاءت في الوقت المناسب..

ودخلت امرأة متقدمة في السن.. منتصبة القامة.. أنيقة الثياب يخيل للناظر إليها أنها "مركيزة" أو "كونتس".. وأنها ليست مدام "تريكون"صاحبة الحانة المعروفة التي تعج ببنات الهوى. ويختلف إليها طلاب العبث واللهو الأثيم.

كانت لهذا السيدة المهيبة الطلعة الوقورة المظهر شهرة خاصة.. هي شهرة المرأة التي تعرف كيف تتسلل من مخادع النساء بخفة الثعبان متى دخل أحد الرجال.كانت زياراتها دائمًا قصيرة.. فهي لا تجلس أبدًا.. ولا تمكث إلا ريثما تتبادل بعض العبارات بصوت خافت.. ولهجة قاطعة.

قالت:

– عندي من يريدك.. فهل توافقين ؟

– نعم.. والمبلغ؟!

– أربعمائة فرنك.

– متى؟!

– في الساعة الثالثة.. اتفقنا؟!

– نعم..

وأخرجت مدام تريكون من حقيبتها ورقة وقلمًا.. وكتبت شيئًا ثم قالت بلهجة المتعب أنه لا يزال عليها أن تقابل خمس أو ست فتيات أخريات وانصرفت..

ولما انفردت نانا بنفسه. تنهدت بارتياح ومرغت وجهها في الوسائد كما تفعل القطة السمينة المدللة. وابتسمت حين تصورت طفلها الصغير في الثوب الجديد الذي ستبتاعه له متى أحضرته عمتها، وأغمضت عينيها وهي تشعر بمزيج من الحنان والخيلاء. وقد اختلط في ذهنها صوت ولدها.. وهتاف النظارة.وما لبث أن غلبها النعاس فنامت.

وحول الساعة الحادية عشرة. جاءت مدام ليرا ودخلت المخدع.

وكانت نانا لا تزال نائمة. ولكنها استيقظت عندما فتح الباب. ورأت عمتها فهتفت:

– آه. أهذه أنت!! هل تذهبين اليوم إلى "رامبوييه"!!

فأجابت العمة:

– إنني جئت خصيصًا لهذا الغرض. وسأذهب في قطار الساعة الواحدة.

فقالت نانا وهي تتمطى:

– كلا. إنني لن أحصل على النقود قبل الساعة الثالثة. فلنتناول طعام الإفطار معًا. ولننظر بعد ذلك فيما نستطيع عمله.

وجاءت لويز بغلالة ألقتها على منكبي سيدتها وقالت:

– قد حضر الحلاق يا سيدتي وهو ينتظر.

ولكن نانا لم تشأ مبارحة مخدعها. فصاحت بالحلاق:

– أدخل يا فرنسوا.

فدخل رجل في مقتبل العمر. أنيق الثياب. وحيا نانا وعمتها بإحناء قامته.

وجلست نانا على مقعد أمام المرآة.. وألقت غلالتها عن منكبيها.

وبدأ فرنسوا في عمله..قال وهو يعالج شعرها الجميل:

– هل قرأت سيدتي صحف الصباح؟ لقد نشرت "الفيغارو" عن سيدتي مقالًا طريفًا.

وأخرج الجريدة من جيبه. فتناولتها مدام ليرا.. ووضعت عويناتها فوق أنفها. وأقتربت بالجريدة من النافذة. وشرعت تقرأ المقال بصوت مسموع.كان مقالًا طريفًا حقًا.. وقد كتبه فوشيري عقب عودته من المسرح..

وكتبه بأسلوب غاية في البراعة والدهاء. فملأ حقلين من الجريدة.. ضمنها سخريته بالممثلة وإعجابه بالمرأة في شخص نانا.

قال فرنسوا:

– إنه مقال بديع.

وأصغت نانا إلى المقال بانتباه. وقالت أنه لا يهمها أن يسخر الناقدون من صوتها.. وأن فوشيري كان ظريفًا على كل حال.

وفرغ فرنسوا من عمله.. وجمع أدواته.. وأحنى قامته باحترام مودعًا نانا وهو يقول:

– سوف أرقب صحف المساء.. هل أحضر في الساعة الخامسة كالمعتاد؟

فصاحت نانا:

– طبعًا.. طبعًا.. وجئني معك ببعض الأصباغ والحلوى.

ولما انفردت المرأتان.. تذكرتا أنهما لم تتعانقا.. وأطبقت كل منهما على

عنق الأخرى. وكان مقال "الفيغارو" أهم محرك لهذا الحب الفجائي..

والواقع.. أن "نانا" لم تقدر نجاحها حق قدره، ولم تشعر بأهميتها الشخصية قبل أن تعرف مضمون المقال.. وقد قالت لنفسها أن هذا اليوم سيكون بغير شك من أسوأ الأيام في حياة روز مينون.

وزعمت مدام ليرا أنها لم تشهد التمثيل لأن الانفعال يؤثر على أعصابها.. فوصفت لها نانا الحفلة بإسهاب.. وتحدثت عن نجاحها حديثًا أثملها هي شخصيًا حتى باتت تعتقد أن اسمها أصبح على كل لسان، ثم تساءلت وهي تضحك في سذاجة.. عما عسى أن يقوله الناس لو علموا أن معبودتهم ليست إلا من فتيات الأرصفة. وأنها كانت إلى عهد قريب تتسكع في الشوارع المظلمة وتغري المارة بنفسها.

ولكن مدام ليرا قطبت حاجبيها.. وقالت أنه لا ضرورة لأن يعلم الناس شيئًا من ذلك. وأن الماضي قد ذهب بحلوه ومره.. وليس من الحكمة أن تبعثه من مرقده. ثم سألتها فجأة.. وفي عينيها نظرة الفضول:

– ومن هو والد الطفل؟

وأخذت نانا على غرة.. فترددت قليلًا، ثم أجابت:

– إن والده رجل كريم.

فهتفت مدام ليرا:

– إذن فالطفل جدير بكل عناية.

وأجابت "نانا" بأن الطفل جدير بالعناية حقًا، وأنها لن تدخر وسعًا في توفير أسباب السعادة له، ولذلك اعتزمت أن تعهد به إليها لقاء مائة فرنك شهريًا.

وما كادت مدام ليرا تسمع عن المائة فرنك حتى سالت من عينيها دموع الحنان.. وعانقت نانا للمرة الثانية.

وعندما ذكرت "نانا" ولدها.. تذكرت النقود وموعد الساعة الثالثة. فاكفهر وجهها وغمغمت:

– هذا مؤلم.. يجب أن أذهب في الساعة الثالثة.

وهمت مدام ليرا أن تسألها إلى أين تريد الذهاب. ثم حانت منها التفاتة إلى وجه "نانا" ففهمت وصمتت.

وفي هذه اللحظة أقبلت لويز أن طعام الإفطار قد أعد. فانتقلت المرأتان إلى غرفة الطعام.. وهناك وجدنا امرأة متقدمة في السن.. قد سبقتهما إلى الغرفة. واحتلت مكانها أمام المائدة. ولم تدهش نانا حين رأت هذه الزائرة. لكنها سألتها لماذا لم تذهب توًا إلى مخدعها.. فأجابت العجوز:

– لقد سمعت أصواتًا.. ففهمت أن عندك ضيوفًا.

كانت هذه العجوز تدعى مدام "مالوار".. وهي امرأة يدل ظاهرها على الوقار.. وقد كانت نانا تأنس إليها.. وتخرج برفقتها في بعض الأحيان.

وقد شعرت مدام مالوار بالقلق حين رأت مدام ليرا.. ولكنها اطمأنت وتهلل وجهها بشرًا حين علمت أنها عمة نانا..

وأنقضت نانا على صحفة مليئة "بالطماطم" الطازجة.. وحاولت مدام ليرا أن تقنعها بأن "الطماطم" عسيرة الهضم.. ولكن النجمة الشهيرة لم تأبه لهذه النصيحة، وأقنعت عمتها بأن معدتها تهضم جلد الأحذية، على أنها لم تتناول شيئًا من صحفة الشواء.. وانصرفت إلى تأمل قبعة مدام مالوار.

سألتها فجأة:

– هل هذه هي القبعة الجديدة التي ابتعتها لك!؟

فأجابت مدام مالوار وفمها مملوء بالطعام:

– نعم.. لكني أدخلت عليها الكثير من التحسين.

– يا إلهي.. إنني لا أكاد أعرفها.

كانت لمدام مالوار وجهة نظر خاصة في القبعات، فالقبعة في نظرها لا تكون جديرة بهذا الاسم إلا إذا تعددت ألوانها الزاهية الصارخة.. وزينتها ريشة لا يقل ارتفاعها عن نصف متر..كانت نانا قد ابتاعت لها هذه القبعة الجديدة لكيلا تخجل من مرافقتها في الطريق.. فلما رأت ما أصاب القبعة من مسخ وتشويه.. استولى عليها الغضب وصاحت:

– اخلعي هذه القبعة بحق السماء.

فأجابت مدام مالوار في هدوء:

– شكرًا لك. أنها لا تضايقني. وفي استطاعتي أن أتناول الطعام وهي على رأسي.

ووضعت لويز أمام سيدتها دجاجة باردة. ولكن نانا دفعت الصحفة بيدها وختمت طعامها بقليل من الحلوى.

كان لها ذوق الببغاء.

ودار الحديث بين النساء الثلاث حول النجاح الذي أحرزته نانا في الليلة السابقة.

وفي أثناء الحديث زالت الكلفة بين العمة، امرأتان التقيا فجاة تشتركان الآراء والعواطف فتوثقت الألفة بينهما واستأثرتا بالحديث. بينما راحت نانا تدخن. وتصغي إليهما في سكون. وأرادت العمة أن تكسب ثقة لويز كما اكتسبت ثقة نانا ومدام مالوار. فسألتها عن قصة حياتها. وطاب للوصيفة أن تجد لنفسها كل هذه الأهمية. فراحت تسرد قصتها. وقالت أنها قضت طفولتها في تعب وشقاء وصادفت في شبابها كثيرًا من المناكد وخيبة الأمل، فالتحقت بخدمة أحد أطباء الأسنان. ثم تقلبت في خدمة كثير من شهيرات الغانيات.

وكانت لويز تتكلم بلهجة المرأة التي تعرف قدر نفسها. فقالت أنها كانت المسيطرة على شؤون أولئك الغانيات. وأنه لولاها لنزلت بهن مصائب لا عداد لها. مثال ذلك مدام بلانش. التي كانت ذات يوم مع عشيقها حين جاء زوجها بغتة.

وهنا صمتت لويز. كما كانت تصمت شهر زاد في الوقت المناسب. فصاحت مدام ليرا وهي نهبة الفضول:

– وماذا حدث؟

فأجابت لويز في هدوء:

– هل تعلمين ماذا حدث؟! تعمدت السقوط أمام الزوج.

وتظاهرت بالإغماء. فخف الزوج إلى المطبخ ليسعفني بقدح ماء وفي هذه الأثناء تمكن العشيق من الفرار.

فضحكت نانا. وقالت وهي تنفث سحب الدخان من فمهما ببطء:

– أرأيت يا عمتي. إنها كنز ثمين.

واستمرت تصغي إلى وصيفتها باهتمام وفضول. ثم لاحظت فجأة أن عمتها تعبث بالسكاكين فصاحت بها:

– كلا يا عمتي. دعي هذه السكاكين. فإن العبث بها يحملني على التشاؤوم.

ثم أطفأت لفافة التبغ وتثائبت وقالت في ضجر:

– لقد دقت الساعة الثانية. ويجب أن أذهب. يا إلهي.. إن هذا مؤلم.

فتبادلت المرأتان نظرة ذات مغزى. وتنهدتا. وقالت العمة:

– سنلعب الورق ريثما تعودين.

فأشعلت نانا لفافة تبع أخرى، وقالت لمدام مالوار أنها تريدها على أن تكتب لها رسالة قبل أن تذهب، لأنها شخصيًا لا تثق بأسلوبها.

وجاءتها بورقة وقلم..كانت الرسالة لداجينيه. فاستهلتها مدام مالوار بالكلمتين "صديقي المحبوب" وطلبت إليه فيها ألا يزورها في اليوم التالي. لأنه "يجب ألا يزورها".

قالت مدام مالوار:

– أظن أنه يجب أن أختم الرسالة بـ "ألف قبلة".

فلمعت عينا مدام ليرا. وأطرقت برأسها موافقة.

كان يسرها دائمًا أن تشترك في أي حادث غرامي..

قالت:

– بل أكتبي "ألف قبلة بين عينيك الساحرتين"..

فصاحت نانا:

– نعم.. "ألف قبلة بين عينيك الساحرتين".. هذه عبارة رقيقة.. وفي هذه اللحظة. دق جرس الباب الخارجي.. وجاءت لويز وهي تقول أن أحد خدم المسرح يطلب مقابلتها.. وقدم الخادم إلى نانا بطاقة من "بوردنيف".. يذكرها فيها بموعد رفع الستار.. ويطلب إليها عدم الإبطاء..

وألقت نانا على الخادم بعض الأسئلة فأجاب الخادم بأن مسيو بوردنيف في أشد حالات الاغتباط.. وأن جميع المقاعد قد حجزت طيلة الأسبوع القادم.. وأنه "أي الخادم" لا يستطيع أن يقدر عدد الناس الذين وفدوا على إدارة المسرح منذ الصباح للاستفسار عن عنوان "نانا"..

ولما انصرف الخادم قالت "نانا" أنها على موعد في الساعة الثالثة وأنها لن

تتأخر أكثر من ساعة.. فإذا جاء زائرون.. فعليهم أن ينتظروا.. وبينما تقول ذلك.. إذ بالجرس يدق بعنف..

كان الطارق أحد الدائنين.. فأمرت نانا باقتياده إلى إحدى الغرف النائية، حيث يستطيع الانتظار حتى المساء إذا شاء. ثم تثاءبت مرة أخرى وقالت:

– أظن أنه يجب أن أذهب الآن..

ولكنها مع ذلك لم تتحرك من موضعها.. وراحت ترقب عمتها ومدام مالوار وهما تلعبان الورق. إلى أن دقت الساعة الثالثة فهتفت:

– يا إلهي..

فقالت مدام مالوار:

– يجب أن تذهبي في الحال يا عزيزتي.

وقالت العمة:

– أسرعي حتى يتسنى لي السفر بقطار الساعة الخامسة.

فقالت نانا:

– إنني سأعود قبل الساعة الرابعة.

وشرعت ترتدي ثيابها بمساعدة لويز.. دون أن تعني بهندامها وأناقتها..

وبينما تهم بالانصراف، إذا بالجرس يدق.. وكان الطارق في هذه المرة هو صانع الثياب. فتنهدت نانا. وقالت إن هؤلاء الناس لا يطاقون، ثم أرادت اجتناب الضجة التي سيثيرها الدائنون حتمًا إذا أبصروا بها.

فتسللت إلى المطبخ.. وانصرفت من سلم الخدم.

وقالت مدام مالوار وهي تشيع نانا ببصرها:

– بحسب المرأة أن تكون أما رؤومًا.. لكي تغفر لها خطاياها.

واستأنفت المرأتان اللعب بعد ذلك دون أن تنطق إحداهما بكلمة.ولكن لم تنقض بضع دقائق أخرى حتى دق الجرس بعنف... فصاحت لويز بالمرأتين:

– ها هو الجرس يدق. وإذا استمر الحال كذلك.. فسأحتاج إلى هذه الغرفة حتمًا لإيواء الزائرين– فعجلا بالجلاء من هنا..

فانتقلت المرأتان إلى المطبخ حيث استأنفتا اللعب بين الأواني والصحاف.

ولما عادت لويز.. سألتها العمة عن الزائر الجديد فقبلت الوصيفة شفتها وأجابت:

– إنه غلام صغير لا أهمية له وقد فكرت في طرده.. ثم أشفقت عليه حين رأيت وجهه الأملس وعينيه الزرقاوين الباسمتين وباقة الزهر الكبيرة التي يحملها بين يديه..

لقد كان يحسن به أن يذهب إلى المدرسة أو يقبع في حضن أمه.

– وماذا فعلت به؟!

– أجلسته في الغرفة الصغيرة الخلفية ،حيث لا يوجد سوى مقعد صغير. وحقيبة خشبية ضخمة.

ودق الجرس مرة أخرى فصاحت لويز:

– يا إلهي.. ألا يتركوننا في سلام..

وعادت بعد قليل.. وقالت ردًا على نظرة التساؤل التي ارتسمت في عيني مدام مالوار:

– لا شيء سوى باقة من الزهر.

ودق الجرس مرارًا بعد ذلك.وأزفت الساعة الرابعة.. وعجبت لويز لإبطاء سيدتها..لقد اعتادت سيدتها أن تفرغ بسرعة من أمثال هذه المهام.. فقالت ليرا:

– أنت تعلمين يا بنيتي أن الحياة حافلة بالمتاعب.. وإن تصرفات المرأة قلما تكون وقفًا بإرادتها.. فلا مفر إذن من الانتظار.

ودق الجرس.. فانطلقت لويز من المطبخ.. وغابت كثيرًا في هذه المرة.. ولما عادت.. كان وجهها يتألق بشرًا..

هتفت:

– هل تعلمان من الزائر الجديد؟ إنه الممول اليهودي ستينر لقد رأيته مرارًا عندما كنت أعمل في بيت مدام بلانش.. وقد أجلسته في قاعة... ولم تتم عبارتها.. لأنها سمعت رنين الجرس.. فأسرعت إلى الباب. وعادت وهي متجهمة الوجه.

قالت:

– إنه "الزنجي". وقد أنبأته بأن سيدتي خرجت.. ولكنه أصر على الدخول.

وهل تعلمان أين يجلس ؟! أننا لم نكن ننتظر قدومه قبل المساء.. فقالت مدام ليرا بحدة:

– لعله جلس في المخدع..

– هو ذاك. ولم أستطع منعه. ولكني لا أظن أن هناك ما يحمل سيدتي على هذا الإبطاء.

وانقضي ربع ساعة. ولم تعد نانا.فماذا أعاقها بحق السماء.. إن هذا السلوك إذا دل على شيء فعلى حماقة لا تغتفر..

وفجأة.. سمعت لويز حفيف ثوب... ووقع أقدام على سلم الخدم.

لقد عادت نانا أخيرًا.

وسمعت النساء الثلاث أنفاسها اللاهثة قبل أن يبصروا بها.ودخلت نانا وهي مشعثة الشعر، موردة الوجنتين. ولا شك أنها لم تكلف نفسها مؤونة رفع ثوبها وهي تصعد السلم فقد كان ذيلها ملوثًا بالأوحال. ودليلًا على أن نظافة "لويز" ليست فوق الشبهات!

صاحت مدام ليرا:

– هل تعرفين كم عدد الزائرين الذين ينتظرونك ؟

وقالت لويز:

– حقًا.. لقد أبطأت سيدتي كثيرًا.

ولكن نانا كانت ضجرة ضيقة الصدر. فلم تطق هذا التقريع. وصاحت بأنه ليس من اللياقة أن تقابل هكذا. بعد المضايقات التي عانتها فعلًا..

فهمست لويز وهي تضع أصبعها على شفتيها محذرة:

– صه.. يوجد زائرون في الغرفة المجاورة..

فقالت نانا بصوت خافت:

– لم أكن ألهو ألهو. لقد قطعت الطريق في عودتي سيرًا على قدمي، لأنني لم أجد مركبة تعود بي.

فسألتها عمتها:

– هل جئت بالنقود؟

فأجابت نانا:

– ما أعجب هذا السؤال؟

وتهالكت على أحد المقاعد. وأخرجت من صدرها غلافًا يحتوي على أربع أوراق مالية. كل منها فئة مائة فرنك.وقد كان من السهل رؤية هذه الأوراق من خلال تمزيق في أحد أركان الغلاف لا شك أن "نانا" قد أحدثته بسرعة. لكي تتحقق من المحتويات.

وكان موعد القطار قد فات. فنصحت نانا لعمتها أن تسافر إلى "رامبوييه" في الصباح. وراحت تزودها ببعض المعلومات.

قالت لويز مرة أخرى:

– سيدتي: إن المنزل يزخر بالزائرين. وجميعهم ينتظرونك.

فثارت ثائرة نانا وصاحت:

– فيلنتظروا أو فليعودوا حينما يكون في استطاعتي أن أستقبلهم.

ومدت مدام ليرا يدها في طلب النقود فقالت نانا:

– كلا. كلا. يا عمتي. لا تأخذي النقود كلها. ثلاثمائة فرنك للمربية. وخمسون فرنكًا لنفقات السفر، فتبقى لي خمسون فرنكًا.ولكن كيف يمكن استبدال إحدى الورقات المالية؟ هنا المشكلة.

لم يكن بالبيت أكثر من عشرة فرنكات.. ولم يخطر لأحد يسأل مدام مالوار عما إذا كان في استطاعتها استبدال المائة فرنك لأنه لم يعرف عنها قط أنها حملت في حقيبتها في أحد الأيام أكثر من أجرة الركوب في عربة "الأومنيبوس".

وتقدمت لويز لحل المشكلة. فتناولت الورقة المالية ذات المائة فرنك. وقصدت إلى غرفتها. وعادت بعد قليل وبيدها قبضة من قطع النقود الصغيرة. ودست مدام ليرا النقود في حقيبتها. وانصرفت قائلة أنها ستعود بالطفل في اليوم التالي.

وتنهدت نانا كأنما أزيح عن صدرها عبء ثقيل. ثم تحولت إلى وصيفتها وسألت:

– هل قلت أن هناك زائرين ؟

– نعم يا سيدتي. يوجد ثلاثة من الزائرين. عدا الدائنين.

وذكرت أسماء الزائرين مبتدئة بستينر.

ولكن نانا ما كادت تسمع هذا الاسم حتى قبلت شفتها وقالت:

– أيظن هذا الرجل أنه يستطيع أن يضايقني حتى الموت لمجرد أنه قدم إلى باقة زهر ليلة أمس!

ثم استطردت:

– وبعد.. فحسبي ما لقيت اليوم من مضايقات الرجال.. إنني لن أقابل أحدًا.. فقولي لهم ذلك.

فلم تبرح لويز مكانها وقالت في حزن:

– فكري مليًا يا سيدتي.. واستقبلي مسيو ستينر على الأقل أن من الخطأ أن تطرديه.

ثم تكلمت عن الزنجي.. قائلة أنه ينتظر في المخدع منذ ساعة.

فضربت نانا الأرض بقدمها.. وقالت في غضب أنها لن تقابله.. مهما انتظر.. وأنها تستقبله في المساء وهذا يكفي.. فإذا أصر على زيارتها نهارًا.. فإن حياتها تصبح جحيمًا وهي لا تطيق هذا.

وصاحت بلهجة الإصرار:

– أطرديهم جميعًا.. ودعيني ألعب الورق مع مدام مالوار.

وما كادت تفرغ من كلامها حتى دق الجرس مرة أخرى.

– كلا.. كلا.. إن هذه الحالة لا تطاق.

وأمرت "نانا" الخدم بألا يفتحوا الباب.. ولكن لويز ضربت بأمرها عرض الأفق.. وغادرت المطبخ في هدوء.. وعادت بعد قليل تحمل بطاقتين.

قالت بلهجة جدية:

– لقد رافقت هذين السيدين إلى غرفة الاستقبال الكبرى. وقلت لهما أن سيدتي ستقابلهما في الحال.

فنظرت إليها نانا بعينين يتطاير منهما شرر الغضب.. ولكنها ما كادت تقرأ في البطاقتين اسم المركيز دي شواء والكونت موفات دي بيفيل حتى انفثأ غضب في الحال.

سألت:

– هل تعرفين هذين السيدين؟

فأجابت لويز:

– إنني أعرف المركيز.

ولم ترد على ذلك.وفكرت "نانا".. وقررت أن تقابل هذين الرجلين النبيلين على الأقل..

وذهبت إلى غرفتها وهي آسفة على تلك الجلسة الهادئة في المطبخ حيث لا يزعجها أحد.. وخلعت ثوبها.. وألقت على كتفيها غلالة حريرية رقيقة. وهي لا تكف طول الوقت عن شتم الرجال جميعًا.. النبلاء منهم وغير النبلاء.

ولاحظت لويز انقلاب سحنة سيدتها بفعل الغضب.. فتوسلت إليها أن تهدأ وتهون على نفسها.

وأصغت نانا إلى هذه النصيحة.. ورفعتا رأسها بكبرياء.. وسارت وهي تختال في غلالتها كإحدي الأميرات، ولكنها ما كادت تصل إلى الباب حتى استوقفتها لويز.

كلا.. يجب ان تبقي سيدتها في غرفة الثياب.. وأن يأتي الرجلان لزيارتها حيث هي، ذلك هو المتبع لمقابلة العظماء.. إذا شاءت سيدتها أن تجعل لنفسها مكانة محترمة.

ودخل الرجلان.. وأحنيا رأسيهما باحترام.. وأومأت نانا بيدها ايماءة طفيفة.. فأطاع الرجلان وجلسا.

كانت تلك الغرفة بأثاثها الفخم. وستائرها المخملية الزرقاء. ومائدة الزينة بما ينبعث منها من رائحة عطرية. هي أفخر قاعات المنزل جميعًا.وقد بدا على نانا وهي في تلك الغلالة الرقيقة وشعرها منسدل على كتفيها.. مظهر المرأة التي فوجئت بالزيارة وهي تتزين..

قال الكونت موفات بأدب ووقار:

– لا شك أن سيدتي بما نعرف من كرمها ودمائه خلقها.. ستغفر لنا أننا أزعجناها في مثل هذه الساعة، إننا جئنا لعمل إنساني.. فأنا وهذا السيد عضوان في الجمعية الخيرية التي تعمل للترفيه عن الفقراء والمعوزين في هذا الحي..

واستطرد المركيز دي شوار:

– ولما علمنا أن نجمة ساطعة تقيم في هذا البيت. جئنا لنستدر عطفها على فقراء الحى. ونحن نعلم أن المواهب البارزة. يزينها دائمًا قلب كبير.

فاصطنعت نانا التواضع والاحتشام، ولكنها أصغت إلى كلام الرجلين باهتمام، وسألت نفسها، ترى أن الرجلين قاد زميله إلى بيتها.

ولاحظت النظرة الغريبة التي تتألق في عيني المركيز، والبقعتين الحمراوين

اللتين تلهبان وجنتي الكونت. واستنتجت أن كلا منهما كان يسابق زميله للوصول إليها..

أجابت في أدب:

– نعم.. نعم.. أنكما أحسنتما صنعًا بالالتجاء إلي.

ودق الجرس الخارجي.. يا إلهي.. زيارة أخرى، ألا يرحمها هؤلاء الزائرون؟!

قالت:

– إن من دواعي سعادتي أن أساهم في عمل الخير..

كان قبلها مفعمًا بالسعادة حقًا، فقد كانت هذه الزيارة في ذاتها إطراء لشخصها.

قال المركيز:

– لو علمت يا سيدتي مبلغ ما يحيط بك من شقاء! إن هذا الحي من أغنى أحياء المدينة. ولكن فقراءه يربون على الثلاثة آلاف. وليس في استطاعتك أن تتصوري مناظر البؤس التي نشهدها كل يوم. مئات من الأطفال بلا طعام. ونساء على وشك الموت جوعًا، وبردًا.

فغمغمت نانا وقد تأثرت حقًا:

– وارحمتاه لهم.

كانت سريعة التأثر والإشفاق ككثيرات من نساء طبقتها. فاغرورقت عيناها الساحرتين بالدموع ونسيت ما كانت تصطنعه من الكبرياء والوقار.وانحنت إلى الأمام لكيلا تفوتها كلمة من حديث الرجلين. ولم تلاحظ وهي تفعل ذلك أن غلالتها قد انحسرت عن منكبيها. وكشفت عن عنقها الجمي. وصدرها الناضج البارز.

ورآها الرجلان شبة عارية. كما كانت على المسرح بالأمس. فانحبست أنفاس المركيز. ومر الكونت بيده على جبينه الملتهب.

قالت نانا:

– ما أجمل أن يكون الإنسان غنيًا. لكي يعطي بغير حساب ولكن على كل إنسان أن يفعل ما يستطيع. وأن يساهم في الترفيه عن المعوزين بقدر ما تسعفه ثروته.. كونا على ثقة من أنني لو كنت أعلم..

وأوشكت أن تتورط في غلطة فاحشة. ولكنها ملكت نفسها في الوقت المناسب. قبل أن تتم عبارتها.

وترددت قليلًا. لأنها نسيت أين وضعت الخمسين فرنكًا وأخيرًا تذكرت أنها وضعتها على مائدة الزينة. فتناولتها من فوق المائدة.

وفي هذه اللحظة دق الجرس.. فنهض الرجلان..

قالت نانا وهي تبسط يدها بقطع النقود:

– يسرني أن أري سيدين كريمين مثلكما. يتجشمان كل هذا العناء من أجل الفقراء.

وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساحرة.. كشفت عن أسنانها اللؤلؤية وكان الكونت موفات أسرع الرجلين.. فتناول النقود. وبقيت في كف نانا ذات عشرة فرنكات. فاضطر الكونت في سبيل التقاطها أن يمس بشرتها البيضاء الناعمة.

قالت وهي تضحك:

– هذا كل ما أستطيع المساهمة به اليوم. ولكني أرجو أن أساهم بالمزيد في فرصة أخرى.

ولم يجد الرجلان عذرًا للبقاء. فانصرفا. ورافقتهما نانا إلى الباب.

وحانت منها التفاتة إلى قاعة الاستقبال. ولم تجد فيها أحدًا.. فدهشت. وسألت نفسها ترى ماذا فعلت لويز بالزائرين والدائنين.. هل خبأتهم في أحد الدواليب؟

قالت تودع الزائرين الكريمين:

– إلى اللقاء.

وأشرق وجهها بابتسامة حلوة ولم يدر الرجلان هل كانت تبتسم لهما وحدهما. أم لجميع أعضاء الجمعية الخيرية التي يمثلانها! وأحنى الكونت موفات قامته للمرة الاخيرة. ووضع قبعته على رأسه..

كانت الدقائق المعدودة التي قضاها في غرفة ثياب الممثلة قد تركت في نفسه أثرًا عميقًا، رغم تجاربه في الحياة وخبرته بأخلاق المجتمع.

وعادت نانا إلى غرفتها. ووجدت لويز في انتظارها فقالت وهي تضحك في سرور:

– انني أفلست.. لقد ذهبا بفرنكاتي الخمسين.

ولم يزعجها ذلك.. إنما بدا لها غريبًا أن يسلبها رجلان كانت ترجو أن تسلبهما. بيد أنها ما كادت تبصر بالرسائل والبطاقات في يد لويز، حتى ثارت ثائرتها من جديد. إن الرسائل لا تهمها.. بل أنها تجد لذة في تلاوتها. لاسيما إذا كانت رسائل حب..أما البطاقات. وأما الزائرون.. كلا.. كلا. أنها لن تقابل أحدًا.

صاحت:

– كم عددهم ؟

فأجابت لويز:

– لا أعلم بالضبط يا سيدتي.. أنهم يحتلون كل مكان في المنزل.

فصاحت نانا بإصرار:

– اذهبي إليهم. وأطرديهم جميعًا. وابدأي في ذلك بالزنجي..

فأجابت لويز وهي تبتسم:

– إنني تخلصت منه منذ وقت طويل.. إنما كان يريد أن ينبئ سيدتي بأنه لن يتمكن من الحضور الليلة.

فصفقت نانا بيديها فرحًا وسرورًا.لن يتمكن من الحضور الليلة! ما أبدع هذا. سيكون لها ملء الحرية.. وتنهدت بارتياح.. وخطر لها أول ما خطر أن ترسل إلى داجينيه فتدعوه لزيارتها.. وحثت عن مدام مالوار لتستكتبها رسالة أخرى تلغي رسالتها الأولى.. ولكن لويز أنبأتها بأن مدام مالوار تسللت إلى الخارج دون أن يشعر بها أحد. وترددت نانا قليلًا.. ثم هزت كتفيها. كانت في حالة نفسية تنفرها من الرجال.. فقررت أن تأوي إلى فراشها مبكرة.. وأن تقضي الليلة وحدها.

قالت:

– نعم.. سأقصد إلى فراشي حالما أعود من المسرح.. وعليك ألا تزعجيني قبل انتصاف النهار.

ثم استطردت:

– والآن.. عليك بالخلاص من هؤلاء الناس.. إنهم يثيرون اشمئزازي.

ولكن لويز لم تتحرك من مكانها.

قالت أنها تعلم أنه ليس من حقها أن تتدخل في شؤون سيدتها.. ولكن.. ألا يحسن بسيدتها العزيزة أن تفكر؟ أفلا يحسن بها أن تفيد من خبرة وصيفتها المخلصة؟

ولكن جهودها ذهبت سدى.

قالت بلهجة صارمة:

– ومسيو ستينر؟! هل أتخلص منه كذلك؟

فأجابت نانا:

– بغير شك.. وتخلصي منه قبل سواه.

فسكتت لويز لتسمح لسيدتها بالتفكير.

أفلا يروق سيدتها أن تنتزع الممول من غريمها روز منيون؟ إن ستينر رجل كريم. واسع الثراء. ثم أنه على اتصال وثيق بالأوساط المسرحية. وله نفوذ في جميع المسارح. ولكن نانا لم تتزحزح عن قرارها..

قالت:

– أسرعي يا عزيزتي.. أسعي وقولي لستينر هذا أنه لا يحتمل.. ثم تغيرت سحنتها بغتة.. وقالت بلهجة جدية:

– وبعد.. فإنني إذا كنت أرغب فيه.. فإن أفضل وسيلة لاقتناصه. هي أن أجفوه. وأتنكر له في البداية.

فبهتت لويز لهذا الرأي الحكيم. ونظرت إلى سيدتها بإعجاب.. وانطلقت في الحال لإنفاذ أوامرها.

وتهالكت نانا في مقعدها. وانتظرت ريثما انصرف المدعوون جميعًا ثم تنهدت بارتياح.

حمدًا لله.. لقد نجت من مضايقاتهم أخيرًا. وصار في مقدورها أن تتنقل في بيتها كما تشاء بعد أن رفع هذا الحصار غير المنتظر.

وأطلت في قاعة الاستقبال.. وقاعة الطعام ولم تجد أحدًا... وراحت تنتقل

بين سائر الغرف. وتفتح أبوابها. وتغلقها.. وهي مطمئنة إلى أنها أصبحت بمفردها، ولكنها ما كادت تدخل الغرفة الخلفية الصغيرة.. حتى وجدت شابًا في نحو السابعة عشرة من عمره. جالسًا على حقيبة هناك وفي يده باقة زهر ضخمة..

صاحت:

– يا إلهي.. إنهم لم ينصرفوا جميعًا..

وأبصر بها الفتى. فوثب واقفًا. واحمر وجهه.. وبدا عليه أنه لا يعلم ماذا يستطيع أن يرعل بالباقة التي أخذ ينقلها من يد إلى يد في اضطراب وحيرة. ولاحظت نانا حيرته واضطرابه.. فأشفقت به.. وأفلتت من فمها ضحكة قلبية مرحة.. ما هذا؟! ألم تكفها مضايقات الشيوخ والكهول. ليمتلئ بيتها كذلك بالغلمان والصبية!! وربت على خده بحنان الأمهات. وسألته:

– من أنت؟ وما اسمك؟!

فأجاب:

– اسمي جورج هيجون.

ومضى في حديثه فقال أنه رآها في المسرح في الليلة السابقة. وأنه جاءها الآن للتعبير عن إعجابه وتهنئته.

سألته:

– وهذه الباقة لي؟

– نعم يا سيدتي.

– إذن لماذا لا تعطينيها أيها البخيل الصغير؟!

وتناولت الباقة.. فأمسك الفتى بيدها.. ورفعها إلى شفتيه بنهم وطبع عليها

قبلة طويلة.وغضبت نانا. وأحمر وجهها. وهمت بأن تصفعه.. ثم ملكت نفسها وابتسمت له. ورافقته إلى الباب.. وقالت له.. وهي تودعه أنه يستطيع أن يزورها كلما أراد.. وانصرف الفتي وهو لا يكاد يرى موضع قدميه من فرط الاضطراب.

وعادت نانا إلى غرفتها. فوجدت فرنسوا في انتظارها.. ليرتب شعرها ويعقصه قبل أن تذهب إلى الى المسرح. فجلست أمام المرآة.. وأسلمت رأسها للحلاق وهي هادئة ناعمة البال منبسطة الأسارير.

ودخلت لويز وهي تلهث. وتقول:

– سيدتي يوجد ثلاثة يرفضون الانصراف.

فقالت نانا في هدوء:

– حسنًا. دعيهم وشأنهم. فسوف ينصرفون من تلقاء أنفسهم متى عضهم الجوع بنابه.

وابتسمت.. حين تخيلت هؤلاء الرجال وهم يضربون الأرض بأقدامهم ضجرًا وقلقًا.

وفي هذه الأثناء لم يكف الجرس عن الرنين. حتى تبعث نانا من إحصاء الزائرين وحتى قالت لويز أن بوردنيف لابد قد ذكر عنوان سيدتها لجميع الذين كانوا في مسرحه في الليلة السابقة.

كان رنين الجرس يدل على الزائر. فهذه يد خجولة قد لمسته.. وهذه يد عصبية مرتجفة. وتلك يد قوية. آمرة. وهذا الرنين الملح المستمر. هو بغير شك من فعل يد دائن منزعج.

وفجأة. تحولت نانا إلى الحلاق وقالت:

– وبهذه المناسبة.. هل أجد معك مائة فرنك يا فرنسوا؟!

فتراجع الحلاق. ونظر إلى الرأس الجميل الذي زينه. ثم قال ببطء:

– مائة فرنك؟ إن ذلك يتوقف على..

– أنت تعلم أنني لا أستطيع أن أقدم لك ضمانًا. ولكني لا أظنك تخشى ضياع نقودك.

وأومأت برأسها نحو قاعة الاستقبال. كأنما تقول له "اطمئن.. فعشاقي كثيرون".

وأعطاها فرنسوا ما طلبت.

وأقبلت لويز تقول لسيدتها أنها وضعت الزائرين في كل غرفة وفي كل ركن.. وأنها اضطرت أن تجمع بين بعضهم في مكان واحد، خلافًا لما تقضي به التقاليد.

واستطردت في ضجر:

– ليتهم يأكلون بعضهم بعضًا.

فاغرقت نانا في الضحك.. وقالت إنها تسمع فعلًا "قرقشة" العظام.. وقالت:

– كل ما أرجوه ألا يأكلون الأثاث.

ودخل "لابورديت" في هذه اللحظة.. فصاحت نانا سرورًا وارتياحًا. وكان لابورديت قد جاءها لمثل المهمة التي جاءت لها مدام "تريكون" من قبل.. ولكن نانا لم تفهم كلمة واحدة من حديثه.

قالت له:

– أنك ستخرج برفقتي.. وسنتناول طعام العشاء معًا.. ثم ننطلق إلى المسرح.

ولما إن فرغت من ثيابها وزينتها.. وتأبطت ساعد لابورديت... وانطلقت به إلى المطبخ.. وتسللا من سلم الخدم.

الفصل الرابع

كانت الأنوار تسطع في قصر الكونت موفات بشارع "بانتيفر" وهو قصر قديم مرتفع الجدران.. تحيط به حديثة واسعة ذات أشجار شاهقة تحبس عن الغرف ضوء الشمس. وتملأ جوها رطوبة وعفونة.

وقد ورث الكونت هذا القصر عن أجداده.. فأقام فيه.. ورفض أن يدخل عليه أو على أثاثه القديم الثمين تعديلًا يضعف صبغته الأثرية ويقلل من أهميته كتراث عائلي.وقد اعتادت الكونتس سابين– زوجة الكونت– أن تستقبل ضيوفها المقربين في قاعة الاستقبال الصغرى في الطابق الأول، حيث تستطيع الاجتماع بهم حول الموقد في غير كلفة.

**

في ذلك المساء.. جلست الكونتس أمام الموقد كعادتها.. وأحاطت بها بعض الصديقات.. بينما انفردت ابنتها "ستيللا" في أحد الأركان.. وراحت تقرأ كتابًا.

قالت الكونتس:

– إذن فسنرى جلالة شاه إيران.

وكان الحديث يدور حول الملوك والأمراء الذين سيزورون باريس بمناسبة المعرض.. فاستطردت الكونتس:

– لقد قيل كذلك إن امبراطور ألمانيا وقيصر روسيا سيزوران باريس بهذه المناسبة.

فقالت مدام شاتيرو.. وهي زوجة أحد السفراء:

– إذا صح ذلك.. فسوف نشهد حفلات استقبال منقطعة النظير.

وفي أحد أركان القاعة..كان ستينر وأحد النواب يتحدثان عن اضطراب سعر الأوراق المالية في بورصة باريس.. والكونت موفات يصغي إلى حديثهما وهو صامت واجم.. صارم تقاطيع الوجه.

وعلى مقربة من الباب.. وقف الكونت كزافييه دي فانديفر بين ثلاثة أو أربعة من الشباب.. وراح يتحدث إليهم بصوت خافت ولعله كان يسرد عليهم إحدى مغامراته الغرامية. وهم يصغون إيه ويضحكون بين الفينة والفينة.

كان الكونت آخر سلالة أسرة كريمة المحتد. عريقة الأصلاب.. وقد ورث عن أسلافه ثروة طائلة راح يبددها بغير حساب. وأشار في باريس اصطبلاته العظيمة التي تضم أفخم جياد السباق.. وبمراهناته الجريئة ومقامراته الجنونية التي كانت تبتلع كل عام جانبًا كبيرًا من أملاكه الواسعة في "بيكارديا".

قالت الكونتس سابين تحدث صديقاتها:

– لقد رأيت امبراطور ألمانيا في "بادن" في العام الماضي.، إنه ممتلئ صحة وقوة رغم تقدمه في السن.

فقالت مدام شاتيرو:

– لا شك ان البرنس بسمارك سيأتي برفقته.. أنه تناول طعام الإفطار على مائدتنا.. منذ سنوات كثيرة. عندما كان لا يزال سفيرًا لألمانيا في باريس، إنني لا أفهم في الحق سر نجاح هذا الرجل.

فسألتها مدام شيزيل. وهي زوجة قاض معروف:

– ولماذا؟!

– لماذا؟! إنني لا أدري لماذا ولكني أؤكد لك أن منظره لم يرقني.. وقد بدا لي فظًا غليظ الطبع.. بطئ الفهم.. وأظن أن الكونت دي فانديفر يشاطرني هذا الرأي.

ودعت دي فانديفر ليؤكد كلامها.. واشترك الجميع في الحديث عن بسمارك..

وكان الجدل لا يزال على أشده.. حين فتح باب القاعة.. ودخل هكتور دي لافلواز يتبعه فوشيري.

وأبصرت الكونتس سابين بالصحافي.. وكانت هذه أول مرة يزور بيتها. فخفت لاستقباله.

وأحنى الصحافي قامته. وقال بعد أن قبل يدها:

– ها أنذا يا سيدتي قد انتهزت أول فرصة لإجابة دعوتك الكريمة.

فابتسمت له.. وبادلته بعض عبارات المجاملة... ثم عادت إلى مقعدها. وحيا فوشيري الكونت موفات بإحناء قامته. ووجد نفسه بعد ذلك ري وسط القاعة. وليس هناك من يعرفه سوى ستينر.

على أنه ما لبث أن شعر بيد توضع على كتفه. فنظر خلفه. ورأى دي فانديفر.

وكان سروره عظيمًا بلقاء الكونت.. فشد على يده. وقال له في همس:

– لا تنس موعدنا غدًا.

– غدًا؟

– نعم. في بيتها في منتصف الليل.

– هل يجوز لي أن أدعو بلانش ؟

– ادع من شئت.. فسوف تسرها كثرة المدعوين.. وأراد فانديفر الانصراف، لاستئناف حديثه عن بسمارك، ولكن فوشيري استوقفه بقوله:

– أنا واثق أنه لن يخطر لك ببال اسم الشخص الذي سألتني أن أدعوه..

وأرسل بصره إلى حيث كان الكونت موفات وغمز بعينه فصاح فانديفر في دهشة:

– مستحيل!!

– وقد وعدتها بأن أدعوه وأحمله على إجابة الدعوة.. وجئت إلى هنا خصيصًا لهذا الغرض..

وضحك الرجلان. وعاد فانديفر إلى حلقة السيدات وهو يقول.

– اؤكد لك أن بسمارك مثال الذكاء وسرعة الخاطر.. فقد حدث ذات يوم..

وراح يسرد أحدث الطرائف عن السياسي الألماني الكبير.

وكان هكتور قد سمع حديث فوشيري وفانديفر. ولكنه لم يفهم موضوع الحديث ولم يعلم في منزل من سيجتمعان في منتصف الليلة التالية.. وقرر أن يتبع فوشيري كظله. حتى يعرف السر.

أما فوشيري.. فإنه جلس على أحد المقاعد.. وأجال الطرف حوله.. واستقرت عيناه على الكونتس سابين.

اتفق أنه كان يعلم عنها أشياء كثيرة..كان يعلم مثلًا أنها تزوجت في سن السابعة عشرة.. وأنها الآن في الرابعة والثلاثين من عمرها.. وأن حياتها بين زوجها وحماتها كانت صارمة... خلوة من أسباب التسلية والترفيه.. وأشبه بحياة الراهبات في الأديرة... كان بعض الناس يصفونها بالصلف والبرود. وبعضهم يرثون لها.. ويتحدثون عن نظراتها الجائعة وضحكاتها المرحة قبل أن تقبر في ذلك القصر العتيق المحزن.وألقى عليها فوشيري نظرة فاحصة.

كان أحد أصدقائه.. وهو ضابط في الجيش توفي أخيرًا في المكسيك. قد

حدثه في أحد مجالس الخمر والعبث بأن له صلة بالكونتس.لم يذكر فوشيري على وجه التحقيق ماذا قال الضابط في هذا الصدد.

ولكنه عندما تأمل الكونتس في الثوب الأسود الذي ترتديه حدادًا على حماتها. ورأى مظاهر الصرامة التي تحيط بها.. والابتسامة الهادئة البريئة التي تتلاعب على شفتيها. داخله الشك ي صدق الضابط.

قال هكتور:

– لست أدرى في الحق معنى حديثهم عن بسمارك.. أنني أكاد اتفجر ضجرًا وسأمًا. فهلم بنا.

ولكن فوشيري تحول إليه بغتة وسأله:

– هل تعلم أن للكونتس عشيقًا؟؟

– فهتف هكتور مستنكرًا:

– ماذا تقول يا رجل؟

ثم شعر بأنه خجل، واستدرك قائلًا:

– كلا.. أنا لا أعرف شيئًا على وجه التحقيق. كل ما أعلمه أن هذا الشاب.. واسمه فوكارمون. يحوم حولها في كل فرصة.

ولكن لو أن للكونتس صلات خاصة، فإنها تكون مثال الحرص والحذر، لأن أحدًا في الوجود لا يرتاب. ل ولا يجرؤ على الارتياب في سلوكها. إنها تعيش في جو يعصمها من الخطيئة، فقد كانت حياتها مثال الورع والتقوى، أما زوجها فإنه أحرص على دينه من دنياه، وله في ذلك أسوة من والدته، ومن صديقه وصديق أسرته الأوحد، مسيو فينو، ذلك الشيخ القصير القامة، الذي تراه جالسًا على مقربة من الكونتس، ألا تعرف مسيو نيوفل فينو..

فأطق فوشيري برأسه..

نعم، أنه يعرف، ويعرف صلته برجال الدين، وبالأوساط الكهنوتية..

وساد الصمت بين الصديقين، إلى أن قال فوشيري فجأة:

– إنك على حق، إن البقاء هنا لا يطاق، وسوف نذهب متى فرغت من مهمتي..

– أية مهمة..

فلم يجبه فوشيري، فقد رأى ستينر مقبلًا عليهما..

قال ستينر بصوت خافت:

– سنلتقي غدًا.. أليس كذلك؟!

فغمغم فوشيري في دهشة:

– عفوًا.. إنني لا أفهمك..

– ألا تعلم أنني قابلتها؟ لقد وضع مينون كل أنواع العراقيل في طريقي.. ولكني قابلتها أخيرًا.. فدعتني إلى المأدبة التي ستقيمها غدًا في بيتها.

وكان ستينر يتكلم ووجهه يطفح بشرًا.

وختم حديثه بقوله:

– إنك تنعم برضاها. ولا شك أنك مدعو كذلك إلى المأدبة.

– إنها أرسلت إلى لتشكرني من أجل المقال ولما قابلتها دعتني إلى المأدبة.

– يا لك من كلب سعيد الحظ.

وفي هذه اللحظة فتح الباب. ودخلت سيدة متقدمة في السن يتبعها شاب عرف فيه فوشيري ذلك التلميذ الذي أضحك النظارة في مسرح "الفاريتيه" حين قال عن نانا: "إنها فاتنة!".

وأحدث قدوم هذه السيدة حركة غير عادية. إذ نهض الجميع لاستقبالها وتحيتها. وأسرعت إليها الكونتس سابين. وضمتها إلى صدرها.

وراقب فوشيري هذا المنظر في دهشة وفضول. ولاحظ هكتور فضوله. ودهشته. فأوضح له الموقف قائلًا إن هذه السيدة تدعى مدام هيجون. وهي أرملة مسجل عقود في "لافونديت" ولكنها تقيم الآن في باريس للسهر على ولدها الأصغر "جورج" الذي التحق بكلية الحقوق.والصلة بين مدام هيجون وأسرة المركيز دي شوار قديمة وترجع إلى ما قبل مولد الكونتس سابين.

قالت مدام هيجون تحدث الكونتس:

– لقد جئت بجورج.. فهل تعرفينه؟ إنه أكبر وترعرع.. أليس كذلك؟

ونظر جورج إلى الكونتس بعينين صافيتين ضاحكتين.. وذكرها بأنها قد لعبت الورق معه منذ عامين.. وتذكرت سابين وضحكت. وسألت:

– وفيليب.. هل هو في باريس؟

فأجابت مدام هيجون:

– كلا.. إنه الآن في ثكنة فرساي.

وراحت تفاخر بولدها الأكبر "فيليب" الذي رقي إلى رتبة "كابتن" وهو لا يزال في الرابعة والعشرين من عمره.. وأصغى إليها الجميع باحترام وعطف.ورأى فوشيري دلائل الصداقة الحقيقية المتبادلة بين سابين وتلك العجوز الوقورة ذات الرأس المكلل بالشيب. وقال لنفسه أن من الجريمة أن يرتاب الإنسان لحظة واحدة في سلوك الكونتس.

ودقت الساعة الحادية عشرة.. وشرعت الكونتس وابنتها في توزيع أقداح الشاي على المدعوين.

وانتهز فوشيري فرصة اقتراب موفات وفانديفر.. فقال محدثًا الأول:

– إنني أحمل إليك دعوة أحدي السيدات.. لتناول طعام العشاء غدًا في بيتها.

فدهش موفات وسأل:

– أية سيدة؟

فقال فانديفر:

– نانا.

فقطب موفات حاجبيه.. وارتجفت أهدابه قليلًا.. وظهرت على وجهه علامات القلق.

استطرد فانديفر:

– إنك قابلتها في بيتها.

– ماذا؟! قابلتها في بيتها؟! نعم.. نعم.. كان ذلك لعمل خيري ولكن ليس معنى هذا أنني أعرفها.. كلا.. ليس مثلي من يأكل على مائدة امرأة كهذه.

قال ذلك ببرود.. كمن يعتبر مثل هذه الدعوة.. دعابة.. ودعابة تدل على فساد الذوق.

وضم فوشيري صوته إلى صوت فانديفر.. وقال إنها مأدبة فنانين وإن المواهب تشفع لأصحابها.. ولكن موفات أصر على الرفض.

واتفق إن كان هكتور وجورج على مقربة.. فسمعا هذا الحديث.. وتبادلا نظرة ذات معنى.. وغمغم هكتور:

– إذن فالمأدبة في بيت نانا..

ولزم جورج الصمت. ولكن الدم صعد إلى وجنتيه..كان في الأيام الأخيرة قد قطع شوطًا كبيرًا في طريق الرذيلة.

قال هكتور:

– إنني لا أعرف بيتها.

فأجاب جورج بلهجة من يردد شيئًا حفظه عن ظهر قلب:

– إنها تقيم في الطابق الثالث من المنزل رقم ١٢ شارع هو سمان بين شارعي "اركاد" و"باسكييه".

ولما رأى دهشة هكتور قال:

– إنني زرتها اليوم فدعتني إلى المأدبة.

الفصل الخامس

سلمت لويز البيت منذ الصباح الباكر إلى مدير أحد المطاعم الباريسية المعروفة.. لتنظيم المأدبة التي قررت إقامتها احتفالًا بنجاحها العظيم.. وقد وجد مدير المطعم أن قاعة الطعام لا تتسع لجميع المدعوين.. فاحتل قاعة الاستقبال.. ونقل أثاث هذه القاعة إلى غرفة الزينة.

وفي منتصف الليل.. عادت نانا من المسرح.. وسألت وصيفتها:

– هل أعددتم كل شئ؟

فأجابت لويز بقلة اكتراث:

– لا أعلم.. إنني نفضت يدي من هذه المأدبة.. والرجال الذين جاءوا لتنظيمها قد قلبوا كل شئ في البيت رأسًا على عقب.

وصمتت قليلًا ثم استطردت:

– والرجلان الآخران.. قد حضرا مرتين.. وتخلصت منهما بعد جهد.

وفهمت "نانا" أنها تتكلم عن "الزنجي" و"البخيل" وكانت بعد أن وثقت من مستقبلها قد قررت طردهما.. والتخلص من "جلدها القديم" على حد قولها.

غمغمت:

– إنهما عبء ثقيل.. فإذا عاد فهدديهما برجال الشرطة.

ثم دعت إليها جورج وداجينيه. وكانا قد انتظراها بباب المسرح وعادا معها في مركبتها.ولم تشأ أن تتركهما في الغرفة المجاورة نهبة السأم والضجر. فطلبت إليهما أن يعاوناها في ارتداء ثيابها بينما اهتمت لويز بترتيب شعرها.. وكان الأثاث

مكدسًا في غرفة الزينة.. فما إن أخذت نانا تختال في ثوبها. حتى علق الثوب بمسمار. وتمزق. فارغت وأزبدت.. وقالت أن هذه المضايقات لا تحدث لأحد في الدنيا سواها.

ونسيت في غضبها الدور الجديد الذي تقوم به.. وفاهت بألفاظ منتقاة من قاموس فتيات الأرصفة. وخلعت ثوبها دون أن تعبأ بوجود الشابين.. ولكنها لم تجد ثوبًا يلائم مزاجها كهذا الثوب.. فعادت إلى ارتدائه.. وركع جورج وداجينيه تحت قدميها.. وراحا يرتقان الفتق بالدبابيس.

ودق الجرس فأسرعت نانا لاستقبال زائريها.. ونظر داجينيه إلى جورج حيث كان لا يزال جالسًا القرفصاء بعد أن فزع من رتق الثوب فاضطرب الغلام وأحمر وجهه.ولكن كلا من الشابين كان يعطف على زميله.. فتوثقت بينهما الألفة.

وتقدم كل منهما إلى الآخر ليصلح رباط رقبته ويزيل عن ثوبه ما علق من آثار المساحيق التي تستعملها "نانا".

وكان هكتور دي لافلواز وكلاريس هما أول القادمين فاستقبلتهما نانا مرحبة.. وأحنى هكتور قامته للممثلة في أدب وبرر قدومه بأنه جاء تلبية لدعوة صديقته كلاريس وابن عمه فوشيري.

ولكن نانا نفسها لم تكن تعرف على وجه التحقيق عدد ضيوفها. فإنها كانت تدعو وتكلف أصدقاءها بأن يدعوا أصحاب الشخصيات المبرزة ممن يكسبون المأدبة أهمية.. ويجعلون لها صبغة المآدب الارستقراطية الممتازة.

وجاءت روز مينون فاستقبلتها نانا في أدب جم. وقالت وهي تشد على يدها:

– ما أسعدني بقدومك يا سيدتي العزيزة.

ودخل في إثرها مينون وستينر. وأسرع أولهما إلى نانا فقبلها. وغمز الثاني بعينه ليشجعه على أن يحذو حذوه.. ولكن ستينر لاحظ تجهم روز فقنع بتقبيل يد مضيفته الحسناء..

وجاء الكونت دي فانديفر برفقة بلانش دي سيفري. فحيتهما نانا بإحناء قامتها. كما تحيي الملكة وزراءها. كان دورها كربة منزل. يملأها فخرًا وخيلاء.

ودخل فوشيري ولوسي ستيوارت. فرحبت بهما نانا، ثم انفردت بأولهما وسألته في همس. وفي عينيها نظرة قلق:

– هل سيأتي؟!

فأجابها الصحافي:

–كلا.. أنه لم يستطع القدوم.. لأنه وزوجته مدعوان إلى سهرة عند أحد الوزراء.

فانقلبت سحنة نانا وغمغمت:

– حسنًا. هذا موضوع سأصفي حسابه معك في فرصة أخرى..

وارتابت في قرارة نفسها.. بأنه تعمد إفساد خطتها.

وغضب فوشيري لتهديدها.. واعتبره خدشًا لكرامته فقال:

– أرجو إعفائي من مثل هذه المهمة في المستقبل.. ودونك مينون ولابورديت.

وحانت من نانا التفاتة فضبطت نظرة ذات معنى تبودلت بين فوشيري وروز مينون.

وعضت الغانية على شفتها.. ونظرت إلى ستينر.. وصعدته بعينيها.. ثم قالت له وهي تبتسم:

– يا مسيو ستينر.. إنك ستجلس بجانبي أمام المائدة.

وفي هذه اللحظة.. تجاوبت أصوات الضحك.. ودخل لابوردين تتبعه جاجا. وكارولين هيكيه. وماري بلوند وفيوليت دي هورن.. وكن قد ازدحمن في مركبة لابورديت.. وجلسن فوق بعضهن.. بعضًا.. فبودلت بينهن بهذه المناسبة طائفة من النكات البارعة اللاذعة.

قال ستينر:

– وأين بوردنيف؟

فصاحت نانا:

– أليس من فساد الذوق أن يتخلف عن الحضور.؟

فقالت روز مينون:

– لا شك أنه ما كان يتخلف.. لولا أنه أنزق فأصيبت قدمه برض شديد.

فهتفت نانا بلهجة الأسى:

– مسكين..

وحينئذ سمعوا صوتًا خشنًا. يصيح:

–كلا.. إنني لست مسكينًا.. ولم أمت بعد.. وقدمي لا تمنعني من تناول الطعام!

كان المتكلم هو بوردنيف.. وقد دخل مستندًا على كتفي سيمونا وانجيل فيولين..

قال:

– إنني قررت الحضور ولو مت في الطريق..

وختم عبارته بصيحة ألم.. وتعلق بالفتاتين حتى أوشكتا أن تسقطا تحت ثقلة..

واستمر قدوم الزائرين.. حتى دهشت نانا وعجبت كيف تتسع المائدة لكل هؤلاء..

ثم سألت داجينيه أن يحصي عدد المقاعد والمدعوين.. ولما انبأها الشاب.. بأن عدد المقاعد خمسة وعشرون وعدد المدعوين تسعة وعشرون تنهدت بارتياح. وقالت:

– لا بأس.. يمكن إفساح مكان لهؤلاء الأربعة..

ولكنها ما كادت تتم عبارتها.. حتى دخل زائرون آخران لا تعرفهما.. فنظرت حولها بمزيج من الحيرة والغضب.. وأسرع فانديفر إلى إيضاح الموقف.. فقال أنهما صديقاه.. وأنه دعاهما.. ثم قدم أحدهما إليها باسم "فوكارمون".. والآخر باسم "تاتان".. وقال إن الثاني ضابط في البحرية.

وأعلن كبير الخدم إن المائدة قد أعدت.. فتأبطت نانا ساعد ستينر.. وتصدرت المائدة.. وأجلست الممول اليهودي إلى جانبها.. وأسرع المدعون إلى احتلال المقاعد.. فجلس فوشيري بين روز منيون وكارولين هيكيه. وجلس فانديفر بين لوسي ستيوارت وفيوليت دي هورن.. وحرص هكتور على ألا يفوته الجلوس بجوار جاجا.

وأخيرًا اكتشف أن هناك ثلاثة مدعوين لا موضع لهم.. فعرض ستينر على نانا في أدب أن تجلس على ركبتيه.. ولكنها اعتذرت في أدب كذلك.. وسألت المدعوين أن يتلاصقوا ليفسحوا مكانًا لزملائهم..

وعندما همت نانا بافتتاح المأدبة. سمع المدعوون صوت بوردنيف في الغرفة المجاورة وهو يشتم ويصخب.. وظهر أن سيمونا وانجيل فيولين قد نسياه ساعة الهجوم على المائدة.. فأسرعت إليه كارولين وكلاريس وماري بلوند. وأجلسته في مكان يتسع لثلاثة أشخاص.. ووضعن قدمه على مقعد خاص.. وتنافسن في إطعامه.. وإرضائه.. كأنه أحد سلاطين آل عثمان..

وابتدأت المأدبة في جو من الهدوء والفتور.. وقنع الكثيرون بتذوق أصناف

الطعام ولم يشذ عنهم سوى بوردنيف الذي أقبل على الطعام بنهم الحيوان الجائع. وشعرت بلانش دي سيفري بوطأة السكون. وأرادت أن تخرج المدعوين من صمتهم. فقالت تحدث لوسي ستيوارت:

– إنني رأيت ابنك "أوليفيه" أول أمس.. لقد كبر وترعرع. وبلغ مبلغ الرجال.

فأجابت لوسي:

– إنه الآن في الثامنة عشرة من عمره.. وهذا يدل على أنني أصبحت عجوزًا.

ودار الحديث بعد ذلك عن الأولاد. فامتلأت قلوب النساء بالحنان.

وقالت نانا أن ابنها الصغير "لويس" يقيم الآن عند عمتها. وهذه تأتي به لزيارتها كل يوم. فتضعه في الفراء مع قطتها "لولو". ولا تشبع من النظر إليه وهو يلاعب القطة. ويتواري معها تحت الأغطية.

وقالت روز منيون:

– إنني ذهبت إلى المدرسة أمس لزيارة شارل وهنري. فأصرا على مرافقتي إلى المسرح. وكان سرورها لا يوصف حين أجابت سؤالهما.

وهنا اغرورقت عينا مينون بدموع الحنان وقال:

– وعندما أبصرا بها على خشبة المسرح. صفقا لها طويلًا وسألاني. لماذا ترتدي أمهما ذلك الثوب القصير؟ ولماذا تبتسم لجميع الناس ؟

فضحك المدعوون. واغتبط منيون. وامتلأت نفسه فخرًا. كان يحب ولديه حبا جارفا. وقد وضع نصب عينيه غاية واحدة. هي تدبير ثروة كبيرة لولديه باستثمار أرباح زوجته من التمثيل وغيره.

كان يشغل قبل زواجه رئيسًا لاوركسترا "الكافيه كونسير" حيث كانت روز تشتغل بالغناء.

وفي ذلك الوقت. كان كل منهما يتفانى في حب زميله أما الآن. فقد اتخذت الصلة بينهما صبغة الصداقة والزمالة. وأصحبت تقوم على أساس عمل صريح. فهي تشتغل بكل ما أوتيت من قوة ومقدرة وتستثمر مواهبها وجمالها إلى أقصى حد. وهو يهيمن على شؤونها ويدبر لها وسائل النجاح كامرأة وممثلة.

سأل فانديفر:

– وكم عمر أكبر الغلامين ؟

فأجاب مينون:

– أن هنري في التاسعة من عمره.

ثم تحول إلى ستينر.. وانتقد كراهيته للأطفال. وقال بصراحة جارحة.أنه لو كان والدًا لامتنع عن بعثرة أمواله بمثل هذه الحماقة..

وكان يتكلم.. وينظر إلى الممول من فوق كتف زوجته عله يكتشف مدى تطور الصلة بينه وبين نانا. ولكنه ما لبث بعد قيل أن انصرف عن مراقبة ستينر إلى مراقبة روز. وكانت طول الوقت تحملق في وجه فوشيري. وتتحدث إليه بصوت خافت. وبلهجة جدية كأنما لا يوجد في المكان سواهما..

واستمر حديث القوم عن الأطفال. وشعر هكتور بكتف جاجا السمين يحتك بكتفه فاضطرب ظهرًا لبطن. واستفسر عن ابنتها التي كانت معها في مسرح "الفاريتيه"وسألها لماذا لم تصطحبها إلى هذه المأدبة ؟ فأجابت جاجا مستنكرة:

– إنها غادرت الدير منذ شهرين فقط. وأفكر في تزويجها بأسرع ما يمكن.

ثم استطردت بلهجة المرأة التي عركتها التجارب:

– يا عزيزتي.. إن العبث لا ينفع، إنني لم أدخر سنتمًا واحدًا من حياة اللهو والعبث.

وملئت الكؤوس للمرة الرابعة.ونشطت الحركة بين المدعوين وارتفعت أصوات الضحكات.. وانحلت عقدة الألسن.ونظر جورج في دهشة.. وأصغى إلى أحاديث النساء في فضول.. ثم سأل داجينيه: هل لكل أولئك النساء أولاد؟

فضحك داجينيه.. وراح يدلي إليه بمعلوماته.

وانصرفت النساء إلى الحديث. فصاح بوردنيف:

– هل تريدونني على أن أموت جوعًا ؟

فضحك المدعوون.. ونهضت سيمونا.. وملأت فمه بصدر دجاجة سمينة.

ولاحظت نانا.. إن المأدبة لا يزال يعوزها النشاط والحركة.. فقالت بصوت مرتفع:

– هل علمتم أن ولي عهد النمسا قد احتجز مقصورة خاصة طول مدة عرض "فينوس الشقراء"؟

فقال بوردنيف:

– كم أرجو أن يحذو جميع الأمراء حذوه.

فقالت نانا:

– لقد قيل لي إن جلاله شاه إيراه سيصل يوم الأحد.

وتكلمت لوسي ستيوارت عن الشاه وعن المجوهرات والأحجار الكريمة التي تزين ثيابه. والتي يقدر ثمنها ببضعة ملايين من الفرنكات وأصغت إليها سائر الفتيات، ولمع في عيونهن بريق الجشع.. وتحدثن عن الملوك والأمراء الذين سيزورون باريس بمناسبة المعرض.. وتمنت كل منهن فيما بينها وبين نفسها أن تقع فريسة لأحد أولئك الأمراء فتضمن مستقبلها إلى الأبد.

وتحولت كارولين هيكيه إلى فانديفر وسألته:

– حدثني يا عزيزي.. كم يبلغ عمر قيصر روسيا؟

فأجاب الكونت ضاحكًا:

– لا أمل لك فيه.. أنه جاوز السبعين.

وتكلمت بلانش دي سيفري عن ملك ايطاليا.. وقالت أنها شاهدته في "ميلان".. وأنه وسيم الطلعة.. وجميع النساء بحببنه ولكنها انزعجت حين أكد لها فوشيري أن ملك ايطاليا لا ينوي زيارة المعرض.

فقالت ماري بلوند:

– أما امبراطور ألمانيا فإنه شيخ منحرف.. وقد رأيته في "بادن بادن" العام الماضي والبرنس بسمارك يلازمه دائمًا كظله.

فصاحت سيمونا:

– البرنس بسمارك.. إنني أعرفه.. إنه رجل ظريف.

– فهتر فانديف

– ذلك ما قلته أمس ولكن لم يصدقني أحد.

واحتدمت المناقشة حول بسمارك.. كما حدث في قصر موفات في الليلة السابقة. والتفت انجيل فيولين إلى لابوردين... وسألته عن بسمارك هذا.. لم تكن تعرف عنه شيئًا.

وأجابها لابورديت أن بسمارك عملاق هائل يأكل اللحم النيئ.. ويعتبر جميع النساء ملكًا له.. وأنه في الأربعين من عمره.. وله أربعة وثلاثون ولدًا.

فصاحت انجيل بسذاجة:

– يا رب السموات.. عمره أربعون عامًا.. وله أربعة وثلاثون ولدًا.

فانفجر القوم ضاحكين.. واحمر وجه الفتاة.. وأدركت في هذه اللحظة فقط أن لابورديت يسخر منها.

وفي هذه الأثناء.. كانت "جاجا" تتحدث أيضًا عن المعرض.كانت مثل غيرها تعقد أملًا كبيرًا على هذا المعرض. وترجو– إذا غصت باريس بالغرباء كما هو منتظر– أن تمع مبلغًا من المال يساعدها على اعتزال الحياة العاملة وابتياع منزل صغير في الضواحي تقضي فيه بقية حياتها.

بيد أن أملها في هكتور كان يضارع أملها في المعرض.. فأخذت ترنو إليه من ركن عينيها بين الفينة والفينة.. حتى انزلق وسألها عن عنوان منزلها.. فذكرت له العنوان. وهي مطرقة برأسها حياء... واحتشامًا.

ولاحظ فانديفر كل ذلك، فغمز كلاريس وقال لها في خبث:

– أنظري.. يخيل إلي أن جاجا قد ظفرت بصديقك.

فأجابت الممثلة:

– هذا الشاب مغفل.. لقد طردته من بيتي ثلاث مرات على الأقل..

على أن منظر ستينر كان أجدر المناظر بالتجميل على لوحة فنية بريشة سام بارع.

كان المعروف عن هذا الممول اليدين القصير القامة أنه ينغمس بكل كينونته في كل مغامرة غرامية تتهيأ له.. ولم تظهر على المسرح قط ممثلة لها مسحة من الجمال، إلا لقي بنفسه تحت قدميها.. وهكذا كان يبعثر أمواله بغير حساب. حتى أوشك مرتين على الإفلاس.

وفي تلك الليلة.. لم يتناول ستينر شيئًا من الطعام.. ولم يتكلم إلا قليلًا.. وراح ينظر إلى نانا.. كمن يريد أن يلتهمها بعينيه.. وكلما رمقته الفاتنة بنظرة دلال..

أطرق برأسه. وظل مطرقًا حتى تخمد العاطفة التي تجيش في صدره.. وتنطفئ النار التي تتلظى في دمه.

كان في قبضتها.. ولا ينقصها إلا أن تحدد الثمن، ولكنها لم تتعجل.. ووجدت لذة في مداعبته.. وإذلاله.

همس فانديفر في أذن لوسي:

– انظري..

وابتسمت لوسي وأجابت:

– ترى هل تتكرر مأساة مدام جونكيية مرة أخرى؟ هل تعرف قصة مدام جونكييه؟! لقد أعجب بها ستينر.. فعمل مينون على تذليل العقبات.. ثم أعاده إلى روز كما يعود الزوج النادم.

ولكني لا أعتقد أن مينون سينجح في هذه المهمة كما نجح في المرة الأولى.. فإن "نانا" ليست المرأة التي تنزل بسهولة عن رجل يعار إليها.

– أنظري إلى منيون.. وكيف يحملق في وجه زوجته ؟

فنظرت لوسي.. ورأت روز وفوشيري يتهامسان.. ومنيون يرقبهما وشرر الغضب يتطاير من عينيه.

وثارت ثارة لوسي حين رأت صديقها فوشيري يتخبط في شباك روز:

– يا لها من شقية..

فضحك فانديفر وهمس:

– هل عضتك الغيرة بنابها؟

– الغيرة؟! أني أتركه لها عن طيب خاطر.. ماذا أفيد منه؟! باقة زهر كل أسبوع!

الواقع.. إن جميع أولئك الممثلات من طينة واحدة.. لقد جن جنون روز حين قرأت المقال الذي كتبه فوشيري عن نانا.. وهي تريده الآن على أن يكتب عنها مقالًا.. هذا هو السر.

واختطفت قدح الشمبانيا وأفرغت محتوياته في جوفها.. ثم استطردت:

– لو كنت زوجها لعرفت كيف أردعها.. إنها لن تفيد سنتمًا واحدًا من فوشيري.. ولا تعرف أن هذا النذل إنما يحوم حول النساء ليدعم مركزه.

وفي هذه اللحظة.. ارتفع صوت بوردنيف وهو يقول محذرًا ممثلاته:

– تذكرن أنه يتعين عليكن الظهور على المسرح غدًا .. حذار والإفراط في شرب الشمبانيا.

ولكن أحدًا لم يعبأ بنصيحته وتحذيره.

وكف المدعوون عن الطعام تمامًا.. وانصرفوا إلى زجاجات النبيذ والشمبانيا.. وتشدقت أحاديثهم. وارتفعت ضحكاتهم ممتزجة برنين الكؤوس. وتشدقت النساء في غير حياء أو احتشام بأدق شؤونهن الشخصية. لعبت الخمر برأس أحد المدعوين... وهم بتقبل جارته فيولت دي هورن. ولكنه قوبل بصفعة ردته إلى صوابه، وحملت جورج على إعادة النظر في دعابة صبيانيته هيأتها له الخمر. ذلك أنه فكر في أن يتسلل تحت المائدة حتى يصل إلى حيث كانت نانا فيقع تحت قدميها كالكلب. ولكن تلك الصفعة أزعجته. وردته كذلك إلى صوابه.

قال بوردنيف بصوته الثاقب:

– أليس الأفضل أن نتناول القهوة في هذه القاعة يا عزيزتي؟

ولكن نانا لم تجبه في الحال..

خيل إليها أنها ليست ربة الدار.. فكل إنسان يأمر الخدم بما يريد ويفعل ما

يشاء.. كأنهم في مطعم.. وهي لا حول ولا قوة. وليس في طاقتها إلا أن تصغي إلى همسات ستينر وتهز رأسها بين الفينة والفينة إمعانًا في إغرائه وفتنته..كانت الشمبانيا قد لعبت برأسها. وصبغت خديها الناصعتين بلون الورد. وأرسلت إلى عينيها بريقًا ساحرًا ذهب بما بقي من عقل ستينر.وأصبحت الضجة حولها لا تطاق.. وتعذر عليها أن تسمع همسات ستينر فاحتدمت غضبًا . وزادتها الخمرة احتدامًا.ما معنى هذا! وكيف ينسى هؤلاء الأوغاد أن للبيت ربة يجب احترامها؟

قال بورنيف مرة أخرى:

– لماذا لا نتناول القهوة هنا يا فتاتي العزيزة.. إنني لا أستطيع الانتقال.. لأن..

ولكن نانا نهضت فجأة. وقالت تحدث ستينر:

– لقد تلقيت درسًا.. وعرفت كيف يجب ان أختار ضيوفي في المستقبل..

ثم أجاب بوردنيف. وهي تومئ بيدها نحو الغرفة المجاورة:

– أنت تعلم جيدًا.. إن القهوة هناك..

فنهض المدعوون وهم يتكلمون ويضحكون.. ولم يلاحظ أحد غضبة نانا.. ولم يبق في القاعة سوى بوردنيف. الذي راح يشتم ويلعن أولئك النسوة اللائي أسرفن في تناول الخمرة حتى نسينه. وبدأ الخدم في رفع الأواني والكؤوس والصحاف.. ولم يري بوردنيف شيئًا رفع بمثل هذه السرعة إلا ستار المسرح..وانتقل المدعوون إلى الغرفة المجاورة.. ولم يفطنوا إلى غياب نانا، ولكنهم لم يكونوا بحاجة إليها.. فقد وجدوا زجاجات النبيذ والشمبانيا بغير عناء.. وتأبطت روز منيون ساعد فوشيري وقالت لزوجها:

– ألا يسرك أن يتناول مسيو فوشيري طعام الغداء على مائدتنا في أحد الأيام؟!

فنظر منيون إلى فوشيري نظرة حقد وكراهية.لا شك أن روز قد جنت. وإلا فما معنى هذه الصداقة الجديدة، ولكنه كان يعرف عناد زوجته. فرأى من الحكمة أن يغمض عينيه مؤقتًا.

أجاب:

– طبعًا.. طبعًا.. تعال غدًا يا مسيو فوشيري.

وكانت لوسي ستيوارت تسير بين ستينر وفانديفر. وقد سمعت هذا الحديث. فقالت للأول:

– أنهن جميعًا من طينة واحدة. لقد سرقت إحداهن كلبي.. ولكن هل ذنبي أنك نقضت يدك منها؟!

ثم اومأت إلى فوشيري. ولما اقتربت قالت له:

– إن "شبشبك" في بيتي. وسأرسله إليك غدًا.

وحمل فوشيري كلامها على محمل الدعابة. وقهقه ضاحكًا..

وفجأة.. لاحظ فانديفر غياب نانا.. وبحث عنها. وانضم إليه داجينيه وجورج.. وعثروا عليها أخيرًا في مخدعها.. فإذا هي واجمة شاحبة اللون. مرتجفة الشفتين.

صاح فانديفر في دهشة:

– ماذا بك؟

فلم تجب. ولم تحول رأسها..

وكرر سؤاله فصاحت:

– إنني لا أريد أن أهان..

وراحت الكلمات تقتتل على شفتيها..

كلا.. ليس مثلها من يوطأ تحت الأقدام.. لقد اتفق ضيوفها جميعًا على احتقارها والتهوين من أمرها.. وهي لا تعلم ماذا يمنعها من طردهم جميعًا؟.

وانفجرت باكية.. فقال فاديفر في لطف:

– هوني عليك.. إنك ثملة..

فصاحت:

– ربما.. ولكن ذلك لا يمنعهم من احترامي..

وحاول الثلاثة إقناعها بالعودة إلى ضيوفها.. فلم تزدد إلا غضبًا وقالت أنها تحتقرهم.. ولا تريد أن تراهم مرة أخرى.. ولن تبرح مكانها.. واستطردت:

– أنا أعلم أن ذلك كله من تدبير تلك الحية الرقطاء روز منيون، وذلك الوغد فوشيري..

ثم قالت أن فوشيري من ذلك الطراز الذي يعمل على إفساد سعادة النساء.. فهو الذي منع الكونت موفات من المساهمة في المأدبة.. وهي تعلم جيدًا أن الكونت يهواها.. إنها قرأت ذلك في عينيه يوم جاء لزيارتها..

ولكن فانديفر لم يتمالك من الضحك وهتف:

– أحقًا تقولين.. أظن أنك على خطأ يا عزيزتي..

فهدأت ثائرتها قليلًا.. وهتفت:

– ولماذا بحق السماء؟

– إن الكونت موفات رجل ورع، وإذا حدث ولمسك بأنملته هفوًا. لقصد في اليوم التالي إلى الكنيسة. واعترف بخطيئته والتمس الغفران.وإذا أردت رأيي. فإنني أنصح لك بأن لا تدعي "الآخر" يفلت منك.

وأدركت أنه يعني "ستينر" فصمتت وجففت دموعها ،ولكنها أصرت على البقاء، وماكاد فانديفر ينصرف حتى ألقت بنفسها بين ساعدي داجينيه. وهي تقول وتردد:

– إنني أحبك أنت. ولا أحب أحدًا سواك. أنت خير منهم جميعًا. ليتنا نستطيع أن نعيش معًا دائمًا. أواه. ما أشقانا نحن النساء.

ثم لاحظت وجوم جورج وحيرته. فعانقته أيضًا. وقالت إن داجينيه لا يمكن أن يغار من غلام مثله. وأنه ليس أحب إليها من أن تتوثق أواصر الحب والصداقة بينهما. فيعيش ثلاثتهم في سعادة ووئام.

وتنبهت فجأة إلى صوت غير مألوف. واكتشفت أنه صوت غطيط بوردنيف. وكان قد بقي حيث تركوه. فغلبه النعاس.وكان الصوت من الغرابة والشذوذ فلم تتمالك نانا من الضحك. وأسرعت إلى الغرفة الأخرى. وألقت بنفسها في أحضان روز منيون وهي تصيح:

– تعالى أنظري يا عزيزتي.

وتبعها بعض الفتيات.. ووقفن جميعًا يرقبن بوردنيف.. وهو يغط في نومه.. وفمه مفتوح كالبالوعة.

وفي هذه الأثناء..كانت "جاجا" قد حصرت هكتور في أحد الأركان.. وجلس منيون يلعب الورق مع فانديفر.. وراح فوشيري ولابورديت وفوكارمون يفتشون عن المزيد من الشمبانيا.. وأخذت ماري بلوند تعزف على البيانو.

وحول الساعة الخامسة.. كان الأعياء والشمبانيا قد صعدا المدعوين. ولكنهم لم يكفوا عن الرقص والغناء ولعب الورق والبحث عن المزيد من الخمر.

وجلست "نانا" لصق ستينر، وهي متعبة شاحبة اللون. وفي عينيها الزرقاوين نظرة رقيقة ساحرة.

كانت الزهور الثلاث التي تزين صدرها قد ذبلت... وتساقطت أوراقها. ولم يبق منها إلا السيقان.

وازداد ستينر التصاقًا بالغانية.. ومد يده.. ثم اجتذبها على الأثر. وقد مست أحد الدبابيس التي وضعها جورج في ثوب نانا. وانبثق الدم من يد الممول.. وسقطت منه قطرة على ثوب نانا الأبيض.

فهتفت:

– هذا نذير شر..

وقطبت حاجبيها.

وكان الفجر قد انبثق.. وتبعثر الكناسون في الشوارع... فوقفت نانا أمام النافذة. وتأملت المنازل المظلمة الهادئة.. ولفح النسيم البليل جبينها الملتهب فشعرت بالحنين إلى الريف.. والشجر وقالت تحدث ستينر:

– تعال.. إنني أريدك ان تذهب بي إلى غابة بولونيا. لنشرب اللبان هناك.

وراقتها هذه الفكرة. وصفقت بيديها كالأطفال.. ولم تنتظر موافقة الممول. وأسرعت إلى مخدعها لتضع معطفًا. وطلبت إليها أن تساعدها على ارتداء معطفها وقبعتها. وهمست في أذنها:

– لقد أصغيت إلى نصيحتك. قررت أن أتخذ ستينر صديقًا.إنه رجل طيب على كل حال. ولا أظنه اسوأ من سواه.

ثم أبصرت بداجينيه مقبلًا عليها.. وشعرت بأنه ينتظر انصراف المدعوين بفروغ الصبر. فقالت له:

– سأذهب مع ستينر للنزهة في غاية بولونيا.

ولاحظت انقلاب سحنته فاستطردت:

– كن عاقلًا يا عزيزي.. أنت تعرف الموقف.

واحتضنته.. وقبلته. وأردفت:

– أنت تعلم أنني أحبك ولا أحب أحدًا سواك.. تعال غدًا لنضع برنامجنا الجديد.. والآن.. قبلني.. كما لو كنت تحبني.. قبلني مرة أخرى.

الفصل السادس

كانت "فينوس الشقراء" تعرض للمرة الرابعة والخمسين.. وقد فرغ الممثلون من الفصل الأول.. وتفرقوا بين الكواليس للاستعداد للفصل الثاني.وارتدى "بوسك" العجوز ثوبه.. وتقلد حسامه وخوذته.. وجلس على "برميل" كبير في انتظار دوره.كانت الريح تعصف في الخارج بشدة.. ففتحت إحدى النوافذ وهب منها تيار بارد.. وارتجف الممثل العجوز وغمغم:

– يا له من جو قذر.

وأحست سيمونا بالبرد.. وكانت تستبدل ثيابها.. فخرجت من غرفتها.. وأغلقت النافذة التي فتحها الريح.وأقبل فونتان في هذه اللحظة.. وهو يرتب لحيته المستعارة ويقول:

– هل علمتم أن اليوم عيد ميلادي؟

فصاح بوسك وهو يرتجف من البرد:

– إذن فلا أقل من زجاجة شمبانيا احتفالًا بهذا العيد.

فقال فونتان:

– بل ست زجاجات.

ودق الجرس.. وأمر الخادم أن يأتيه بزجاجات الشمبانيا من مقصف المسرح.

وحانت من "بوسك" التفاتة.. فرأى فتاة شاحبة هزيلة.. قد قبعت في أحد الأركان.. وراحت تنظر نحوهم في مزيج من الدهشة والخجل.

غمغم:

– من هذه؟!

فنظرت سيمونا نحو الفتاة. وأجابت بصوت خافت:

– هذه "ساتان".. ألا تعرفها؟! إنها صديقة قديمة "لنانا" وقد التقت بها عند باب المسرح. والظاهر أن الفتاة كانت بلا عمل فقدمتها "نانا" إلى "بوردنيف" وطلبت إليه أن يستخدمها.

وفي هذه اللحظة.. أقبل أحد خدم المسرح وهو يصيح:

– مسيو بوسك.. ومدام أزيل سيمونا.. استعداد.. استعداد.

فأسرعت سيمونا نحو خشبة المسرح.. ونهض بوسك من مكانه متثاقلًا..

ودق الجرس.. ورفع الستار.وبقي فونتان ينتظر دوره.. ومرت به كلاريس.. وتبعها فوشيري ومنيون..

سأله الصحافي وهو يبتسم:

– هل رأيته؟

فقال فونتان:

– من تعني؟

– سموا الأمير الروسي.

– آه.. نعم.. أنه أصبح من زبائننا الدائمين.

– أحقًا تقول! إنني رأيته الليلة لأول مرة.

– ومن هو ذلك النبيل الأنيق الذي يجلس في مقصورته؟! هل تعرفه؟!

فأجاب الصحافي:

– إن في مقصورته رجلين.. الكونت موفات دي بيفيل والمركيز دي شوار، وأظن أن أولهما مكلف بمرافقة الأمير في تجواله وتنقلاته في المدينة.

ومر بهم خادم يحمل باقة زهر من أفخم ما رأت عيونهم. فصاح فوشيري:

– لمن هذه؟!

ولكن الخادم كان مسرعًا.. فلم يجب.. وقصد لتوه إلى غرفة نانا.

قال فوشيري:

– ما أسعد هذه المرأة.. باقة زهر من الأمير.. وقصر ريفي فخم من ستينر.

فعض منيون على شفتيه.

واهتز المكان هذه اللحظة بدوي كقصف الرعد.. فقال متمتمًا عبارة فوشيري:

– وهتاف متواصل في كل ليلة.

وأقبل الخادم وهو يصيح:

– هلم يا مسيو فونتان.

فهتف الممثل وهو يهرول نحو خشبة المسرح:

– وأين الشمبانيا يا لعين؟

وفي إبان الاستراحة بين الفصلين الثاني والثالث.. بينما كانت الممثلات يستبدلن ثيابهن. والمخرج وأعوانه وعامل الإضاءة يشتغلون بإعداد المنظر الأخير.. وغلمان المسرح يحملون إلى الممثلات والراقصات باقات الزهر والرسائل من المعجبين بهن. وفونتان يصرخ في وجه الخادم لأنه جاءه بأربع زجاجات شمباينا بدلًا من ست.. إذا بحركة غير عادية على السلم الخشبي الضيق الموصل

إلى غرف الممثلين، وإذا بصوت بوردنيف وهو يهدر كالثور:

– سمو الأمير.. سمو الأمير..

وبرز بوردنيف من قمة السلم. وتبعه الأمير. وهو شاب طويل القامة. جميل الطلعة تعبر حركاته عن الرزانة والرجولة والنبل. ثم برز في إثرهما الكونت موفات والمركيز دي شوار:

قال بوردنير وهو يتقدم الأمير:

– تفضل بالمرور من هنا يا صاحب السمو..

ولكن الأمير لم يكن متعجلًا.. فراح يراقب العمال وهم يتحركون بسرعة.. إطاعة لأوامر المخرج..

وراح موفات ينظر حوله في دهشة. ويعجب لانحدار خشبة المسرح ومظاهر الفوضى التي تحيط به.

وحانت منه الفاتة إلى باب قريب... فرأى ثلاث راقصات ينظرن من خلال ستار.. وسمع إحداهن تهتف:

– ها هو.. لقد رأيته..

وابتسم الأمير ونظر بوردنيف إلى الراقصات شذرًا. ثم سار في دهليز ضيق طويل.. تدب فيه الحركة والنشاط.. ويختلط به صياح الممثلين والممثلات بأصوات غلق الأبواب وفتحها.. فراح موفات ينظر حوله في قلق وتهيب.. كمن يجد نفسه في جو غريب لا عهد له به..

وقال المركيز دي شوار:

– إن المسرح مكان عجيب.

ولكنه كان يسير هادئًا مطمئنًا. كمن ألف هذا المكان.

وانتهى بوردنيف أخيرًا إلى غرفة نانا.. فقال وهو يفتح الباب ويفسح السبيل لدخول الأمير:

– تفضل يا صاحب..

وقبل أن يتم عبارته.. ارتفعت صيحة دهشة وشوهدت نانا وهي تتوارى خلف ستار في ركن الغرفة.

صاحت من مخبئها:

– هذا مزعج.. ألا ترون أنه ليس من اللياقة أن تدخلوا دون استئذان!

فظهرت على وجه بوردنيف علامات الامتعاض. وهتف:

– هلمي.. هلمي يا بنيتي.. إن سمو الأمير هنا. أخرجي من مخبئك ولا تكوني حمقاء.

ولكنها رفضت. وقرنت رفضها بضحكة حلوة. فقال بوردنيف بلهجة أبوية:

– يا إلهي.. إن هؤلاء السادة يعلمون تمامًا أنك ترتدين ثيابك لا تنزعجي.. إن سمو الأمير لن يأكلك.

فقال الأمير في هدوء:

– أنني لست واثقًا من ذلك.

فضحك الجميع. وكان ضحكهم إطراء لحضور ذهنه. وسرعة خاطره، ولم تجب نانا.

ونظر موفات حوله في أنحاء الغرفة..كانت غرفة صغيرة منخفضة السقف. بها نافذة واحدة تطل على جدار متهدم خلف المسرح. وفي ركن الغرفة مرآة كبيرة

قائمة فوق مائدة بيضاء عليها خليط من علب الورق وزجاجات الروائح العطرية والمساحيق وأدوات الزينة. واقترب موفات من المرآة.. ونظر إلى وجهه الشاحب.. وجبينه المنضد بحباب العرق..أحس بمثل الدوار والاضطراب الذي أحس بهما في غرفة نانا يوم زارها لأول مرة.. قال بوردنيف.. وهو يدس رأسه بين شقي الستار:

– أسرعي..

وبعد لحظة. أطلت نانا برأسها من وراء الستار وقالت:

– معذرة أيها السادة.. إني فوجئت بزيارتكم..

كانت ترتدي ذلك النسيج الشفاف الذي كأنما صنعت خيوطه من زجاج. وقد رفعت الستار بيدها العارية الجميلة وتحفزت لاسداله في الحال إذا بدت من ضيوفها نية الهجوم.

استطردت وهي تصطنع الخجل والاحتشام وتسدل أهدابها في حياء:

– نعم.. إنني أخذت على غرة.. ولولا ذلك ما انزلق لساني بما..

فقاطعها بوردنيف بسرعة:

– لا بأس.. تقدمي..

فترددت.. وغمغمت في خجل:

– أرجو أن يغفر لي صاحب السمو جرأتي على استقباله في هذا الثوب..

فقال الأمير في أدب:

– أنا الذي يجب عن أعتذر عن ازعاجك يا سيدتي، ولكني لم أستطع كتمان إعجابي بك.. ورغبتي في تهنئتك.

وخرجت نانا من مخبئها بخفة.. وبغير خجل.. وحيت الأمير والمركيز.. ولما

وصلت إلى موفات صافحته كما تصافح صديقًا. وعتبت عليه قصوره عن حضور مأدبتها.. وارتجف موفات حين مست يده الملتهبة أصابعها الصغيرة الباردة.

وكان موفات قد تناول الطعام مع الأمير وأسرف في الشراب... فاضطرب بين يدي نانا.. ولم تسعفه قريحته بكلمة يقولها ردًا على عتابها.. وفي هذه اللحظة.. فتح باب الغرفة فجأة.. ودخل فونتان وبروليبه وبوسك.. وقد حمل كل منهم زجاجة شمبانيا تحت إبطه.. وقد حين في يده.. وصاح الأول في مرح وجذل:

– هذا عيد ميلادي.. ويجب أن يشرب الجميع نخب صحيت.

ولكنهم ما كادوا يبصرون بالأمير ومن معه.. حتى جمدوا في أماكنهم ولكن الأمير ابتسم لهم مشجعًا.. فابتسموا كذلك.. ورفع بوسك خوذته.. وأحنى قامته محييًا الأمير بحركة مسرحية.

وهتف:

– لنشرب نخب الأمير.

وقال بروليبه:

– نخب الجنرال "بوسك".

وقال فونتان:

– نخب نانا..

وقدموا إلى ضيوفهم أقداح الشمبانيا. فانتظر الأمير حتى ملئت الأقداح.. ثم قال وهو يحني قامته في أدب:

– سيدتي.. سيدي "الجنرال".. أيها السادة.. نخب صحتكم جميعًا.. ورفع القدح إلى فمه. وحذا موفات والمركيز دي شوار حذوه.. ونسيت نانا ثوبها الشفاف. وامتلأت نفسها بهجة وكبرياء. وخيل إليها أنها ملكة تستقبل وزراءها في قاعة العرش.

وملأ فونتان الأقداح مرة أخرى. وهتف:

– نخب سمو الأمير.. نخب "فينوس".

فصاحت نانا:

– ونخب فونتان.. هذ عيد ميلاده.. فلنشرب نخب صوته.

فقال الأمير في أدب جم.. كأنه يحدث أحد الملوك:

– يا مسيو فونتان.. إنني أشرب نخب صحتك ونجاحك.

وكانت الغرفة لا تكاد تتسع لهم، فاضطر الأمير وموفان أن يرفعا أيديهما خشية أن يلمسا جسد نانا عند أية حركة.وأقبل أحد الخدم ونظر أمامه في حيرة. ثم تشجع وقال محدثًا الممثلين:

– أسرعوا أيها السادة.. سيرفع الستار بعد لحظة.

فقلب بوردنيف شفته وقال:

– فلينتظروا قليلًا.

ولما لم يكن ثمة مزيد من الشمبانيا. فقد أحنى الممثلون قامتهم في أدب. وذهبوا لشأنهم.. وانطلق بوردنيف في إثرهم لإصدار بعض الأوامر.. ولم يبق بالغرفة سوى الأمير وموفات والمركيز دي شوار.

قالت نانا:

– معذرة أيها السادة.. يجب أن أكمل زينتي.

وقصدت إلى مرآتها.. وجلس الأمير على أحد المقاعد.. وحذا المركيز حذوه. أما موفات.. فإنه سار إلى النافذة ووقف عندها.كان ثملًا بنشوة الخمر.. وبالرائحة الزكية التي تملأ جو الغرفة... وبوجوده مع تلك المخلوقة الفاتنة في مكان واحد.

قال الأمير وهو لا يحول عينيه عن نانا:

– إن صوتك كان عجيبًا الليلة.

وكانت تزجج عينيها. فرمقته من ركن عينها بنظرة مغرية. وقالت:

– أنك تبالغ في إطرائي يا صاحب السمو.

ورأى المركيز دي شوار نظرتها الفاتنة فجن جنونه وقال:

– ألا يمكن خفض أنغام الموسيقى قليلًا!؟ إنها ترفع في بعض الأحيان فترتكب وزر أغراق صوتك.

ولكن نانا لم تعره التفاتًا.. ومضت في تجميل وجهها. وعنقها.. وساعديها.

ولم ينبس موفات خلال ذلك بكلمة واحدة.كان يفكر في ماضيه.. ويستعرض حياته.. كانت طفولته وفتوته وشبابه سلسلة متصلة الحلقات من العمل الكد، فلا لهو. ولا مسرة ولا حب. ولا صداقة. ولا أية وسيلة أو أية عاطفة تميزه عن الآلة الصماء. التي خلقت لتعمل فحسب. وتنتج فحسب. وكان أداء الواجب كالآلة الصماء وكالساعة الدقاقة هو دائمًا شعاره وناموسه في عمله.. وفي صلته بامرأته. فبلغ مبلغ الرجال. وقارب الشيخوخة. ولم يستهدف طول حياته لفتنة أو إغراء.

وقد وجد نفسه الآن. فجأة وبغير إنذار أمام امرأة فاتنة شبة عارية.. تتبرج وتتزين.. وهو يتأملها. ويرى منها ما لم ير من امرأته فأحس أولًا بالنفور. ثم أحس بالانزعاج. وهاله سلطان هذه المرأة عليه.

قال الأمير:

– إذا حظر لك يومًا أن تعملي على مسارح "موسكو"فإنك سوف تلقين من التشجيع والحماسة ما يغريك بالإقامة فيها وعدم العودة إلى باريس.

ثم تحول إلى موفا واستطرد:

– إنكم لا تقدرون جمال نسائكم يا عزيزي الكونت. وقد نشطت موسكو لاجتذاب كل حسانكم..

فغمغم المركيز دي شوار في خبث:

– إن ذلك لا يزعج الكونت، فإنه الفضيلة مجسمة.

وسمعت نانا هذه العبارة. فرمقت موفات من ركن عينها بنظرة عجيبة أزعجته.. ولكنه ما لبث أن شعر بالغضب وسأل نفسه: لماذا يزعجه أن يهتم بالفضيلة في حضرة هذه الغانية؟! وفي هذه اللحظة. سقطت من نانا فرشاة صغيرة. فانحنت وانحنى موفات في ذات الوقت لالتقاطها. فأنسدل شعرها الجميل على يده وأحس الكونت بأنفاسها تلفح وجهه ومرت في جسده رعدة شديدة.

ودخل الخادم وهو يقول في أدب:

– سيدتي. إن النظارة يضجون وقد نفذ صبرهم.

فأجابت نانا بصوت هادئ:

– لينتظروا..

واستأنفت عملها في هدوء وسكينة. ثم نهضت واقفة.. ودارت حول نفسها وهي تنظر إلى المرأة.. وأغمض الأمير عينيه قليلًا وجعل يتأملها بعين الخبير. بينما راح المركيز دي شوار يهز رأسه بحركة منتظمة. دلالة على إعجابه وموافقته.

أما موفات.. فإنه أطرق برأسه.. ونظر إلى أرض الغرفة.. كأنما يشفق على عينيه أن تبهرهما الشمس المشرقة.

قالت نانا:

– هأنذا على استعداد.

وخرجت من الغرفة.. فتبعها الرجال الثلاثة.. ولكنهم لم يستأذنوا في الانصراف.

ووقفت نانا بين الكواليس.. في انتظار دورها. وما إن سمعت صوت المخرج.. حتى رفعت رأسها كمن يستجمع عزيمته. ثم سارت إلى المسرح.. ودهش الأمير والكونت لخفتها وسرعة حركتها. وأسرع الثاني إلى ثقب الستار.. وأطل منه.

وقوبلت نانا. وهي في ذلك الشفاف. بآهة عميقة ساهم فيها النظارة جميعًا.

كانت تقابل بهذه الآهة القلقة العميقة كل ليلة كلما طلعت على النظارة في ذلك الثوب.. . ونسى موفات كل ما حوله. ونسى الأمير والمركيز دي شوار.. وخدم المسرح.. وانتقلت كل حواسه إلى عينيه. رأى ظهر نانا. وجيدها الناصح. وجسدها الفاتن.

رآها كما يرى امرأة عارية.. تغتسل في عين ماء تنفجر من فوق الصخور، ثم سمع صوتها. وخيل إليه أن بعض العبارات تنبعث من كل جسدها وتنتقل من فمها إلى عنقها، فوسطها، فقدميها.

وبقى الكونت مكانة هكذا، مبهوتًا ذاهب اللب.. حتى فرغت نانا من أغنيتها، وارتفع الهتاف ودوي التصفيق. وعندئذ فقط أفاق موفات من ذهوله.. ورأى نانا تتراجع إلى الوراء. فابتعد من مكانه قليلًا.. حتى لا تفاجئه متلبسًا باختلاس النظر إليها..

وما كاد موفات يراها تختال في الدهليز المؤدي إلى غرفتها. اختيال الغانية التي تشعر بفتنتها، وتعرف قوة جنسها، وما كاد يرى المكان خلوًا إلا منهما. حتى أسلم نفسه للقوة الخفية التي تجتذبه إليها، فأسرع في أثرها، وألحق بها عند باب غرفتها، وطبع على رقبتها قبلة حارة.

ودارت نانا على عقبيها بخفة النمر.. ويدها مرفوعة فوق رأسها، لتهوي بها على وجه ذلك المعتوه الجريء الذي استباحها، ولكنها ما كادت تبصر به حتى ابتسمت، وهبط ساعدها إلى جنبها.

وكانت في ابتسامتها عذوبة وحيرة وخضوع.. كأنها كانت قانطة من الحصول حتى على هذه القلة. ثم اغتبطت بها حين حصلت عليها، ولكن.. ينبغي عليه أن ينتظر، هكذا قالت بعينيها.

ثم قالت بفمها:

– لعلك تعلم أنني ابتعت قصرًا ريفيًا بالقرب من "اورليان" حيث توجد– كما قال لي جورج هيجون – أملاكك وأملاك أسرتك.. فتعال لزيارتي هناك إذا أردت..

وكان موفات قد أفاق من ذهوله، وملك نفسه، وتخلص من الشيطان الذي تقمص جسده، فخجل.. وعاوده حياؤه الطبيعي.. ووعد – وهو مطرق برأسه – أن يلبي دعوتها، ثم انصرف من أمامها مهرولًا.. ومر في طريقه بالمركيز دي شوار.

– وكان يتحدث إلى ساتان في أحد الأركان، ولكنه لم ينتبه إليه..

وفي تلك الليلة.. عاد الكونت إلى بيته ماشيًا على قدميه..

كان يريد أن يفكر، ولكنه لم يستطع، فقد أحس كأنه أصابع من نار تقبض على عقله. لقد تبلج له نور جديد، وطغى عليه طوفان اكتسح العقائد والمبادئ التي كان يدين بها طيلة الأربعين سنة الماضية.

أحس بأن تلك المرأة قد فتنته، وملكت عليه كل حواسه، وردت إليه شبابه، وعصفت باحتشامه، ورزانته وورعه.

الفصل السابع

تملك مدام هيجون في "لافونديت" بالقرب من "اورليان" مزرعة واسعة يتوسطها قصر فسيح، يرجع تاريخه إلى القرن السابع عشر.

وذات مساء.. فوجئت مدام هيجون وأبنها جورج بزيارة الكونت موفات وزوجته، وأبنتهما ستيللا.. ودهشت السيدة لهذه الزيارة..كانت قد دعت آل موفات لزيارتها.. وقضاء أسبوع في عطلة الصيف عندها.. فلما انقضى الصيف وأوشك الخريف أن ينصرم، أيقنت بأن دعوتها لن تجاب في ذلك العام على الأصل..على أن سرورها بمقدمهم كان عظيمًا.. فرحبت بهم.. وأفسحت لهم الطابق الثاني.. وقضت معهم سهرة ممتعة..

وفي الصباح.. اجتمعوا حول مائدة الطعام.. فأشارت مدام هيجون إلى أشجار الحديقة وقد أخذت أوراقها في السقوط.. وقالت:

– أنظروا.. لقد ضاعت بهجة الحديقة.. لقد كنت انتظركم في شهر يونيه.. ونحن الآن في سبتمبر..

وعتبت على "سابين" ابطاءها في تلبية الدعوة.. حين كان في استطاعتها أن تنعم بعليل النسيم ونضج الثمار في فصل الصيف.. واعتذرت سابين بأن أعمال زوجها قد عوقته عن إجابة الدعوة في الوقت المناسب.. فأرجأها.. ثم أرجأها.. وفاجأها في اليوم السابق بعزمه على الرحيل..

قالت مدام هيجون:

– من حسن الحظ أن إقامتكم هنا سوف لا تخلو من أسباب البهجة والمرح.. فقد دعا ولدي جورج اثنين من أصدقائه.. أحدهما صحافي يدعى

فوشيري.. وأظن أنكم تعرفونه.. والثاني يدعى داجينيه..

فقالت سابين ضاحكة:

– ولا تنسي والدي. أنه سيحضر غدًا!!.

فسأل موفات:

– وولدك فيليب؟

فأجابت مدام هيجون:

– إنه طلب إجازة ولكنه يخشى ألا يجاب طلبه.

وتحدثوا عن باريس. وأصدقائهم فيها. وجاء عرضًا ذكر ستينر فهتفت مدام هيجون:

– أليس هو الرجل البدين القصير القامة الذي قابلته في بيتكم ذات ليلة؟ إنه رجل من رجال المال كما أذكر.

فهز موفات رأسه علامة الإيجاب.

قالت مدام هيجون في تهكم:

– يخيل إلى أنه رجل كريم، لقد ابتاع لإحدى الممثلات قصرًا ومزرعة على بعد مرحلة من هنا، وكان ذلك مدعاة لاشمئزاز أهل هذه الناحية جميعًا، ألم يبلغك أمر هذه الصفقة؟

فأجاب موفات:

– كلا..

ثم استطرد بعد لحظة:

– إذن فقد أصبح ستينر جارًا لك.

وسمع جورج حديث أمه.. فدفن أنفه في قدح الشاي، وتظاهر بقلة الأكتراث. وراحت مدام هيجون تدلي بالمزيد من التفاصيل. فقالت أن قصر الممثلة ليس بيعد عن قصرها أكثر من كيلو مترين.

فسألتها سابين:

– وما اسم هذه الممثلة؟

– لقد ذكر لي اسمها هذا الصباح، إنك كنت موجودًا معي حين حدثني البستاني عنها يا جورج.

فقطب جورج حاجبيه، وتظاهر بالتفكير.

وانتظر موفات الجواب بفروغ صبر، ولكن جورج لم ينطق بكلمة، وتحولت سابين إلى زوجها وقالت:

– لا شك إنها تلك الممثلة التي تعمل في مسرح "الفاريتيه".. "نانا" على ما أذكر.

فقالت مدام هيجون:

– اسمها نانا لقد ابتاع ستينر قصر "منيون" لهذه المرأة، ويقول البستاني أنها ستصل إلى القصر الليلة، ألم يقل ذلك يا جورج؟!

فأجاب الشا:

– أظن أنه قال ذلك يا أماه.. ولكنه رجل غبي. قل أن يفهم ما يقول.. وقد أكد لنا الحوذي أن صاحبة القصر لا تصل إلا بعد غد.

وساد الصمت لحظة. ثم قالت مدام هيجون:

– إننا لا نستطيع أن نطالب جميع الناس بأن يكونوا مثلنا.. ومع ذلك فإنني أشعر بأن وجود هذه المرأة على مقربة منا سوف يجر علينا مضايقات كثيرة أقلها

أننا سوف نضطر إلى التنكر لها واجتنابها كلمة صادفناها في الطريق.

وقد قدر لسرور مدام هيجون بزيارة آل موفات إلا يخلو من الأكدار، فقد أعلن جورج بعد الغداء أنه مصاب بصداع، ثم اشتد به الصداع فقال لأنه أنه لا يجد ل أفضل من الاستراحة في فراشه حتى الصباح، وتبعته أمه إلى غرفته، وأغلقت نوافذها.. وأحاطت جسده بالأغطية وتمنت له نومًا مريحًا وانصرفت.وما كادت تبتعد قليلًا حتى وثب جورج من فراشه، وصاح بها وهو يوصد الباب من الداخل:

– أرجو ألا يزعجني أحد قبل الصباح يا أماه.

ولكنه لم يعد إلى فراشه، بل ارتدي ثيابه في سكون، ولما فرغ من ذلك جلس على أحد المقاعد كأنه ينتظر شيئًا.

وهبط الظلام أخيرًا، وسمع وقع خطوات الكونت وزوجته وأبنته وهم يقصدون إلى قاعة الطعام لتناول العشاء. فنهض إلى النافذة وفتحها، ووثب منها إلى الحديقة بخفة، وتوارى بين الأشجار.

الفصل الثامن

وصلت نانا إلى قصرها الجديد في ذلك المساء.

كان ستينر قد ابتاع القصر قبل بضعة أسابيع، ومنذ ذلك الوقت وهي تتحرق شوقًا لرؤيته والإقامة فيه.. وقد بكت حنقًا وعجزًا حين رفض بوردنيف أن يمنحها إجازة ولو قصيرة. قائلًا أنه لا يستطيع وقف العمل ليلة واحدة طيلة افتتاح المعرض.ولما غضبت، وألحفت وعدها بإجازة في سبتمبر.وفي سبتمبر وعدها بإجازة في أكتوبر.ولكنها لم تطق صبرًا على هذه المماطلة.. وأعلنت عزمها على الرحيل إلى قصرها في منتصف سبتمبر، ودللت على صدق عزيمتها بأن دعت بعض زميلاتها لزيارتها هناك في الموعد الذي حددته.

وكانت حتى ذلك الوقت قد صدت الكونت موفا، وقاومته وامتنعت عليه بدافع الغريزة النسوية التي تزين للمرأة أن ترى نفسها – ولو مرة واحدة في حياتها– موضع حب جائح عنيف، فلما جاءها في أحد الأيام وأمسك بيدها. وألقى بنفسه تحت قدميها متوسلًا متعطفًا.. طلبت إليه أن ينتظر حتى تذهب إلى قصرها.. وحددت منتصف شهر سبتمبر موعدًا.

بيد أنها أشفقت أن يقيم بوردنيف العراقيل في سبيلها.. وأن يتفتق ذهنه عن وسيلة لتعويقها، فرحلت قبل الموعد بيومين على أن كتبت إلى عمتها.. تطلب إليها إحضار "لويس" الصغير إلى قصر "مينوت" بأسرع ما يمكن.

وفي الطريق بين باريس "اورليان".. اغرورقت عيناها بدموع الحنان حين تصورت طفلها وهو يلعب فوق العشب، ويتوائب بين الأشجار.

ووصلت "نانا" إلى محطة "اورليان" في الساعة الثالثة مساء.. فاستأجرت

مركبة.. وأمرت السائف أن يسرع بها إلى "مينوت".. وأمطرته وابلًا من الأسئلة.. ألم يذهب قط إلى هذا القصر؟ ألم يمر به؟ هل يقع القصر وراء هذا التل؟ هل يحيط به حديقة كبيرة؟ هل يمكن مشاهدته على مبعدة؟ كل ذلك وهي تنتقل في المركبة من ركن إلى ركن.. قلقًا وفضولًا، والسائق لا يجيبها.. إلا بعبارات مقتضبة لا تشبع فضولها، ولا تروي غليلها.. وأخيرًا وقفت الجياد فجأة، فأطلت نانا من نافذة المركبة وصاحت:

– هل وصلنا ؟

فلم يجيبها السائق، وألهب جياده، فانحدرت بالمركبة على سفح التل، ونظرت نانا إلى الغيوم المتلبدة في السماء، وإلى العشب المتماوج في الحقول وهتفت:

– تأملي العشب يا لويز، أنظري، أليست هذه حنطة؟!

فأجابت الوصيفة:

– يخيل إلى أن سيدتي تجهل الريف، أما أنا فإنني أعرفها جيدًا ولا أطيقها.

وسارت المركبة في طريق تحيط به الأشجار. وتنسمت نانا الهواء ملء رئتيها، ولاح لها بيت أبيض وراء الأشجار، فقالت أنه بيتها ما في ذلك شك، ولكن السائق هز رأسه ولم يجب.

وهبطت المركبة عن سفح التل، وواصلت سيرها الوادي، وقال السائق وهو يشبر بوسطه:

– أنظري.. ها هو..

فأطلت نانا من نافذة المركبة ولكنها لم تر شيئًا.

قالت وهي ممتقعة اللون مرتجفة ليدين من فرط الانفعال:

– أين.. أين..

ثم لاحت لها جدران القصر، فصاحت في جذل، ونهضت وجلست ثم نهضت مرة أخرى وهتفت:

– ها هو.. أنظري يا لويز.. يا إلهي.. ما أفخمه..

ووقفت المركبة بباب القصر، فخف البستاني لاستقبالها، وقبعته في يده.

وحاولت نانا أن تكتم فضولها، وتسيطر على عواطفها حتى لا يسخر منها البستاني.. وبذلت جهدًا كبيرًا لتمنع نفسها من الانطلاق في حديقة القصر بأقصى سرعتها.

وتكلم البستاني فاعتذر عما يبدو في الحديقة من آثار الفوضى بأنه لم يتسلم رسالة إلا في اليوم السابق.

وأصغت إليه "نانا" ولكنها لم تفهم كلمة واحدة من حديثه.كانت تنظر إلى القصر.. وتتأمل نوافذه وشرفاته.. وأعمدته الرخامية، وطرازه الإيطالي البديع.

قال البستاني:

– هل تسمح سيدتي فأرشدها إلى الطريق..

ولكنها سبقته.. قائلة أنها تعرف طريقها وأنها ليست بحاجة إلى إرشاده.. ولم تتريث حتى تخلع قبعتها، وجعلت تنتقل بين الغرف بسرعة وتعبر عن إعجابها بالتصفيق تارة، وصيحات الاعجاب تارة أخرى.. وجدران البيت تردد ضحكاتها وترجع صدى صوتها..كانت قاعة الاستقبال مترامية الأطراف.. ونوافذها تطل على الحديقة.. أما أثاثها الأحمر فبشع.. ويجب استبداله.وقاعة الطعام.. ما أفسحها، وأبهجها.. وما أروع المآدب التي تستطيع أن تقيمها فيها!! وصعدت السلم إلى الطابق الثاني، ولكنها تذكرت في منتصف الطريق أنها لم تتفقد المطبخ فعادت أدراجها.. وأمسكن بساعد لويز. وذهبت بها إلى المطبخ.. ووقفتا هناك مذهولتين أمام الموقد الذي يتسع لخروف برمته.

وأسرعت نانا إلى الطابق الثاني، وتفقدت قاعات النوم، واختارت لنفسها قاعة وردية الجدران، قد صنع أثاثها الوردي على طراز لويس السادس عشر. وأثارت هذه القاعة حماستها.. فشبهتها بعض فتاة عذراء. وطافت بباقي الغرف.. ثم راحت ترقى السلم الخشبي الضيق المؤدي إلى السطح.

وامتنعت لويز عن مرافقتها، قائلة أنها لا تريد أن يدق عنقها فوق السلم. ولكنها ما لبثت أن سمعت صوت نانا وهي تهتف:

– لويز، لويز.. أين أنت، تعالي.. هذه قطعة من الجنة، فصعدت لويز السلم وهي تزمجر، ووجدت سيدتها تطل من حاجز السطح، وهي ممسكة قبعتها بيديها، حتى لا تحملها الريح.

كان الوادي النضير منبسطًا تحت أقدام القصر.. والعشب الأخضر وأغصان الشجر تتمايل كلها تحت ضربات الريح.. وقطرات المطر تتساقط في هدوء وتعلق بالعشب والأشجار كأنها قطرات الندى.

قالت لويز:

– إن الريح تعصف بشدة يا سيدتي. فحذار أن تقذف بك من حالق.

ولكن نانا لم تصغ إليها.. وانحنت فوق حاجز السطح، وقدرت مساحة الحقل الذي يحيط بالقصر، سبعة أو ثمانية أفدنة على الأقل.

صاحت: إن الحقل مليء بالكرنب والبطاطس.. إننا لن نحتاج إلى الخضر يا لويز.

وهبطت السلم مسرعة.

وكان المطر وقتئذ يهطل بشدة.. وأرادت نانا أن تتقيه بمظلتها الحريرية، ولكن المظلة ما لبثت أن تشبعت بالماء الملوث بالغبار.

قالت لويز:

– إنك ستصابين ببرد يا سيدتي..

فلم تحفل نانا. كانت تريد أن تكتشف كل شيء.

صاحت:

– أرأيت يا لويز؟ "سبانخ" "وخرشوف".. ولكن ما هذا النبات؟ إنني لا أعرفه..

وفحصت الخضر باهتمام.. وأطلت في البئر التي تستقي منها الحديقة واستفسرت عن نوع كل شجرة وكل نبات. كانت تريد أن تطأ بقدم المالك كل شبر في المكان.. وأن تستولي في الحال على كل هذه النعم التي طالما حلمت بها وهي لاتزال صبية فقيرة.. تعمل بإبرتها طول النهار وشطرًا كبيرًا من الليل للحصول على ما تتبلغ به. فجأة.. وقع بصرها على شجرة توت مثقلة بالثمار فصاحت بجذل الصبيان:

– "توت".. يا إلهي.. ما أجمله وأشهاه.. علي بإناء لاقتطف بعضه يا لويز.

وتركت مظلتها.. واستقبلت ماء المطر على رأسها وكتفيها.. وأمسكت بأحد أغصان الشجرة وهزته بعنف فسقط ثمارها، وفي هذه اللحظة، خيل إليها أنها ترى شيئًا يتوارى في الظلام خلف شجيرات العوسج التي تحيط بالحديقة، ثم سمعت صوت تحطم الأغصان الجافة، فصاحت في ذعر.

– هذا حيوان بري.

وتملكها الرعب، فلم تستطع حراكًا.

وفي اللحظة التالية، رأت أن هذا الذي ظنته حيوانًا بريًا لم يكن إلا شخصًا..

ثم تبينت وجه الشخص وعرفته وصاحت:

– جورج.. ماذا جئت تصنع بحق السماء؟!

فأجابها:

– ماذا جئت أصنع؟ إنني جئت لأراك..

فذهلت، وقالت:

وكيف علمت بقدومي؟ هل أنبأك البستاني؟ إن ثيابك تقطر ماء يا فتى.

فأجاب:

– هذا صحيح، لقد فاجأني المطر في الطريق فلم أستطع النكوس ثم إنني سقطت في مستنقع.. يا إلهي.

وأغرقت نانا في الضحك.. ثم أقبلت عليه.. وفي عينيها نظرة إشفاق، وقبلت جبينه وهي تقول:

– هلم معي إلى القصر، يجب إشعال النار في الموقد في الحال، كانت حتى ذلك الوقت تعامله كصبي، وتصغي إلى نجواه على هذا الاعتبار.. وتجد في مغازلاته تسلية.. ولا تقيم لها وزنًا أو أهمية.. ولم تدر في تلك اللحظة ماذا يجب أن تصنع به، وأخيرًا ذهبت به إلى مخدعها، وأمرت "لويز" أن تشعل النار في الموقد.. وقالت وهي تنظر إليه كما تنظر إلى كلب محبوب سقط في وعاء ماء:

– سيصاب المسكين بالبرد، فما العمل، لا يوجد هنا شيء من ملابس الرجال.

وخطر لها أن تدعو البستاني، ثم عدلت عن ذلك، وفتحت إحدى حقائبها، وأخرجت بعض من ثيابها، وقالت تحدث لويز:

– أحملي إليه هذه الثياب، وضعي ثيابه المبللة بالقرب من الموقد ومتى جفت، فعليه أن يرتديها، ويعود أدراجه مسرعًا قبل أن يستهدف لتقريع أمه.

ثم عمدت إلى ثيابها المبلله فخلعتها، وألقت على كتفيها غلالة.. وقصدت إلى المخدع.. ولم تكد تبصر بجورج وقد ارتدى ثيابها حتى صفقت بيديها جذلًا وصاحت:

– ما أجمله كفتاة.

كان الفتى بوجهه الأملس، وشعره الذهبي الناعم.. وثوب نانا الحريري الأنيق ينحسر عن عنقه، وساعديه.. أشبه بصبية حسناء لا ينقصها إلا الخصاب والمساحيق.

قالت نانا وهي تحيط خصره بساعدها، وتتأمله من رأسه إلى قدميه:

– أحقًا أنك لست أضخم مني حجمًا؟! أنظر يا لويز، كأني بالثوب قد صنع له خصيصًا.

وضحك الثلاثة، وأصلحت نانا الثوب فوق صدر جورج، ثم تأملته من الأمام والخلف بعين الخبير، وسألته هل يجد في هذه الثياب حاجته من الدفء، فأجاب بالإيجاب، وقال أنه يتمنى لو استطاع أن يرتديها دائمًا.. وجمع الثوب حول جسده وهو يتكلم.. كأنه يشعر بأن الثوب يحتفظ بشيء من شخصية نانا..

ووضعت لويز ثياب جورج المبللة حول لموقد، وتهالك الشاب على مقعد مريح.. واعترف بقوله:

– أليس في نيتك أن تتناولي شيئًا من الطعام الليلة؟ إنني أكاد أموت جوعًا..

فانبتهت نانا وقالت أن من الحماقة أن يبرح بيته وهو خاوي المعدة ليجتاز هذه المسافة الطويلة، ويسقط في المستنقع، فبحثت في البيت عن طعام ولم تجد واستنجدت بالبستاني فجاءها بحساء من الكرنب كان قد سنعه لنفسه، وتذكرت نانا أنها تزودت قبل سفرها ببعض الطعام خشية أن تتعطل بها المركبة في الطريق بين "اورليان" و"مينوت"، ثم بحثت في القصر فوجدت عددًا من زجاجات النبيذ الجيد كان ستينر قد أعدها.

ومن هذا كله تألف طعامهما.. فأكلا بنهم الوحوش الجائعة.. وشربا نبيذ ستينر.. وقالت نانا:

– الحق إنني لم أتناول الطعام بمثل هذه الشهية منذ عشرة أعوام.. وانقضى الوقت بسرعة.. وألحفت نانا على الشاب أن ينصرف حتى لا يثير ريبة أمه وغضبها، ولكنه قال أنه لا يزال لديه متسع من الوقت.. ثم إن ثيابه لم تكن قد جفت بعد..

وكانت السهرة ممتعة.. والنار تتلظى في موقد المخدع، فنهضت نانا إلى النافذة.. وأطلت منها وهتفت:

– يا إلهي.. ما أجمل السماء.. تعال وأنظر يا عزيزي.

فأطاع جورج.. ووقف بجانب نانا، وأحاط خصرها بساعده، وأسند رأسه على كتفها.

كان الجو قد تبدل.. فالسماء منبسطة أمامها صحوة.. صافية لا أثر فيها للسحب.. والقمر الساطع يحتل مكانه من صفحة السماء.. والوادي يسبح في فيض من الأشعة الممتقعة.

وكان لهذا المنظر الرائع أثره الساحر في نفس نانا. فأحست كأنها ارتدت طفلة مرة أخرى.. وعادت بها الذكرة إلى عهد طالما حلمت فيه بمثل هذه الليلة.. وخيل إليها أن جيلًا قد انقضى منذ غادرت باريس..

وطبع جورج قبلة على عنقها، وأعاد الكرة، فتفاقم اضطراب حواسها ومشاعرها، ودفعت الشاب عنها بيد مرتجفة، وقالت له أنه يجب أن يرحل، وفي هذه اللحظة.. سمعا بلبلًا يصدع في مكان قريب.. فقال جورج:

– صبرًا.. إن النور يزعج البلبل.. فلأطفئه.

وأطفأ المصباح.. وعاد إلى صاحبته وأحاط خصرها بساعده وهو يقول:

– سأضيئ المصباح بعد قليل.

وأصغت نانا إلى شدو البلبل، وأحست بأنفاس الشاب تلفح وجهها وتذكرت الماضي.

نعم.. إنها قرأت وصفًا لمثل هذا المنظر في إحدى القصص، وقد مر بها وقت كانت تضحى فيه بحياتها، لترى مثل هذا القمر، وتسمع مثل هذا البلبل.. وتحس بأنفاس شاب يعبدها كهذا الشاب.واغرورقت عيناها بالدموع، وسألت نفسها.. لماذا لم تحيا حياة أطهر وأكرم!

وأمعن جورج في جرأته، فأجابته:

–كلا يا غلامي.. إنني أوثر أن أظل منك في مكانة الأم.

وأحمر وجهها.. وشعرت بالخجل. ومع ذلك فإن السكون حولهما كان شاملًا، ولا أحد يراهما، وحاولت أن تضحك، لتستر اضطرابها، ولكن الضحكة احتبست في صدرها، عندما أمسك الشاب بيديها، وسط الظلام في ذلك البيت الهادئ.

الفصل التاسع

وفي صباح اليوم التالي، كان القوم يتناولون طعام الإفطار على مائدة مدام هيجون، حين خرج جورج من غرفته وانضم إليهم.كان شاحب اللون، مشعث الشعر، فنظرت إليه أمه قلقة مستفسرة ولما قال لها إنه لم يبرأ تمامًا من صداعه، وضعت يدها على رأسه، ومرت بأصابعها على جبينه، فانكمش،كأنما أزعجته لمستها.

وقبل أن يفرغوا من تناول الطعام، وقفت بالباب مركبة وهبط منها فوشيري وداجينيه وفانديفير.

ورحبت بهم مدام هيجون.. وشكرت الأولين على تلبية دعوة أبنها، وقالت تحدث الأخير:

– إنني دعوتك مرارًا، وكنت أنتظرك طيلة الأعوام الخمسة الأخيرة، فبأية معجزة تذكرت دعوتي؟!

فأجابها فانديفر بلهجته الطروبة وصوته المرح قائلًا أنه قامر في الليلة السابقة وخسر مبلغًا طائلًا، وقرر أن يدفن نفسه في الريف.

واستطرد ضاحكًا:

– ولن أعود إلى باريس، ما لم تسعفني بعروس حسناء، تقدم لي بأنة "دوطة" تعادل المبلغ الذي خسرته ليلة أمس.

وما هي إلا دقائق، حتى أقبلت مركبة ثانية تحمل المركيز دي شوار، فصاحت مدام هيجون:

– ماذا حدث؟! يخيل إلي أنكم على موعد للقاء هنا، لقد كنت أنتظركم جميعًا منذ أجيال.

ودعتهم لتناول طعام الإفطار، وجلس فوشير بجانب الكونتس سابين التي ما لبثت أن أدهشته بمظاهر مرحها، وجلس داجينيه بجوار ستيللا.. وعبثًا حاول أن يستدرج هذه الفتاة النحيلة الصامتة إلى الكلام.. أما فانديفر، فإنه اتخذ مكانه بجانب ربة الدار.

قالت له مدام هيجون:

– هل تعرف من هي جارتي الجديدة ؟

وذكرت اسم نانا، فتظاهر فانديفر بالدهشة وصاح:

– ماذا ؟ نانا تقيم في الريف؟ هذا نبأ جديد.

واصطنع فوشيري وداجينيه الدهشة كذلك.. أما المركيز دي شوار.. فإنه ملأ فمه بالطعام، وبدا عليه كأنه لا يلي بالًا إلى ما يقال حوله.

قالت مدام هيجون:

– نعم.. إنها جاءت أمس..

وهنا كانت دهشة الرجال حقيقية لا زيف فيها ولا تصنع.. كانوا يعتقدون أنها ستصل في اليوم التالي، وأنهم قد احتلوا الميدان قبل سواهم. وأطرق جورج برأسه، ولم يحول عينيه عن صحفة الطعام.. فسألته أمه:

– ألا زلت تتألم يا ولدي.

فأحمر وجهه، وأجاب إنه بخير، ثم عاد إلى صمته وسكونه. وعلى وجهه وفي حركاته من دلائل التعب مثلما يبدو على فتاة أسرفت في الرقص، قالت أمه:

– ما هذه البقعة الحمراء التي أراها على عنقك..

فاضطرب الشاب.

لم يكن يعلم أن شفتي نانا قد تركتا أثرهما على عنقه.

غمغم:

– هذه لدغة نملة بغير شك.

وغاص عنقه في ياقته.

دار الحديث حول نزهة يقمون بها بين الحقول.. ولم يحول فوشيري بصره طول الوقت عن وجه الكونتس سابين..

وحدث أنه قدم إليها صفحة الفاكهة، فتلامست أيديهما، وألتفت نظراتهمنا، ورأى فوشيري في عينيها السوداوين الساحرتين ما ذكره بحديث صديقه الضابط الذي مات في المكسيك. ونهض الجميع عن المائدة، وسار داجينيه وفوشيري في المؤجرة وأشار الأول إلى كتفي ستيللا المدببتين وهمس في أذن زميله كلمة على سبيل الدعابة والسخرية.. ولكنه دهش.. وتغيرت سحنته حين ذكر الصحافي باثنتها "دوطتها".. وهي أربعمائة ألف فرنك. وهطلت الأمطار بشدة بعد قليل.. فأجل القوم نزهتهم إلى اليوم التالي.. وانسحب جورج إلى غرفته.. وأغلق بابها.

واجتلب الرجال بحذر شديد كل إشارة إلى نانا ولكن ذلك لم يخدع أحدًا.. فقد كان كل منهم يعرف الغرض من قدوم زملائه. كان كل منهم يرجو أن يسبق رفاقه إلى نانا.. وكان الكونت موفات أقل الجميع صبرًا.. وأشدهم حماسة، وأفواهم أملا.

أفلم تعده ؟ ولكن لماذا عجلت بالقدوم قبل الموعد الذي ضربته؟! يجب أن يكشف السر بنفسه.. بعد ظهر ذلك اليوم؟

وعندما هبط الظلام.. وثب جورج من نافذة غرفته كما فعل في الليلة السابقة، واجتاز الحديقة مسرعًا.. وأطلق ساقيه للريح.. ولشد ما كانت دهشته حين رأي الكونت موفات يسرع الخطى أمامه في الطريق إلى قصر نانا. جمد

الشاب في مكانه، ثم قرر أن يسبق الكونت، فأمعن في الحقول واجتاز أقرب الطرق إلى قصر نانا.. ووصل إلى صاحبته وهو يلهث، ودموع اليأس والغضب تترقرق في عينيه..

قال لها والغيرة تحز قلبه أنه رأى موفات في طريقه إليها، وأنها لابد قد ضربت له موعدًا..

ودهشت نانا أول الأمر، وأزعجها غيرة الفتى.. ولكنها أحاطت عنقه بساعدها.. وهونت عليه بقولها أنها لا تنتظر أحدًا ولم تضرب موعدًا لأحد، وأن من الجنون أن يعذب نفسه بأوهام لا مبرر لها وليس لها وجود إلا في ذهنه.ثم قبلته.. وجففت دموعه، وأقسمت أنها تحبه، وقالت:

– وإذا أرت دليلًا فأعلم أن ستينر قد جاء ولكني أنبأته بأنني مريضة ولن أستقبله الليلة..

وهو الآن في غرفته، فأذهب أنت إلى مخدعي، وانتظرني هناك حتى ألحق بك. فقبل يديها، وبللهما بدموعه..

إذن فهي تحبه حقًا.. وإذن سيقضي الليلة كما قضى ليلة أمس.. وسيطفئ المصباح.. ويبقى معها في الظلام حتى الصباح!

وما كاد يصل إلى مخدع نانا حتى دق جرس الباب، ودخل موفات.. فاستقبلته نانا بمزيج من القلق والحيرة، كانت قد وعدته.. وتود أن تفي بوعدها.. ولكن من كان يتوقع أن يتسلل ذلك الغلام إلى بيتها وإلى قلبها.. فتتخذه صديقًا ؟ والآن.. كيف تتخلص من موفات؟

لقد ظلت طيلة الشهور الثلاثة الأخيرة تحاوره وتعبث به.. وتلعب دور المرأة المحتشمة.. حتى ملكت عليه لبه.. وأصبح ولعه بها.. جزءًا من كيانه.. إن في

استطاعته أن ينتظر وقتًا آخر.. وإلا فله مطلق الحرية في أن ينصرف عنها.إنها تؤثر أن يفلت من يدها على أن تخدع جورج.

وقابلها موفات كما يقابل الجار جارته في الريف.. ولم يبد عليه من دلائل الانفعال غير ارتجاف يديه.

كانت أساليب نانا قد أشعلت النار في دمه، وعصفت بهدوئه ورزانته، وفوضت هناءه وسعادته، وجعلت منه – وهو الرجل الوقور الذي اعتاد أن يمشي مرفوع الرأس في أورقة قصر التويلري – رجلًا.. سارد اللب، ضيق الصدر يقضي لياليه نهبة الحمى، والرغبة المكظومة. وقد جاءها في ذلك المساء وهو مصمم على توطيد علاته بها مهما كلفه الأمر.. فلم يكد يخلو بها.. حتى أمسك بيديها وحاول أن يحنو بها بين ساعديه.

قالت له ببساطة:

–كلا.. حذار..

فجن جنونه، وأعاد الكرة، فقالت له.. وهي تبتسم لتهون من وقع الرفض:

– مستحيل.. أن ستينر هنا.

ولكنه لم يقتنع، واضطرت نانا أن تضع يدها على شفتيه لتمنعه من الكلام..

وسمعا في هذه اللحظة وقع أقدام ستينر، ودخل الأخير.. فوجدها في أحد المقاعد، وسمعها تقول في خمول:

– أما أنا فإنني أحب الريف.

ثم نظرت إلى ستينر وهتفت:

– آه، أهذا أنت يا عزيزي، لقد كان الكونت موفات يقوم بنزهته الليلية، ورأى النور يسطع في نوافذنا فجاء لتحيتنا..

وتصافح الرجلان، وساد الصمت لحظة، ثم دار الحديث حول باريس والبورصة، وبعد بضع دقائق، استأذن موفات في الانصراف، وعاد ستينر إلى غرفته وقصدت نانا إلى مخدعها، وما كانت تغلق الباب حتى خرج جورج من وراء الستار، فضحكا، وتعانقا، بينما كان موفات عائدًا أدراجه، وقبعته في يده، ونسيم الليل يلفح جبينه الملتهب.

الفصل العاشر

وطرأ على نانا تحول عجيب.

كانت تنظر إلى الرجال جميعًا بفتور واشمئزاز، ولكن عشرة هذا الغلام أيقظت أكرم غرائزها، فعرف وجهها حمرة الخجل، وعرفت عيناها دموع الندم، وعرفت شفتاها إبتسامة السعادة، وارتدت فتاة طاهرة، تنعم بغرامها الأول.

ولأول مرة في حياتها منذ تحالفت مع الإثم وفتحت قلبها لكل طارق، وأباحت جسدها لكل عابر سبيل، بدأت تحب الطبيعة والقمر والطيور والأشجار، وتقضي الساعات الطويلة في سكون وتأمل.. وتترنم بالأغاني البريئة التي كانت تترنم بها أمها.

وتنبهت من أعماقها عاطفة الحنان.. وأوشك قلب الأم الذي يخفق بين جنبيها على الانصهار.. يوم جاءت مدام ليرا تحمل إليها ولدها، اختطفت الطفل من عمتها.. وأسرعت به إلى الحديقة لتنظر إليه وهو يلعب ويرقص.. واحتضنته.. وتدحرجت معه فوق العشب، وألبسته ثوبًا موشى بالذهب.. وأصرت على أن تكون غرفته لصق مخدعها.. وجعلت حنانها قسمة عادلة بين جورج ولويس.. وقالت أن لها الآن طفلين.. وبلغ من شعورها بسعادة الفضيلة أنها بدأت تفكر جديًا في الإقامة في الريف دائمًا.

واستمرت هذه الحياة الهنيئة أسبوعًا.. وفي كل يوم كان موفات يزورها مؤملًا.. ويغادرها يائسًا. ذلك أن نانا كانت تزداد نفورًا كل يوم من فكرة خيانة جورج، كان الفتى يحبها.. ويثق بها.. فمن النذالة والضعة أن تفجعه في حبه وثقته.

وفي اليوم الثامن.. وقفت بباب القصر ثلاث مركبات.. تحمل أولئك الذين

دعتهم نانا لزيارتها.. وكانت تعتقد أنهم أهملوا دعوتها.

وأفرغت المركبات حمولتها من لابورديت ولوسي ستيوارت وكارولين هيكي، وماري بلوند، وجاجا، وهكتور دي لافلواز.

الفصل الحادي عشر

كان وجود "نانا" على مقربة من قصر مدام هيجون.. مدعاة لقلق هذه السيدة واهتمامها.. فكانت تتسقط أنباء جارتها بدافع الفضول الذي تثيره المرأة المستهترة في نفس المرأة الشريفة، وتذكر هذه الأنباء لضيوفنا بمقل اللهجة التي تذكر بها نبأ فرار أحد الحيوانات المفترسة من "سيرك".

ثم لاحظت كيف يتبخر ضيوفها بعد الظهر واحدًا بعد واحد، فأنبهتهم بلهجة تذهب بين الجد والدعابة بأنهم يحومون حول جارتها الحسان، وراح الكونت دي فانديفر والمركيز دي شوار يدفان ينفيان التهمة عن نفسيهما، ويؤكدان أنهما يقضيان الوقت في التجوال بين الحقول.. وهذا الاتهام لم يكن في موضعه فيما يختص بداجينيه وفوشيري على الأقل.. ذلك أن الأول بدأ يلازم ستيلا كظلها منذ عرف فداحة بائنتها.. أما الثاني.. فإنه انتهز فرصة غياب الكونت موفات، وراح يتعقب الكونتس سابين ويخطب ودها ويدخل التسلية على نفسها، حتى توثقت بينهما أواصر الألفة والتفاهم.

ولم ينج من شبهات مدام هيجون، سوى الكونت موفات، الذي تدعوه أعماله إلى السفر كل يوم تقريبًا إلى "اورليان"، وسوى ولدها جورج الذي لح عليه الصداع وألزمه فراشه حتى شحب لونه وهزل بدنه..

وفي صباح أحد الأيام، انتهز القوم فرصة صفاء الجو.. وخرجوا للنزهة على ضفة النهر.وسارت الكونتس سابين وفوشيري في الطليعة،وتبعها داجينيه وستيلا.. ثم الكونت موفات ومدام هيجون.. والمركيز دي شوار والكونت دي فانديفر. وتنبه موفات إلى غياب جورج، فقالت مدام هيجون في حزن:

– إنه نهض اليوم مبكرًا، وسافر إلى "اورليان" لاستشارة الدكتور "بوتاريل".. إن صداعه يقلقني ويزعجني.

وكان فوشيري والكونتس سابين، ومن خلفهما داجينيه وستيللا.. قد سبقو الجميع، وأشرفوا على الجسر القائم فوق النهر.

فلاحظت مدام هيجون أنهم قد وقفوا فجأة، ودلت حركاتهم على التردد، فصاحت:

– تقدموا.. لماذا وقفتم؟

ولكنهم جمدوا في أماكنهم.. ولم يتحركوا.. وتحولت أبصارهم إلى جانب من الطريق ينبعث منه صوت العجلات وسنابك الجياد، ومزيج من الضحكات وفرقعة السياط.

غمغمت مدام هيجون في دهشة:

– ما معنى هذا..

وفجأة.. لاح فوق الجسر موكب يتألف من أربع مركبات.. وتبلجت الحقية لمدام هيجون فصاحت:

– إنها تلك المرأة، أرجوكم أن تواصلوا السير.. وأن..

ولم تتم عبارتها.. فقد كانت الجياد تنهب الأرض، وما لبثت المركبات أن اكتسحت الطريق. وأفسح لها القوم السبيل، ونظروا إلى هذا الموكب المهيب في فضول، ومرت المركبة الأولى، فإذا بداخلها ماري بلوند ولوسي ستيوارات وقد جلستا جلسة الأميرات. وتبعتها مركبة ثانية تحتلها جاجا.. ومخلوق آخر منكمش يقول الذين يعرفونه أنه هكتور دي لافلواز. وجاءت المركبة الثالثة، وبها لابورديت وكارولين هيكيه. ثم مركبة رابعة كبيرة تحتل نانا وستينر مقعدها الخلفي، ويجلس جورج قبالتهم في المقعد الأمامي.

همست الكونتس سابين في أذن فوشيري:

– هذه نانا أليس كذلك؟

ومرت المركبة الأخيرة على مقربة منها.. حتى مست ثوبها ولكنها جمدت في مكانها ولم تتحرك..

وتبادلت المرأتان – نانا وسابين– نظرة سريعة فاحصة من تلك النظرات الخاطفة التي يقيس بها الإنسان غريمه قبل أن يبطش به.

واحتفظ داجينيه وفوشيري بهدوئهما، وبرودهما، ولم يبد عليهما أنهما يعرفان أحدًا من الذين مروا بهما.

أما المركيز دي شوار.. فإنه أشاح بوجهه.. كأنه يخشى أن تعرفه إحدى أولئك الممثلات.

وأما الكونت موفات، فقد جمد في مكانه لحظة وهو شاحب اللون مرتجف اليدين، ثم هز رأسه بعد قليل، كأنما ليطرد عن أذنيه دوي هذه المركبات التي تبتعد بقطعة من ذات قلبه.

ولم تعرف مدام هيجون ولدها جورج في أول الأمر ولكن الفتى حاول في ذعره أن يتوارى في ثوب نانا.. فلفت إليه الأنظار.. ولم تغنه المحاولة شيئًا.

وهكذا مر هؤلاء القوم بعضهم ببعض دون أن يجسروا على الكلام أو تبادل التحية.

وعندما نظرت نانا وراءها.. وجدت القوم واجمين كأن على رؤوسهم الطير.. ورأت مدام هيجون تستند بكل جسدها على ساعد الكونت موفات.

وأطلت نانا من المركبة وصاحت بلوسي:

– هل رأيت فوشيري ؟ حقًا إنه رجل مؤدب.. إنه لم يتكرم علينا حتى بالتحية.. وداجينيه.. ذلك الوغد الذي طالما أحسنت إليه.. لقد بدا عليه كأنه لم يرنا قبل الآن.

فصاحت لوسي:

– وتلك المخلوقة الطويلة.. من هي؟

فأجاب ستينر:

– إنها الكونتس سابين.

فهتفت نانا:

– آه.. هذا ما ظننته.. ولكنها ليست شيئًا مذكورًا هذه الكونتس.. إن لي عينين مبصرتين.. وقد قرأت هذه الكونتس كما اقرأ كتابًا مفتوحًا.. نعم.. ليس من يستطيع أن يقرأ المرأة.. سوى امرأة مثلها.

فهز ستينر كتفيه ولم يجب. كان ضيق الصدر في ذلك اليوم، فإنه تلقى من أحد أعوانه برقية أزعجته.. وفضلًا عن ذلك فإنه ليس مما يسر الإنسان على كل حال إن يقضي الليل في مقعد بقاعة الاستقبال، وهتفت نانا فجأة، وقد هالها شحوب جورج:

– وهذا الفتى المسكين!!

فسألها جورج بصوت خافت:

– هل تعتقدين أن أمي عرفتني؟

– عرفتك؟ طبعًا. إنها هتفت باسمك وسقطت بين ساعدي الكونت موفات.. ولكن الذنب ذنبي.. فإنني التي أرغمتك على مرافقتنا في هذه الرحلة، أصغ إلي يا جورج، هل تريدني على أن أكتب إلى أمك؟ لقد رأيت على وجهها دلائل النبل والوقار.. سأكتب إليها وأقول لها إنني لم أرك قبل الآن، وأن ستينر اصطحبك اليوم إلى بيتي لأول مرة.

فأجاب جورج وقد زاد قلقه:

–كلا.. كلا، لا تكتبي إليها سأعالج الموقف بنفسي.. وإذا ضايقوني، فإنني أترك البيت ولا أعود إليه.

واستغرق في التفكير، وراح يعصر ذهنه في البحث عن أكذوبة تنقذه.. وواصلت المركبات سيرها، والنساء يتنادين ويتحدثن بأصوات مرتفعة، وضجيج المركبات يغرق أكثر الحديث.

صاحب جاجا وقد أنهكها اهتزاز المركبة:

– يا إلهي.. متى نصل؟!

كانوا في طريقهم لزيارة قصر "شامون" وخرائب الدير الأثري المعروف بهذا الاسم..

فأجابت نانا:

– سنصل بعد بضع دقائق، هل ترين تلك الأبراج المطلة من وراء الأشجار؟! إنها أبراج القصر.

ثم استطردت بعد قليل:

– لا شك أنكم لا تعلمون أن صاحبة هذا القصر كانت من أبرز الغانيات في عهد نابليون.. ولكنها أصبحت الآن امرأة تقية ورعة.. لا تعرف غير الكنيسة ولا تختلط بغير رجال الدين.

فسألتها لوسي:

– وما اسمها؟!

– اسمها مدام دانجلار.

فصاحت جاجا:

– إيرين دانجلار!! إنني أعرفها.

وعلى إثر هذا التصريح.. تطاولت الأعناق من نوافذ المركبات.. وارتسمت علامات الفضول على وجوه النساء، وانهالت الاسئلة على جاجا.

واستطردت جاجا :

– نعم، إنني أعرفها، كنت في مقتبل العمر في ذلك العهد ولكني رأيتها مرارًا في مركبتها الفخمة.. وكان الناس يتناقلون أغرب القصص عن تبذلها واستهتارها، ولا يدهشني

إنها تملك الآن قصرًا.. فقد كانت مضرب الأمثال في الشح والتقتير، يا إلهي إذن فايرن دانجلار لا تزال على قيد الحياة!! لا شك إنها الآن قد تجاوزت سن التسعين، فذهلت نانا وزميلاتها.. تسعون عامًا!! كلا.. ليس بينهن من تريد بلوغ هذا السن..

ووقفت المركبة عند بقعة جرداء، لا نبات فيها ولا ماء، وأشار أحد السائقين إلى خرائب دير شامون، فهزت النساء اكتافهن، ولم يكتمن خيبة أملهن..كن يتوقعن بعد هذه الرحلة الشاقة شيئًا آخر غير هذه الأحجار المبعثرة هنا وهناك.

وأشار السائق إلى طريق ينحدر وراء الدير.. وقال أنه يؤدي إلى قصر شامون، والقرية الصغيرة التي تحيط به.

وصحت عزيمة القوم على شهود هذا القصر، فاجتازوا الطريق الذي أشار إليه السائق، ونفذوا من باب حديدي كبير، يؤدي إلى حديقة مترامية الأطراف، تخترقها صفوف من الأشجار الفارغة لا تدرك العين آخرها.

قالت جاجا:

– حقًا، يخيل إلى أن إيرين دانجلار قد عرفت كيف تعمل لدنياها؟ ولم يكتم القوم إعجابهم بالأشجار الباسقة التي تتعانق أغصانها فوق رؤوسهم وواصلوا السير حتى انتهوا إلى باب حديدي آخر، ما كادوا ينفذون منه حتى ترامى أمامهم طريق آخر أطول من الأول وأكثر اتساعًا، وأحفل بالأشجار الباسقة.

وأدهشهم السكون المطلق الذي يسود المكان.. وبدأوا يتحدثون عن إيرين دانجلار بمزيد من الإعجاب والاحترام.

ومازالوا ينفدون من باب إلى باب.. ومن طريق إلى طريق.. حتى كلت أقدامهم وتساءلوا.. أليس لهذه الحدائق آخر ؟

وانتهوا أخيرًا إلى سور حديدي ضخم.. تترامى وراءه قطعة أرض فسيحة

يتوسطها قصر شاهق.. أبيض الجدران.. متعدد الشرفات.. قالت جاجا وهي تلهث من التعب:

– أليس من الحماقة أن تقطع هذا الشوط لشهود هذا القصر؟!

ولكن نانا أسكتتها بنظرة. وهمست:

– صه.. أنظري..

وأشارت إلى امرأة طويلة القامة مهيبة الطلعة.. يكلل رأسها تاج من الشعر انصع بياضًا من الثوب الحريري الذي ينسدل على جسدها ويحتك ذيله بالأرض.وكانت هذه المرأة قد برزت فجأة من أحد أركان القصر، ويممت شطر السلم الرخامية الفسيحة المؤدية إلى باب القصر، يتبعها عدد من الرهبان وجمع حاشد من القرويين والقرويات.

صاحت جاجا:

– هذه إيرين دانجلار.. لقد عرفتها.

وأخذت السيدة ترقى السلم في وقار ومهابة.. كما ترقى الملكة درجات عرشها.. ولما وصلت إلى نهاية السلم.. دارت على عقبيها ببطء.. ونظرت إلى الذين يتبعونها.. فأحنى الرهبان رؤوسهم في احترام.. وهرول بعض القرويين والقرويات لتقبيل يدها. ثم فتح باب القصر وأغلق.. وغابت إيرين دانجلار وراءه.

غمغمت لوسي:

– هذا جزاء الفضيلة!

وقالت جاجا بلهجة الإعجاب:

– إنها لا تزال تحتفظ بقوتها.. وبمسحه من جمالها الغابر.

وراح كل منهم يدلي برأيه في إيرين دانجلار، واتفقت الآراء جميعًا على أنها سيدة جديرة بالاحترام والتوقير.

ولم تنبس نانا بكلمة.. ولزمت الصمت طول الطريق.. ولوحظ عليها أنها حولت رأسها مرارًا لتلقي نظرة أخرى على قصر شامون.

تركت تلك الزيارة في نفسها أثرًا عميقًا.. كان بمثابة نقطة التحول في حياته.. وانطبعت في ذهنها صورة تلك الخاطئة القديمة التي علمت لدنياها ولم تنس آخرتها.. وتجلى تأثرها بتلك الزيارة في أحاديثها وتصرفاتها في ذلك المساء.. فلما وصلت إلى قصرها.. وانفردت بجورج.. راحت تلح عليه في أن يعود إلى أمه.. ويطلب صفحها إبقاء على الصلة بينهما.. وهي في نظرها أعز وأطهر من صلة العاشق بعشيقته.

وأراد جورج أن يحتج، ولكنها أسكتته بنظرة صارمة وقالت له:

– يجب أن تطيع أمك... وأن تلتمس رضاءها إذا أردت رضاي..

وأدهشت ضيوفها حول مائدة الطعام بأحاديثها عن الدين والفضيلة وبرغبتها في أن تنظم حياتها من جديد.. وأن تنشئ ولدها نشأة طيبة فاضلة.

ولما ضحكوا ساخرين، لم تعبأ بسخريتهم ومضت تقول إن الادخار هو خير الفضائل.. وأنها لا تنوي قضاء أيامها الأخيرة في أحد الملاجئ، ولما سألها ضيوفها عما تعني بهذا الكلام.. هزت رأسها ولم تجب، بجنايتها على هذا الفتى، وقررت أن تعمل لدنياها، وأن تتخذ موفات عشيقًا.. فذلك أجدى عليها، وأروح لضميرها.

قالت لوصيفتها:

– احزمي حقائبنا، سنعود غدًا إلى باريس.

**

الفصل الثاني عشر

في إحدى الليالي.. بعد ثلاثة شهور، كان الكونت موفات يسير جيئة وذهابًا في شارع "بانوراما".. حيث يوجد الباب الخلفي لمسرح "الفاريتيه"..

منذ ثلاث ساعات وهو يتجول في هذا الشارع، ولا يرى شيئًا مما يقع تحت بصره.. ولا يحول عينيه عن باب المسرح.كان يفكر في "نانا" ويسأل نفسه.. لماذا تعمدت أن تخدعه، لقد كتبت إليه في الصباح ترجوه ألا يزورها في تلك الليلة.. لأن ولدها مريض في "باتينول" وهي تنوي زيارته.. وتوفير أسباب العناية به، ولكنه ارتاب في صدقها وقصد إلى بيتها في الموعد المألوف.. فأنبأه البواب أنها ذهبت إلى مسرح "الفاريتيه".

ودهش الكونت، ولدغته عقارب الغيرة..كان يعلم أن مسرحية "فينوس الشقراء" قد سحبت أخيرًا.. وأن "نانا" لا تمثل في المسرحية الجديدة، فلماذا كذبت عليه إذن ؟ ولماذا ذهبت إلى "الفاريتيه" في ذلك المساء ؟

ومر الوقت ببطء، وهو يسير في ذلك الشارع الضيق، ويشيح بوجهه كلما مر به عابر سبيل وخشى أن يعرفه..

لا شك أن نانا قد تغيرت كثيرًا، وأن صلتها به قد أدركها الفتور في المدة الأخيرة..كانت بعد دعوتها إلى باريس.. قد سيطرت على حواسه بفتنتها وملكت عليه لبه بقبلاتها ،حتى صار عبدًا في الفردوس الذي طالما حلم به.. ولم يكن هناك ما يسمم سعادته.. سوى صلة نانا المستمرة بستينر، ولكنه كان يعلم أن هذا الممول اليهودي يقتل نفسه لإشباع نهم نانا إلى المال.. وأن نانا لا تستطيع أن تنفض يدها منه بغتة بعد كل هذا الذي فعله من أجلها.

أما جورج.. فقد حبسته أمه في قصرها الريفي، وأحاطته بالرقابة وحبست عنه المال.. فزال خطره كمنافس يجب أن يحسب له حساب، وقد قضى موفات الشهور الثلاثة الأخيرة فيما يشبه الحمى، فهو لا ينظر إلى المستقبل ولا يفكر في الماضي، ولا يقيم وزنًا لشيء في الحياة لا يتصل بنانا..

كانت يقظة غرائزه في تلك السن المتأخرة من العنف بحيث طغت حواسه على عقله.. وأصبحت صلته الأثيمة بنانا هي السعادة التي لا يطمع من دنياه في أكثر منها، فلما أحس بفتور هذه الصلة اضطراب ظهرًا لبطن، وحاسب نفسه حسابًا عسيرًا عما يمكن أن يكون قد بدر منه فأغضب نانا، كان يعلم أن أجهل الناس بأخلاق النساء.. وإنه ربما قد أغضب نانا عن غير قصد.. ولكن أما كان في استطاعتها أن ترده إلى الصواب إذا أخطأ.. وأن تقبل عثرته إذا تعثر ! وأنه يفكر في كل هذا، ويضرب أخماسًا لأسداس، إذا به يرى نانا تخرج من باب المسرح، وتوسع الخطى في ذلك الشارع الضيق. وثب قلبه بين ضلوعه وأسرع إليها.

ولمحته نانا، فجمدت في مكانها، وامتقع لونها، وغمغمت:

– أهذا أنت..

ونظرت إليه طويلًا، ثم تنهدت وقالت في ضجر:

– دعني أتأبط ساعدك.

وسارا جنبًا إلى جنب، وفتش موفات في ذهنه عن واحد من عشرات الأسئلة التي كانت تتحير على لسانه قبل قدومها، ولم يجد.. وفهمته نانا قبل أن يفهم نفسه، وقدمت إليه الإيضاح الذي يتحرق شوقًا لسماعه.. فقالت له إنها زارت ولدها، ووجدته أحسن حالًا، فعادت أدراجها، وذهبت إلى المسرح. سأل:

– هل ذهبت لأمر ذي بال؟!

فأجابت بعد تردد قصير:

– نعم.. إنهم طلبوا رأيي في إحدى المسرحيات الجديدة.

وشعر موفات بأنها تكذب، ولكنه أحس في ذات الوقت بحرارة ساعدها ونعومته.. فنسى ريبه وشكوكه.. والساعات الطويلة التي قضاها في انتظارها.. وقنع بسعادة لقائما.. وشعوره بحرارة جسدها.. ولكن نانا كانت مقطبة الجبين.. بادية القلق والذهول.. شأن من يفكر في أمر جلل ويتردد قبل أن يقدم عليه.. وقفت أمام متجر للمجوهرات وهتفت:

– أنظر.. ما أجمل هذا العقد..

ثم أردفت وهي تصطنع قلة الاكتراث:

– هل في نيتك أن ترافقني إلى البيت؟

فأجاب في دهشة:

– بغير شك.. أن ابنك أحسن حالًا.. أليس كذلك ؟

فأرادت أن تنقض كلامها.. ثم ترددت.. وقالت أنها لا تزال تشعر بالقلق.. وتود الذهاب إلى "باتينول" للاطمئنان.. ولما أصر على مرافقتها.. عدلت عن هذه الفكرة.. وراحت تبحث عن وسيلة أخرى للتخلص منه.. شعرت بأنها وقعت في قبضته وتميزت غضبًا.. ولكن لم يكن بوسعها إلا أن تلاطفه.. وإلا أن تتخلص منه بالحسنى.. سألته:

– ألم تعد "سابين" بعد ؟

فأجاب ببرود:

– كلا.. إنها تعود غدًا.

وضايقه أن تتحدث نانا عن زوجته هكذا بغير كلفة.

قالت نانا:

– أنظر إلى هذا العقد.. ما أجمله !

كانت في صباها تقضي الساعات الطوال أمام هذه الحوانيت، وتود لو تضحي بكل شيء حتى عفافها، في سبيل قطعة واحدة من هذه المجوهرات الثمينة لتي تتألق وراء الزجاج ،ولكنها كانت في تلك الليلة فاترة الحماسة.. تنظر إلى المجوهرات ولا تراها..كانت مغضبة، لأنها لا تستطيع أن تنعم بحريتها.. وكان عليها أن تبذل جهدًا كبيرًا.. لكي تملك نفسها.. فلا يدفعها الغضب إلى ثورة تندم عليها فيما بعد..كانت تريد أن تتخلص من موفات قبل منتصف الليل، بأي ثمن، ثم إنها كانت بحاجة إلى المال..كانت نقود الأمير الروسي.. ونقود ستينر.. قد ذابت جميعًا كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس.

وعلى الرغم من إنها باعت قصر "مينوت" فإنها لم تتمكن من تأثيث بيتها في شارع "هوسمان" على النحو الذي تريده.. واشتد عليها ضغط الدائنين في الأيام الأخيرة، حتى صارت حياتها لا تطاق، ولكن ماذا في استطاعتها أن تفعل؟!

إنها أصبحت لا تحصل من ذلك التعس "ستينر" على ألف من الفرنكات إلا كلما هددته بالطرد إذا جاءها بغير هذا المبلغ.. أما هذا المغفل موفات.. فإنه يتوهم أنها تحب سواد عينيه.

يا إلهي.. كم أصبحت تنفر من الرجال.. وكم يسرها أن تنقض يدها منهم جميعًا.. لولا شعورها بأنهم مطيتها إلى الثروة والجاه؟

نعم.. إن الرجال سبيلها إلى المال.. ذلك ما قالته "لويز" في ذلك الصباح، وذلك ما علق بذهنها من زيارة القصر "شامون".. وذلك ما تقوله هي الآن لنفسها،

لكي تعتصم بالصبر.. وتكظم غيظها.. ولا تصارح موفات برأيها فيه.

ومرا في طريقهما بمطعم "ريتز" فقالت نانا:

- إنني لم اتناول طعامًا اليوم.

كانت تريد أن تكسب الوقت بكل وسيلة.. علها توفق إلى حيلة الخلاص من موفات قبل أن تصل إليه بتها، ولم يسع موفات إلا النزول على إرادتها، ولكن كان يهمه في ذات الوقت ألا يراه أحد معها.. فدخل المطعم مسرعًا.. ونفذ إلى إحدى الغرف الخاصة.وسارت "نانا" في إثره.. وهي تمشي مشية من يعرف موطئ قدميه، ولكنها ما كادت تتقدم بضع خطوات داخل المطعم حتى وجدت نفسه وجهًا لوجه أمام داجينيه.

وهتف الشاب وهو يضحك:

- أهذه أنت يا نانا ؟

وكان موفات قد توارى في الغرفة.. ولكن داجينيه لمحه وهو يغلق الباب، فغمز بعينه، وغمغم:

- أنت تصعدين بسرعة يا عزيزتي.. إنك الآن تختارين أصدقائك من بين حاشية الإمبراطورية.

فابتسمت نانا.. ووضعت أصبعها على شفتيها محذرة..

سرها أن رأته.. فقد كانت لاتزال تعطف عليه.. رغم ما بدا من نذالته يوم تنكر لها ورفض أن يحييها في "لافونديت".

- إنني لا أعلم ما صار إليه أمرك.

فأجاب وهو يضحك:

– لقد تبدل رأيي في الحياة.. وبدأت أفكر جديًا في الزواج.. والاستعانة ببائنة زوجتي على إصلاح شأني.

فابتسمت نانا بارتياب وسألت:

– وماذا كنت تصنع هنا ؟

– كنت أتزود من متع الشباب.. قبل أن أودع حياة العزوبة.

وضحكا.. وقالت نانا فجأة:

– هل قرأت مقال "فوشيري" في جريدة "الفيغارو"؟

– المقال الذي كتبه عنك بعنوان "الذبابة ذات الأجنحة الذهبية"؟!

نعم.. إني قرأته.. ولكني لم أشأ أن أتحدث إليك عنه.. خشية أن يكون قد أزعجك.

فهتفت نانا:

– أزعجني ؟ ولماذا يزعجني ؟ إنه كان مقالًا طويلًا.

كانت تشعر بالفخر والخيلاء لأن الجريدة أفسحت لها كل هذا الفراغ.. ولكن مما لا شك فيه.. إنها ما كانت تشعر بهذا المقال.. وتعلم أنها المقصودة به، لولا أن لفتها حلاقها "فرنسوا" ،لأن المقال كان خلوًا من اسمها..

وأصغى إليها داجينيه وهي تتحدث عن طول المقال، وارتسمت على شفتيه ابتسامة تهكم، وقال:

– ما دام المقال يسرك.. فيجب كذلك أن يسر أصدقاءك.

ثم غمز بعينه واستطرد:

– والآن إلى اللقاء، لا أريد أن أعوقك، فصديقك ينتظرك.. وضحك ساخرًا..

فدهشت وهتفت:

- صبرًا لحظة.. لماذا تسخر منه؟

- لأنه يستحق السخرية..

فاستندت نانا إلى جدار المطعم، قالت:

- ماذا تعني بحق السماء؟

- ماذا أعني ؟ ألا تعلمين؟!

واقترب منها وهمس:

- إن زوجته اتخذت فوشيري صديقًا لها، وأعتقد أن صلة بينهما توطدت في الريف، وقد تركني فوشيري وانصرف منذ لحظة، وأظنة على موعد معها، وأنه حدثني كيف خدعت الكونتس زوجها، وأوهمته بأنها سافرت لزيارة إحدى قريباتها.

فذهلت نانا، وصمتت وقتًا طويلًا، كأنما لتهضم هذا النبأ، ثم قالت بحماسة:

- ذلك ما توقعته منذ رأيتها على الجسر، يا إلهي، كيف يمكن أن تخون المرأة الشريفة زوجها من أجل رجل كفوشيري!

- فغمغم داجينيه في خبث:

- لا أظن أن هذه هي خطواتها الأولى عبر الحدود.

فصاحت نانا باشمئزاز:

– أحقًا تقول، ما أعجب هذه الدنيا، وما أعجب أهلها! إذن فأمرأته تخونه، لقد كنت دائمًا أحتقر الرجل الذي تخونه امرأته.

وقلبت شفتها باحتقار.

ولكنها ما كادت تلحق بموفات، وترى شحوب وجهه وارتجاف يديه، حتى استحال احتقارها إلى إشفاق، وهمت بأن تحيط عنقه بساعدها، وتلاطفه، وتهون عليه.. إنه يستحق هذا، لأنه جاهل لا يفهم النساء، ويجب أن يتعلم درسًا، ولكنها مع ذلك كانت تشفق عليه.. فلم تتركه بعد الطعام كما كان في نيتها أن تفعل..

ولما وصلا إلى بيتها.. تحدثت إليه في رفق، وحاولت أن تشعره بأنها متعبة.. وأنه يحسن به أن ينصرف.ولم تنس عندما دخلت أن تهمس في أذن لويز:

- إنه سيأتي فاحجزيه حتى يصرف الكونت..

فسألت لويز: ولكن أين أذهب به يا سيدتي ؟

- اذهبي به إلى المطبخ.. إنه أصلح مكان لإخفائه.

ثم لحقت بالكونت في مخدعها.

الفصل الثالث عشر

كانت نانا تعبد جسدها، وكثيرًا ما قضت الساعات أمام مرآتها.. تتأمل ذلك الجسد الفاتن، وتعجب بثناياه.. تتحسس تعاريجه، ففي تلك الليلة.. أضاءت الشموع المحيطة بالمرآة وهمت بعبادة جسدها كما اعتادت أن تفعل في أكثر الليالي، وكلنه دارت على عقبيها فجأة كأنها تذكرت أمرًا وقالت:

– هل قرأت مقال "الفيغارو"؟ إن الجريدة فوق المائدة.. فاقرأ المقال، وحدثني برأيك.

ثم تحولت إلى المرأة.. وأخذت تخلع ثيابها.. وتناول موفات الجريدة، وبحث عن المقال، وشرع يقرأه ببطء وإمعان. كان عنوان المقال "الذبابة ذات الأجنحة الذهبية" وفيه يتحدث فوشيري عن غانية حسناء انحدرت من أبوين سكيرين، فجرى الفساد المورث في شرايينها مجرى الدم، وترعرعت على الأرصفة طويلة مديدة القامة، فاتنة الجسم والوجه، كما تترعرع الطفيليات في الأقذار.. واكتملت أنوثتها.. وأحست بفتنتها.. فجعلت رسالتها في الحياة أن تثأر لأسلافها وأمثالها، وصارت قوة من قوى الطبيعة وعنصرًا من وسيلة الهدم والتخريب، تسمم الجو بأنفاسها المعطرة.. وتتخذ الحب وسيلة لعصر الجيوب، ونزح الدماء من القلوب.. غانية فاتنة أشبه بذبابة ذات أجنحة من ذهب، تحمل السم من الجيفة وتستبيح القصور، لتبهر أصحابها بأجنحتها، وتقتلهم بسمها.

قرأ موفات هذا المقال.. وترك المقال.. وترك الجريدة.. ونظر إلى الموقد بعينين ذاهلتين.. فسألته نانا:

– ماذا وجدت ؟

ولكنه لم يجبها.. وتناول الجريدة مرة أخرى، وشرع يقرأ المقال من أوله.

كان مقالًا بارعًا.. بأسلوب ينطوي على الدهاء والسخرية فقرأه موفات للمرة الثانية وأحس برعدة تزحف في جسده ونظر إلى نانا.. وهي تتأمل جسدها في المرآة.. وتقبض على صدرها البارز وتداعب خدها الناعم.. بكتفيها الناعمة.. نظر إليها.. وامتلأ قلبه ذعرًا.. واستيقظت في تلك اللحظة إحساسات كانت هاجعة في أعماقه طيلة الشهور الثلاثة الأخيرة.. فرأى ما لم ير من قبل.. واحتقر نفسه، لقد قوضت هذه المرأة حياته.. وعصفت بسعادته العائلية.. وهدمت كرامته.. وجعلته سخرية الساخرين وعبرة المعتبرين.ولم يستطع أن يحول عينيه عنها.. ولا أن يخنق صيحة الاشمئزاز التي ارتفعت من أعماق ضميره.. حين رآها تعبد جسدها كما يعبد الوثني صنمه.

وتذكر كيف كان في شبابه يفزع من النساء.. كما يفزع من ذكر الشيطان.. وأغمض عينيه.. ورأى نانا ببصيرته كما لم يرها بباصرتيه.. رأى شيطانًا في جسد أشد نعومة من الرخام.. وأشد حرارة من نار الجحيم، وعندما فتح عينيه.. وجدها تبتسم لنانا أخرى تطل عليها من المرآة، وثب نحوها.. واحتواها بين ساعديه.. وضمها إلى صدره بعنف فصاحت:

– دعني.. إنك تؤلمني.

وشعر بقساوته.. ووحشيته.. فتركها.. وأصغى إلى تعنيفها وهو مطرق برأسه، ولكنها هدأت أخيرًا.. وبدأت ترجو أن يتركها وينصرف، ولكنه بقي في مكانه.. فتهالكت على الأرض أمام الموقد.. وسألته عن رأيه في مقال فوشيري فأجابها في حرص وحذر خشية أن يغضبها ويخدش شعورها.

قالت له فجأة:

– إذن فستعود زوجتك غدًا!

فأطرق برأسه ولم يجب.

سألته:

– هل اقترنت بها منذ وقت طويل؟

فأجاب:

– منذ تسعة عشرة عامًا.

– منذ تسعة عشرة عامًا؟

– وهل أنتما سعيدان؟

فصمت لحظة.. ثم قال متذمرًا:

– لقد رجوتك أن تتجنبي الحديث عنها.

فصاحت:

– ولم ؟ أنا لا أظن أن حديثي عنها يؤذيها.. وبعد.. يجب أن تعلم يا صديقي أن النساء جميعًا من طينة واحدة.. وأن لكل منهم ثمنها.. و.. وصمتت.. وخافت أن تكون قد صرحت بأكثر مما ينبغي.. ثم رفعت رأسها بكبرياء.. وشعرت بنبلها وكرم خلقها.. لأنها لم تثل أكثر مما قالت.

نعم.. إن من الرحمة ألا يفاجأ هذا الرجل المسكين بنبأ الكارثة التي نزلت بعرضه..

قالت وهي تنظر إليه في خبث:

– وما صلتك بامرأتك في هذه الأيام؟

فقلب الكونت شفته، وغمغم:

– إنها جبل من ثلج..

– وأنت لذلك تحبني، أليس كذلك؟!

فأطرق برأسه علامة الإيجاب.

وضحكت نانا وقالت:

– هذا ما توقعته.. أصغ إلي.. هل تعرف عمتي مدام ليرا؟؟ دعها تسرد عليك قصة جارها الموظف وزوجته.

يا إلهي.. إن نار الموقد تشوي جسدي..

وابتعدت قليلًا.. وأدارت جانبها الأيسر نحو الموقد..

قال موفات وهو ينظر إليها بإنعام:

– وما قصة هذا الموظف؟!

– آه.. نعم.. كانت لهذا الموظف امرأة تقابله بالفتور والصد فاعتقد أنها جبل من ثلج.. وراح يغشى مطارح اللهو.. ويبحث عن مسراته في

الخارج، بينما لم تكن زوجته في علاقاتها بأصدقائها من الرجال شديدة الفتور والبرود كما توهم، وهذا يحدث دائمًا كما تعلم.. أو كما يجب أن تعلم.

فانقلبت سحنة موفات، ونظر إليها بعينين يتطاير منهما شرر الغضب.

قالت:

– إن الخطأ خطأكم أيها الرجال.. فلو عاملتم نساءكم باللطف والتسامح ودماثة الخلق كما تعاملوننا.. ولو بذلت نساؤكم بعض الجهد للاحتفاظ بكم كما نبذل.. إذن لوجدت السعادة طريقها إلى كل بيت.. وأصبحت الحياة الزوجية نعمة لا نقمة.

فقال لها بغلظة:

– دعي الكلام عن النساء الشريفات، فإنك لا تعرفين عنهم قليلًا أو كثيرًا.

فنهضت نانا على ركبتيها بسرعة وصاحت:

– لا أعرف عنهن قليلًا أو كثيرًا؟! إنني أعرف على الأقل أن نساءكم الشريفات لسن دائمًا فوق الشبهات.

ونظرت إليه اللبوة الثائرة.. فعض على ناجذيه، وكظم غضبه، ولكنها كانت قد ثارت.. وامتقعت، فرمقته بنظرة طويلة فاحصة ثم قالت بصوت واضح وبارد:

– ماذا تفعل لو خدعتك زوجتك؟

فنظر إليها مهددًا، واستدركت بقولها:

– بل هب أنني خدعتك.

فهز كتفيه بوقاحة، وغمغم:

– أنت..

وقلب شفته باحتقار.

وجن جنون نانا، وشعرت كأنه صفعها.

وصاحت:

– أصغ إلي، إنك لا تطاق، وقد أضجرتني ساعتين كاملتين، بل أضجرتني ثلاثة شهور، فاذهب إلى زوجتك، إنها مع فوشيري.. وستجدهما معًا في شارع بروفانس، وأنا أقدم إليك العنوان هدية بغير مقابل.

وهدر موفات كالثور.. فلم تعبأ به، ومضت تقول:

– هل من شيم النساء الشريفات أن يقتنصن أصدقائنا؟! إنك أضجرتني بحديثك عن نسائكم الشريفات.

وأرادت أن تسدد إليه المزيد من الطعنات.. ولم يتسع لها الوقت فقد وثب عليها موفات كالنمر، ودفعها بقوة فسقطت على الأرض.. ورفع قدمه فوقها، كأنه يريد أن يسكتها بتهشيم رأسها.

وذعرت نانا.. وانكمشت.. وغاصت في مكانها.. وأخذ موفات يسير في الغرفة جيئة وذهابًا.. وهو يزمجر.. ويلتقط أنفاسه بصوت مسموع.

وأحست نانا بالآمة الصامتة.. ورأت اضطرابه وانقلاب سحنته.. وكفاحه في سبيل الهواء الذي يتنسمه.. فحز منظره في قلبها.. وأخذتها الشفقة به.. وأرادت أن تهون من وقع الصدمة فقالت:

صدقني يا عزيزي.. لقد ظننت أنك تجهل هذا.. لولا ذلك ما نطقت بكلمة واحدة.

أنا لا أعلم أكثر مما يقوله سائر الناس.. ولكن ذلك لا يسبب شيئًا.. ثم إنني لا أجد معنى لكل هذا الانزعاج.. ولو كنت رجلًا لاجتنبت سائر

النساء.. إنهن جميعًا من ذات المعدن.. ولا فضل لواحدة على أخرى، وكانت تتكلم بصيغة التعميم لترفه من قسوة الصدمة.. ولكنه لم يصغ إليها.. واستمر يسير في الغرفة كالوحش الحبيس حتى إذا بلغ الباب فتحه وانصرف.

فصاحت نانا في غضب:

– حقًا إنه جم الأدب.. لقد خرج وأنا أتحدث ليه.. لأنقذ شعوره.. وأرد عليه كرامته.. إنه مغفل.

ثم جعلت تربت كتفيها العاريتين، واستطردت:

– وهل الذنب ذنبي إذا كانت امرأته تخونه؟؟

الفصل الرابع عشر

كان المطر يهطل بشدة.. عندما غادر موفات بيت نانا.. فاضطر الرجل أن يبطئ في سيره حتى لا تزلق قدماه على الأرض المبللة.وأخذ يحدث نفسه بصوت مرتفع.. لقد كذبت هذه البغى، وصدرت في قصتها الحمقاء عن قساوة وغباوة.. وقد كان ينبغي عليه أن يهشم رأسها.. حين كانت رأسها تحت قدمه.

كلا.. كلا.. إنه لن يراها بعد اليوم.

وتنهد بارتياح.. وشعر بأن عبئًا ثقيلًا قد أزيح عن صدره.. وبأنه قد تخلص إلى الأبد من هذه المخلوقة التي تشوي جسدها أمام الموقد كالأوزة.. هذه اللبوة المفترسة التي لا تتورع عن الكذب والبهتان.. لتدنس شرفه.. وتلوث بالوحل تراثًا كريمًا كان موضع احترامه وفخره أربعين عامًا.

ولكن كلمات نانا كانت لاتزال ترن في أذنيه، فأنّ أنين الحيوان الجريح.. وهتف من أعماق قلبه:

– يا إلهي.. لم يبق لي شيء في الحياة:

وحاول أن يعتصم بالهدوء.. ليفكر ويستعرض الحقائق.

كان من المتفق عليه أن تعود سابين في اليوم التالي، ولكن.. هل ثمة ما يمنعها من أن تقدم عودتها يومًا تقضيه مع ذلك الرجل ؟!

وبدأ يذكر بعض أشياء وقعت في قصر مدام هيجون.. ولم يعرها انتباهًا في ذلك الوقت.تذكر مثلًا.. إنه وجد سابين في أحد الأيام في حالة من الاضطراب عجزت معها عن الكلام.. والرد على أسئلته.. وقد كان ذلك "الرجل" هناك في ذلك الوقت. فلماذا يبدو وجودها معه في هذه اللحظة مستحيلًا ؟!

وفكر طويلًا.. وانتهى من تفكيره إلى أنه من المحتمل بل من المؤكد أن زوجته كانت ترتمي في أحضان عشيقها.. في الوقت الذي كان يرتمي هو فيه تحت قدمي تلك البغي.وهل أبسط أو أقرب إلى المنطق من ذلك ؟

وغلبه البكاء فتوارى عن عيون المارة في زقاق مظلم.. وأطلق العنان لدموعه.. وهو يردد بين الفينة والفينة بصوت اليائس:

– انتهى كل شئ.. ولم يبق لي شئ في الحياة..

وكان مستندًا إلى باب أحد المنازل، وجسده كله يهتز مع آهاته وتنهداته.

حين سمع فجأة وقع أقدام تقترب، فلاذ بالفرار وسط الظلام.. وما زال يسير في الظلام وينتقل بين الشوارع على غير هدى، حتى وجد نفسه فجأة في "مونمارتر" والمصابيح القوية تسطع في عينيه المليئتين بالدموع، فرجع أدراجه إلى الشوارع المظلمة.. ليخفي شقاءه من عيون البشر..

ولا شك أنه رغم ذهوله وشرود ذهنه، كان يقصد إلى مكان بعينه وقد حملته قدماه إلى ذلك المكان خلال شبكة من الدروب والأزقة فوجد نفسه بعد ساعة في شارع بروفانس.. وهي مسافة ما كانت تستغرق منه في الظروف العادية أكثر من بضع دقائق.

كان موقات قد زار فوشيري في بيته في الشهر الماضي ليشكره على مقال كتبه الصحافي في جريدة "الفيغارو" وعبر فيه عن إعجابه بحفلة أقيمت في قصر "التويلري" وكان هو– أي موفات– منظمها.

وقد وجد الكونت نفسه الآن واقفًا أمام بيت في شارع بروفانس وعيناه تحملقان نحو نوافذ الطابق الأول حيث يقيم الصحافي..كانت جميع الغرف في ذلك الطابق مظلمة.. ما عدا غرفة متطرفة تذكر موفات من زيارته السابقة أنها غرفة

نوم الصحافي.نظر إلى النور المتدفق من نافذة تلك الغرفة وانتظر.. وتوارى القمر وراء السحب المظلمة.. ودقت الساعة الثانية. والكونت لا يزال في مكانه لا يتحرك ولا يحول عينيه عن النافذة.

وفي هذه الأثناء نضجت الخطة في ذهنه.

قرر أن يقرع الجرس. وينفذ إلى الداخل دون أن يعبأ بالبواب. ويقصد توًا إلى شقة الصحافي. فيقتلع بابها بكتفه. ويواجه الخائنين الأثيمين.. وتذكر أنه لا يحمل سلاحًا.. ولكنه نظر إلى يديه.

كلا.. أنه ليس بحاجة إلى سلاح. أنه يستطيع أن يخنقهما بهاتين اليدين.واستعرض هذه الخطة مرارًا.. وأكمل نقصها. وهيأها للنفاذ. وانتظر فقد يجد دليلًا يقنعه. ويحيل شكوكه يقينًا.

إذا رأى شبح امرأة في النافذة.. فإنه لن يتردد في العمل ف الحال.. أما إذا كانت شكوكه في غير موضعها.. وهنا انقطعت أنفاسه. ولاح له بريق الأمل. والنجاة.

نعم من المستحيل أن تكون امرأته مع ذلك الرجل في هذه اللحظة.. إن جميع حواسه ترفض تصديق هذه الكذبة المستحيلة. وبقي وقتًا طويلًا في تردد مؤلم بين أن يصدق أو لا يصدق.

واقترب منه أحد رجال الشرطة. فاضطر إلى الجلاء عن مكانه ولكنه عاد إليه بعد أن ابتعد الشرطي.

كل ذلك والمطر ينهمر، والنور يتدفق من النافذة.. وفجأة.. خيل إليه أن شبحًا إجتاز الغرفة.. فنظر إلى النافذة. وما لبث أن رأى أشباحًا أخرى تتحرك.. ولفت نظره شبح رجل يحمل قدح ماء.. ثم رأى رأس امرأة. ولكن خيل إليه أنه

أكبر من رأس سابين.وأحس بدوار. ومرت في جسده رعدة شديدة. ولكنه لم يكن في مقدوره أن يحول عينيه عن النافذه.

واضطرب حواسه.. ونسي موقفه كزوج.. واتخذ موقف النافذة المصلح. ورأى نفسه بعين الخيال يعظ الناس. ويحذرهم من رذائل هذا الجيل.. وينتقد إنحلال الأخلاق.. وموت الفضائل.. ويحمل على الذباب ذي الأجنحة الذهبية.

ورد بصوت مرتفع– ودون أن يشعر– بعض عبارات فوشيري في مقاله "الذبابة ذات الأجنحة الذهبية".

وأفاد هذا الهذيان وشرود الذهن.. فانفثأ غضبه قليلًا.. وهدأت ثورة نفسه.ورأى الشبحين يعبران النافذة مرة أخرى.. واقتنع بأن سابين لا يمكن أن تكون في تلك الغرفة، ثم خطر له خاطر هون عليه.. ورفه من آلامه وعذابه..

خطر له أن ينتظر، حتى تخرج سابين. وهو سوف يعرفها مهما تنكرت.. وعندئذ يكون اليقين ولا تكون فضيحة..

نعم.. يجب أن ينتظر..

وتبددت جميع المشاعر المتناقضة التي كانت تتجاذبه.. ولم يبق إلا شعور واحد. وهو الرغبة في معرفة الحقيقة، ولكنه ما لبث أن شعر بالتعب والملالة.. وزاد تعبه وملالته عندما قدر الوقت الذي ينعين عليه أن يقضيه في الإنتظار.

لقد كان من المتفق عليه أن تعود سابين بقطار الساعة التاسعة.. ومعنى ذلك أنه يتعين عليها أن تبرح بيت عشيقها قبيل هذه الساعة، ومعنى ذلك أيضًا.. أنه يجب أن ينتظر أربع ساعات أخرى.

وفجأة.. انطفأ النور الذي كان يسطع في الغرفة. وعلى الرغم من بساطة هذا الحادث فإن وقوعه على غير انتظار أزعج موفات. وقلب خطته رأسًا على عقب..

كان معنى إطفاء النور، أن سكان الغرفة يلتمسون النوم.. وهذا أمر لا غرابة فيه. ولكن موفات أحس من اختفاء النور بما يحس به الإنسان إذا فقد صديقه الذي يؤنس وحشته.ومع ذلك فإنه صمم على البقاء والانتظار.. وما زال يسير في الشارع وينظر إلى النوافذ بين الفينة والفينة حتى دقت الساعة السادسة.

وحينئذ كان التعب قد انهكه.. ومرت به لحظات نسيى فيها أسباب وجوده تحت الأمطار في ذلك الوقت.. وذلك المكان.

نعم.. لماذا ينتظر ؟ وإذا كان أهل هذا البيت نيامًا فما شأنه بهم ؟ وبتأثير التعب العقلي والجثماني.. فترت حماسته.. وضعف اهتمامه حتى بإرضاء فضوله إلى معرفة الحقيقة. وصار همه الأوحد.. أن ينفض يده من هذا الموضوع وأن يلتمس العزاء والسلوى في مكان ما.

إنتهي كل شيء.. ولم يبق له شيء في الحياة.. فما الفائدة ؟!

إنه سيبرح الآن هذا الشارع.. ولن يعود إليه.. وأخذ يسير لصق الجدران ببطء. ولا يسمع حوله سوى وقع قدميه.. وسار على غير هدى.. وبلا غرض.. ولكن خيل إليه فيما بعد أنه كان يدور في حلبة واضحة الحدود كجواء "السيرك".

وانتبه إلى نفسه فجأة.. فإذا هو يضغط جبينه الملتهب على الزجاج البارد أمام أحد الحوانيت في شارع "بانوراما".. فسأل نفسه.. ماذا جاء به إلى هذه الشارع ؟

ثم واصل السير بقلب مفعم بالأسى..

وانطفأت المصابيح.. واستيقظت باريس.. ونشطت الحركة في الشوارع.. ورأى موفات المارة.. ففر من طريقهم.. وتضاعف شعوره بالتعاسة.. وتولد منه شعور آخر بالشفقة على نفسه.. فبكي حزنًا وألمًا. لا غضبًا وموجدة.كان منهوك القوى.. مبلل الثياب.. ولكن مجرد التفكير في العودة إلى بيته القديم المظلم كان كافيًا لأن

يرسل في جسده رعدة قوية.. إنه بحاجة إلى الدفء.. وبحاجة إلى كلمة عزاء وترفيه.وقادته قدماه إلى بيت نانا بقوة الغريزة التي تقود الطير إلى وكره.. وصعد السلم وهو يبتسم حنينًا إلى الدفء الذي ينتظره في مخدع نانا وبين ذراعيها..

ودق الجرس.. ففتحت لويز الباب.. ونظرت إليه في دهشة.. ثم قالت بسرعة أن سيدتها أصيبت بصداع أرقها طول الليل.. ولكنها ستسألها في الحال أن كان في استطاعتها أن تستقبله.. وقادته إلى قاعة الاستقبال.. وقصدت إلى مخدع سيدتها..

ولكن موفات ما كاد يتهالك في مقعده، حتى دخلت نانا كالزوبعة.. كانت شاحبة اللون.. لامعة العينين. ولم تكلف نفسها حتى عناء ترتيب شعرها المشعث.

صاحت في غضب:

– أهذا أنت..

وأسرعت إلى باب الغرفة وفتحته، وهمت بطرده. ولكنها رأت مظاهر بأسه وشقائه.. فشعرت ببعض الشفقة. وقالت في لطف:

– يا إلهي.. بأية حال عدت! هل كنت تترصدها ؟

فلم يجب. ولكنه كان أشبه بحيوان مكدود. وفهمت نانا في الحال أنه لا يزال يفتقر إلى الأدلة على خيانة زوجته. فقالت لتطمئنه:

– هل وثقت الآن من أنني كنت على خطأ ؟ لقد قلت لك أنني لا أعرف شيئًا على وجه التحقيق. وأن ما ترامي إلى سمعي لا يجب أن يكون دليلًا.إن زوجتك امرأة شريفة يا عزيزى. فعد إلى بيتك. وإلى فراش الزوجية. فإنك في أشد الحاجة إليه كما رأى.

ولكنه لم يتحرك ولم ينبث بكلمة.

قالت:

– يجب أن تذهب.. لا شك أنك لا تنوي البقاء هنا في مثل هذه الساعة.

فأجاب بصوت خافت:

– نعم. إنني سأبقى.

فحاولت أن تكتم غضبها وقالت:

– أرجوك أن تنصرف في الحال.

– كلا..

ولم تستطع نانا ضبط نفسها فصاحت في غضب:

– حقًا.. إن هذا لا يطاق.. ألا تستطيع أن تفهم أنني سئمتك وضقت بك ذرعًا ؟

دعني.. واذهب إلى امرأتك التي تخونك.. نعم.. إنها تخونك وأنا أقول لك ذلك صراحة.. فهلا تركتني الآن؟

فاغرورقت عينا موفات بالدموع.. وقال وهو يعقد يديه فوق صدره متوسلًا:

– دعيني أبقى.

فملكتها نوبة عصبية.. وبكت غيظًا وحنقًا.. أي شأن لها هي بالعلاقة بين هؤلاء الرجال ونسائهم؟

لقد حاولت أن تنهي إلى هذا الرجل بمنتهي الرفق نبأ فجيعته في عرضه.. فماذا تستطيع أن تفعل أكثر من ذلك.؟ وهل يجب أن تدفع هي ثمن جميع الأطباق المحطمة ؟كلا..كلا.. إنها طيبة القلب.. وطيبة القلب كثيرًا.. ولكنها لا تطيق هذا.

صاحت وهي تضرب المائدة بقبضة يدها:

– بحسبي ما لقيت منك.. لقد أردت أن أخلص لك.. ولو كان لي مطمع

في مال.. لاستطعت غدًا بكلمة واحدة أن أصبح أغنى النساء.

فرفع موفات رأسه في دهشة.. وقال أن مسألة المال لم تكن قط موضع مناقشة بينهما.. وأنه يكفيها أن تطلب ما تريد فيجيبها إلى كل ما تطلب.. إن كل ثروته رهن إشارتها.

ولكنها صاحت:

– كلا.. هذا السخاء قد جاء بعد فوات الوقت، إنني أحب الرجل الذي يعطي دون أن يسأل.. ولو أعطيتني الآن مليونًا من الفرنكات.. وتوسلت إلي أن اقبلها.. لما قبلتها، لقد انتهى كل شيء بيننا، فاذهب لشأنك، واذهب في الحال وإلا حدث ما لا تحمد عقباه.

ولوحت بيدها مهددة..

كانت تتكلم بحدة البغي الطيبة القلب متى أحرجت وشعرت بأنها على حق.. وأنها أكرم نفسًا.. وأنبل خلقًا من الأشراف الذين يحيطون بها.

وفي هذه اللحظة.. فتح الباب.. ودخل ستينر..

وبدخوله نفذ صبر نانا.. فهتفت بصوت مخيف:

– هو ذا الآخر قد جاء..

فذعر ستينر.. ووقف حائرًا. وزادت حيرته حين وقع بصره على الكونت موفات..

لم يبق مفر من تصفية الموقف.. وذلك ما كان يتجنبه ستينر.. منذ توالت عليه الخسائر في "البورصة".. وضعف مركزه المالي.. أغمض عينيه، وأشاح بوجهه. كيلا يرى نظرات الكونت..

كان بوجهه المنزعج.. وأنفاسه اللاهثة أشبه برجل اجتاز باريس عدوًا ليسمع نبأ سارًا.. فإذا هو يفاجأ بكارثة.

صاحت به نانا في خشونة:

– ماذا جئت تصنع ؟

فأجاب بلسان ملعثم:

– أنا.. إنني جئتك بشيء طلبته..

وتردد.

كانت نانا قد أفهمته تلميحًا في الليلة السابقة.. أنها أشد الحاجة إلى ألف فرنك لسداد بعض ديونها.. وأنه إذا لم يجئها بهذا المبلغ. فمن الخير له إلا يجيء على الإطلاق، لأنها سوف تطرده طردًا..

قال وهو يقدم إليها رزمة من الأوراق المالية:

– ها هي الألف فرنك..

ولكن نانا كانت قد نسيت أنها طلبت ألف فرنك فقط فصاحت:

– ألف فرنك!! هل تظن أنني التمس منك إحسانًا.. هذا ما أصنع بفرنكاتك..

واختطفت الأوراق المالية. وقذفت بها في وجهه.

وانحنى ستينر– كيهودي حريص– والتقط الأوراق المالية ووقف مشدوهًا مفتوح الفم.. وتبادل الرجلان نظرة يأس.. ووضعت نانا يديها على فخذيها. ونظرت إلى ستينر وقالت بلهجة أشر البغايا:

– هل فرغت من إهانتي؟ يسرني أنك جئت أثناء وجود هذا الرجل، لكي تكون عملية التطهير أتم وأكمل.. والآن. إنصرفا. وانصرفا بأسرع ما تستطيعان..

ولكنهما لم يتحركا.. فصاحت:

– هل حسبتما أنني من الغباء كما تتوهمان؟! ربما كنت غبية حقًا ولكنكما أشد مني غباوة..

سيكون الذنب ذنبي إذا ارتضيت هذه الحال.. وقضيت آخر أيامي في أحد الملاجئ الخيرية..

فحاولا تهدئتها. وتوسلا إليها أن تصغي إليهما. ولكنها لم تهدأ. ورفضت أن تصغي. وصاحت:

– ألا تذهبان؟! حسنًا..

ووثبت إلى الباب الذي يفصل بين قاعة الاستقبال ومخدعها وفتحته بعنف..

ووقع بصر الرجلين داخل المخدع على "فونتان" وهو جالي يبتسم على حافة الفراش.. كان ولعلها بفونتان من النزوات العابرة التي شغلتها في الأسبوع الأخير.. فكانت تذهب إلى المسرح في كل ليلة تقريبًا.. لتصطحبه في مركبتها إلى أحد المطاعم.. أو إلى بيتها.

صاحت وهي تشير بأصبعها نحو عشيقها الجديد:

– أنظر..

كان موفات قد صبر على كل ضروب الإهانة، إلا أنه تمرد على هذه الإهانة الأخيرة. فنظر إلى نانا شزرًا غمغم:

– أيتها الفاجرة..

ولكنها ردت إليه شتمته. بقولها:

– الفاجرة هي امرأتك.

ودخلت مخدعها. وأغلقت الباب بينها وبين الرجلين بعنف.

الفصل الخامس عشر

احتفل العاشقان –نانا وفونتان– بحياتهما الجديدة بمأدبة متواضعة أقاماها في بيتهما الصغير بشارع "فيرون" وساهم فيها عدد قليل من أصدقائهما المقربين.. وكانت نانا– بعد أن طردت صديقيها – موفات وستينر– قد شعرت بأن كل شيء يوشك أن ينهار حولها، وأنها قد فقدت الثقة التي كانت تستمع بها بفضل صلتها بهذين الرجلين.. وأن دائنيها سوف لا يصبرون عليها بعد الآن.. وسوف يلحون في الطلب.. ويجعلون حياتهما جحيما لا يطاق.. وأن الأمر سينتهي حتمًا ببيع أثاثها وتشريدها..

ثم إنها –وهي في نشوة غرامها بفونتان– كانت تحلم بحياة هادئة سعيدة.. في بيت صغير تشرق عليه الشمس.. وسط أثاث بسيط من طراز حديث، فباعت مجوهراتها.. وهجرت بيتها في شارع هوسمان.. وتركت لدائنيها مهمة بيع أثاثها القديم وتسوية ديونها فيما بينهم..

ولم تخطر أحدًا بعزمها.. وكان كل ما فعلته.. أنها خرجت ذات يوم من بيتها في شارع هوسمان.. ولم تعد إليه، وانقطعت أخبارها.

وكان فونتان أطوع لها من بنانها.. وقد برهن على طواعيته بعمل ينطوي على الإخلاص وعرفان الجميل.. إذ وضع بين يديها سبعة آلاف من الفرنكات هي كل ما أدخره من كده.. فأضافتها نانا إلى عشرة آلاف من الفرنكات حصلت عليها من بيع مجوهراتها.. واجتمع من ذلك مبلغ يكفل لهما حياة وطيدة سعيدة..

وكانت مدام ليرا بين الذين دعوا إلى المأدبة، فبكرت بالحضور وانتهزت فرصة غياب فونتان. لتعبر لنانا عن قلقها ومخاوفها.

قالت لها أن سلوكها لا ينطوي على شيء من الحكمة. وأن إيثارها فونتان

على موفات وستينر كان مجازفة خطيرة.. وأنها كمن يقامر بثروة مضمونة على مغامرة مجهولة العواقب.

ولكن نانا نظرت إليها في لطف وخجل وهتفت:

– ولكني أحبه يا عمتاه.

وثائرت مدام ليرا وقالت وهي تتنهد:

– أنت على حق يا ابنتي، فالحب مقدم على كل ما عداه.

ولم يسعها إلا أن تعجب بقاعة النوم.. وغرفة الطعام.. وقاعة الاستقبال.. والمطبخ.. وألا تصف البيت بأنه "عش غرام".. ولكن إعجابها بالبيت. واقتناعها بأن نانا تحب فونتان.. كل ذلك لم يطمئنها ولم يبدد مخاوفها وقلقها.

قالت لابنة أخيها أن "لويز" قد زارتها في ذلك اليوم. وإن هذه الوصيفة الأمينة تحب سيدتها وتخلص لها كل الأخلاص، وأن سلوكها كفان دليلًا على وفاء منقطع النظير. فهي التي صمدت للدائنين في شارع "هوسمان". وهي التي ألبست فرار سيدتها ثوب التقهقر الشريف. وأجابت ببساطة على جميع الأسئلة المحرجة بأن سيدتها ذهبت في رحلة إلى الخارج.. وأخيرًا.. وهي التي أنقذت كل ما يمكن إنقاذه من السفينة المغرقة. وخيرًا من كل ذلك أنها امتنعت عن زيارة سيدتها حتى لا يتعقبها الدائنون ويعرفون مقرها الجديد.

ومضت مدام ليرا في حديثها. وشعرت أن "لويز" تريد أن تنبئ سيدتها بأن الدائنين عقدوا أمس إجتماعًا. وقرروا فيما بينهم أن يكفوا عن مطالبتها. بل ويضاعفوا ديونها ويمدوها بالمال إذا شاءت. بشرط أن تعود إلى بيتها. وتحتل مركزها السابق، وتسلك سلوكًا ينطوي على الحكمة وبعد النظر.

وختمت مدام ليرا حديثها بقولها:

– وأكبر ظني أن الدائنين لم يتقدموا بهذا الاقتراح عبثًا.. وإن لك عاشقًا غنيًا على استعداد لسداد ديونك بشرط أن تعودي إلى المجتمع.

فصاحت نانا باشمئزاز:

– أبدًا. أفتحسبينني على استعداد لأن أبيع نفسي لسداد ديوني؟ كلا.. وألف مرة كلا.. إنني أوثر الموت جوعًا على خيانة فونتان.

فتنهدت مدام ليرا وقالت:

– هذا ما توقعته.. وقد طلبت إلى لويز أن تقول للدائنين أنك أكرم خلقًا وأنبل نفسًا من أن تقبلي اقتراحهم..

وكانت الأسابيع الثلاثة الأولى من حياة العاشقين مفعمة بالسعادة الحقيقية، وأحسنت نانا– من بساطة حياتها الجديدة– كأنها عادت إلى عهد الصبا.. حين كان الحصول على ثوب جديد بسيط يملأ نفسها حبورا وبهجة.

وذات يوم.. حملت نانا سلتها الصغيرة وقصدت إلى السوق لابتياع بعض حاجاتها المنزلية.. ولشد ما كانت دهشتها وحيرتها.. حين وجدت نفسها وجهًا لوجه أمام حلاقها السابق فرنسوا.

وصعدها فرنسوا بعينيه.. كأنه لا يستطيع أن يصدق إن هذه المرأة البسيطة العادية.. هي نانا الشهيرة التي أذهلت باريس.. وأقامت أهلها وأقعدتهم.. وكانت إلى عهد قريب أوسع الغانيات شهرة... وأبرزهن شخصية.. وأشهرهن بالعبث والبذخ.. بيد أنه كان من الأدب وحسن الذوق بحيث امتنع عن إلقاء الأسئلة وتظاهر بتصديق قصة عزمها على الرحيل إلى الخارج.

هتف:

– أهذه أنت يا سيدتي العزيزة!؟ إن عزمك على الرحيل إلى الخارج. قد أدخل

الحزن والكآبة على قلوب كثيرة. ولسوف يكون رحيلك خسارة شخصية لكل إنسان.

ولكن سرعان ما تخلصت نانا من حيرتها. وراحت تمطره وابلًا من الأسئلة.

بماذا تحدث الناس عنها! وماذا قالوا في اختفائها؟

وأجاب فرنسوا. بأنه يسمع اسمها في كل مكان وعلى كل لسان.

– وستينر..؟

– آه. ستينر.. إنه في أسوأ حال. وإذا لم تسعفه تقلبات البورصة في أقرب وقت. فإنه يصبح في عداد المفلسين.

وهمت نانا بأن تذكر اسم "موفات" ثم ترددت في اللحظة الأخيرة.

ولكن فرنسوا أجابها على السؤال الذي لم تنطق به. فقال إن الكونت موفات حزن كثيرًا لرحيلها وإنه كالروح الحائر.. يحوم دائمًا في كل مكان كانت تختلف إليه، وقد قابله "منيون" أخيرًا. فذهب به إلى "روز".

فضحكت نانا. وكانت ضحكتها خالية من المروح.

قالت بصوت ينم عن الغضب والإنفعال:

– وإذن قد وقع في شباك روز؟! وهو الذي طالما أقسم أن لا يعرف امرأة سواي! ولكني أعرف السر.. لقد أرادت روز أن تنتقم لنفسها. لأنني إنتزعت منها ذلك الحيوان ستينر ولكن أي إنتقام هذا! أنها أخذت رجلًا لفظته.

وطردته.

فأجاب فرنسوا:

– ولكن مسيو منيون يسرد قصة أخرى. إنه يزعم أن الكونت هو الذي لفظك وطردك.

فامتقع لون نانا. وقالت:

– لفظني وطردني!! أيزعم مينون ذلك..

حقًا إن هذا لكثير وعضت على شفتيها.. وأشاحت بوجهها.. ولزمت الصمت لحظة ثم قالت:

– خذ الحقيقة مني أيها الصديق.. أنا التي طردت ذلك التعس، لأنني احتقر الرجل الذي تخونه زوجته..

أما مينون.. الذي يذرع باريس ليلًا ونهارًا في البحث عن عشاق لزوجته.. فسوف يكون لي معه شأن آخر..تبا لهؤلاء الناس. ما أخبثهم..وانحبست أنفاسها من فرط الغضب.. واستطردت:

– أيقولون ذلك عني..حسنًا.. إنني سأقابلهم وجهًا لوجه.. وأقول لهم في صراحة أنهم طغمة لئام كذابون..

ثم هدأت ثائرتها رويدًا.. فهزت كتفيها.. وقالت أنها لا تهتم لأقاويلهم أكثر مما تهتم للوحل الذي يعلق بحذائها..

ووجد فرنسوا من بساطتها.. وتواضعها ما شجعه على الإدلاء بنصيحة.. فقال لها إنها ارتكبت غلطة فاحشة.. يوم نفضت يدها من ماضيها الحافل.. ومستقبلها الباسم إرضاء لنزوة عارضة.. سوف تمر وتنقضي.. وتخلف لها الحسرة والندم.

وأصغت إليه نانا وهي مطرقة برأسها، حتى إذا فرغ من حديثه، قالت له ببرود:

– هذا شأني وحدي ،ولكني أشكرك على كل حال..

وتركته وانصرفت..

وذات مساء.. قصد العاشقان إلى مسرح "الاورابوف" لشهود صديقة

لفونتان.. ظهرت على خشبة المسرح لأول مرة في تلك الليلة.. وكانت الساعة الواحدة صباحًا.. عندما عادا إلى بيتهما.. فدار الحديث بينهما عن تلك الصديقة. وقالت نانا في تهكم:

– إن عينيها صغيرتان وشعرها مجعد كشعر الزنوج.

فصاح فونتان:

– كلام فارغ.. إن شعرها بديع.. ونظراتها شعلة من نار.. ولكنكن معشر النساء قد طبعتن على انتقاص مواهب بعضكن بعضًا.

وامتعضت نانا. وأصرت على رأيها. فصاح فونتان بخشونة:

– اصمتي. لا أريد أن أسمع هذا الاسفاف.

ولكن نانا لم تصمت. وقالت إنها لا تسمح لكائن من كان أن يتحدث إليها بمثل هذه اللهجة. وأنها قد تعودت أن تعامل باحترام.

ولما لم يجبها فونتان.. لزمت الصمت والدم يغلي في عروقها كالرجل..

وكان ذلك أول خلاف جدي شجر بينهما.. ولكنه لم يكن الأخير.. وقد قدر لنانا أن تعرف في تلك الليلة. إلى أي حد تبلغ النذالة بفونتان إذا ثار وغضب..كان لهذا الرجل خلق شاذ عرف عن أحقر الأجناس التي استوطنت جنوب أوروبا.. فهو يستطيع أن يحتوي المرأة بين ساعديه في هذه اللحظة.. ويدوسها بقدمه في اللحظة التالية.

وساد الصمت بينهما وقت طويلًا.. ولم يحاول أحدهما أن يستأنف الحديث.

ولكن فونتان كان يصرف بأسنانه بصوت مسموع.. وأخيرًا نهضت نانا. وهمت بالانصراف إلى مخدعها.. ولكنها ما كادت تتقدم بضع خطوات، حتى وثب عليها فونتان.. وأهوى على وجهها بلطمة ألقت بها على الأرض.. وهي تتأوه.. وتئن أنين طفل جريح.

ولم يعبأ فونتان بأنينها.. وهددها بلطمة مماثلة إذا عادت إلى المناقشة، ثم تركها على الأرض.. وقصد إلى فراشه.. وبعد بضع دقائق كان يغط في نومه.

وبكت نانا.. وقالت لنفسها أن من النذالة أن يستغل الرجل قوته على هذا النحو.ثم ما لبث غضبها أن هدأ .. كما لو كانت اللطمة قد أخمدت ثورتها.

والواقع.. أن هذه اللطمة ضاعفت احترامها لفونتان.. فلما استيقظت في الصباح.. أحاطت عنقه بساعديها.. وقبلته.. وتوسلت إليه ألا يفعل ذلك مرة أخرى.. واعترفت بأنها تحبه. وتجد لذة حتى في لطماته.

كانت هذه اللطمة تجربة جديدة بالنسبة إليها. ولكنها تجربة تكررت فيما بعد. فكان فونتان يلطمها كلما أفلتت من شفتيها كلمة لا تسره، حتى أصبحت اللطمات من مستلزمات حياتها.

وحدث بعد إحدى اللطمات أن ثارت نانا.. وتوعدت.. فدفعها فونتان بيده حتى ألصقها بالجدار. وهددها بالخنق إذا لم تلزم الصمت.

فخافت وصمتت. وبكت في سكون.. بعد بضع دقائق.. عاد إليها مرحها وبهجتها.. وراحت تملأ المكان بصوتها الطروب. وضحكاتها الرنانة..

شيء واحد كان يزعج نانا ويؤلمها.. وذلك هو غياب فونتان، حيث اعتاد في الأيام الأخيرة أن يقضي النهار كله في الخارج فلا يعود قبل منتصف الليل. واضطرت نانا أن تعتصم بالصبر.. ولم تجرؤ على تأنيبه والعتب عليه. مخافة أن يخرج ولا يعود.

وفي أحد الأيام. صادفت نانا صديقتها "ساتان" في الطريق..

وكانت بينهما صداقة قديمة نشأت في المدرسة.. وتوطدت على الأرصفة عندما كانتا تذرعان شوارع باريس لإغراء المارة.. وكانت حياة المسرح لم تطب

لساتان.. فتركت عملها في "الفاريتيه" وعادت سيرتها الأولى.. ولم ترها "نانا" منذ ذلك الوقت.. فسرت بلقائها.. وأرادت أن تعرف المزيد من أنبائها.

ولما كانت تعلم أن فونتان لا يعود قبل منتصف الليل، فإنها دعت صديقتها إلى تناول الغداء معها في أحد المطاعم. وقضتا معًا وقتًا ممتعًا إستعادتا فيه ذكريات الماضي بمسراته وبؤسه.

وعادت نانا أخيرًا إلى بيتها.. ودهشت واضطربت حين وجدت أن فونتان قد عاد قبلها.. وأنه عابس متبرم.. وأرادت في اضطرابها أن تنفي شكوكه وريبة في أمر غيابها.. وحرصت في ذات الوقت على ألا تفضح علاقاتها بساتان.. فقالت له إنها كانت تتناول الطعام مع مدام مالوار.

ولكنها ما كادت تنطق باسم هذه المرأة.. حتى أهوى فونتان بقبضة يده على المائدة. وقال في غضب أن من الجنون أن تبدد نانا أمواله بهذه الصفة على مدام مالوار.. ومدام ليرا.. وغيرهما من العجائز.. وأنه إذا استمر الحال كذلك بضعة أسابيع أخرى... فسوف ينتهي به الأمر إلى الإستجداء أو الموت جوعًا.

وختم ثورته بقوله:

– ومن الآن.. يجب أن أتولى الإنفاق بنفسي حتى لا يدهمنا الفقر على غرة.

ونشطت في نفسه غريزة الجشع.. فقامت نانا لساعتها.. وأحضرت ما عندها من النقود.. ووضعتها أمامه على المائدة.وكانت أموالهما قبل ذلك مشاعًا بينهما.. يأخذان منها ما يريدان بغير حساب.. فما كاد فونتان يحضي ما بقي حتى صاح:

– يا رب السموات.. أهذا كل ما تبقى؟ سبعة آلاف فرنك من سبعة عشر ألفًا ولما نقض معًا ثلاثة شهور؟ هل هذا ممكن؟

وهجم على درج المائدة. وانتزعه من مكانه.. وفتش فيه عن نقود أخرى.. وصاح:

– عشرة آلاف فرنك في ثلاثة شهور؟! ماذا فعلت بها بحق الشيطان؟ أجيبي! هل أخذتها عمتك؟

– لماذا تغضب.. بحسبك أن تراجع نفقاتنا لتعرف أين ذهب هذا المبلغ... ألم نشتر ثيابًا وأثاثًا ؟! ثم إن النقود تذوب بسرعة كما تعلم.

فصاح متهكمًا:

– نعم. إن النقود تذوب بسرعة. أصغي إلي يا ابنتي. إنني تعبت من هذه الشركة. أنت تعلمين أن هذه السبعة آلاف فرنك هي نقودي التي أدخرتها طول حياتي، ولذلك سأحتفظ بها. لأنه ليس من الإنصاف أن أموت جوعًا بسبب إسرافك.. يجب على كل إنسان أن يدير أمر نفسه.. ووضع النقود في جيبه.. فنظرت إليه نانا في ذهول ولم تجب.

قال:

– إنني لست من الغباوة بحيث أنفق نقودي على أولاد وعمات لا شأن لي بهم.. إفعلي أنت بنقودك ما تشائين.. ولكني لن أسمح لك بعيد اليوم بأن تمسي نقودي.. وسنبدأ منذ الآن صفحة جديدة.

فعبست نانا.. ولم تستطع كتمان اشمئزازها.

قالت:

– ألم تأكل من مالي خلال هذه الشهور؟! إن سلوكك ينطوي على أنانية بشعة..

فضرب الأرض بقدمه وصاح:

– قولي هذا الكلام مرة أخرى إن جسرت..

فقالت هذا الكلام مرة أخرى.. وانقض عليها. وأوسعها ضربًا ولكمًا حتى

غارت قواها.. وانحبست أنفاسها.. وكفت عن الاحتجاج، ولكنها ما لبث أن نهضت.. وخلعت ثيابها.. وتسللت بجانبه في الفراش وأحاطت عنقه بساعديها.. كانت تخشى أن تفقده.. وتشعر بأنها لا تستطيع أن تحيا بدونه..

ولكنه ارتاب في أمرها.. وظن أنها تريد إغراءه لتستولي على نقوده.. فأراد أن يوضح لها الموقف لتكون على بينه..

قال:

– أنت تعلمين أنني جاد فيما قلت.. وإنني سأتولى الإنفاق.

فغمغمت وهي تدفن رأسها في صدره:

– ذلك لا يزعجني.. وسوف أكسب قوتي بعرق جبيني إذا قضت الضرورة.

وأصبحت حياتهما بعد تلك الليلة سلسلة متصلة الحلقات من المشاحنات.. واللطمات حتى صارت شيئًا مألوفًا. منتظمًا إنتظام الساعة الدقاقة.ولكن ذلك لم يحزن نانا.. ولم يضعف حبها.. ثم كان هذه اللطمات المتوالية قد أفادتها.. فاكتسبت وجنتاها لون الورد.. وازدادت بشرتها بياضًا.. وأصبحت أكثر جمالًا وأشد فتنة مما كانت في أي وقت مضي.

وكان "بروليبه" و"بوسك" من الأصدقاء الفلائل الذين يترددون على بيت "فونتان" ويتناولون الطعام على مائدته في بعض الأحيان.. وكان "فونتان" لا يتورع عن لطم "نانا" على مرأى منهما.. وقد عز ذلك على "بروليبه" الذي كان فيما بينه وبين نفسه يحسد فونتان ويشتهي نانا.. فانتهز فرصة انفراده بهذه الأخيرة في أحد الأيام. وقال لها إنه لا يرى ما يحببها إلى رجل مثل "فونتان" له وجه كوجه القرد. وأنف طويل يستطيع أن يحوله إلى الجهات الأربع.. وفضلًا عن ذلك فإن هذا الرجل يضربها.. ويقسو عليها.

فأجابته نانا.. بخجل المرأة حين تعترف بفساد ذوقها:

– ولكني أحبه رغم كل ذلك.

أما فونتان.. فإنه كان ينظر إلى هذه الحالة نظرة الفيلسوف ويقول لنانا كلما بكت. وأشارت إلى الكدمات التي أحدثتها لطمات فونتان في جسدها:

– هوني عليك يا بنية. لابد من اللطمات حيثما توجد النساء. هكذا قال "نابليون" فيما أعتقد. اغسلي هذه الكدمات بمحلول الملح فإنه مفيد. ولا تجهري بالشكوى. إلا إذا أصبت بكسر في العظام.

وأما مدام ليرا. فإنها كانت أقل تفاؤلًا وطمأنينة. وكلما أظهرتها نانا على بقعة زرقاء جديدة في جسدها. صاحت ذعرًا واستنكارًا. وقالت لابنة أخيها إن هذا الرجل سوف يقتلها آخر الأمر.

فبكت نانا وغمغمت:

– ولكني أحبه.

والواقع. أن مدام ليرا كانت تشعر بالقلق منذ لاحظت ما تعانيه نانا في سبيل تدبير المال لولدها. ثم اقترن قلقها بالغضب والموجدة لمجرد التفكير في أن يكون هذا الرجل فونتان هو الحائل الوحيد دون تمرغ نانا وطفلها على وسائد من ذهب.

قالت لها:

– أصغي إلى يا بنيتي. سوف يأتي يوم تفزعين إلى فيه من قساوة هذا الوحش. فمتى جاء هذا اليوم.. فأطرقي بابي.. أفتحه لك حين عن طيب خاطر.

ولكن قدر لنصائح مدام ليرا أن تذهب هباء.. كما ذهبت من قبل نصائح "بروليبه". وذهبت بعد أيام نصائح "لابورديت".

وكانت "نانا" قد أبقت ولدها "لويس" عند عمتها. حين لاحظت نفور

عشيقها من الطفل. وتبرمه به، ففي أحد الأيام كانت في طريقها إلى ياتينول لزيارة طفلها حين وجدت نفسها وجهًا لوجه أمام لابورديت.

اضطربت. ولم تستطع فرارًا.. فابتسم لها لابورديت بلطف.. وشد على يدها بحرارة. وقال لها إنه سعيد بلقائها. وإن جميع الذين يعرفونها أو أعجبوا بها على خشبة المسرح. قد أسفوا لاختفائها الفجائي.

واستطرد قائلًا بصوت كله عذوبة وإغراء:

– لا أحد ينكر عليك حقك في تكوين مصيرك. ولكني أقول لك فيما بيننا أنك أقدمت على حماقة يؤسف لها.نحن نفهم معنى النزوات الفجائية التي تعبر بقلب المرأة في بعض الأحيان.. ونفهم حقك في إرضاء نزواتك. ولكننا لا نفهم لماذا يجب أن يكون جزاؤك الإهانة واللطم. إنه سوف ينزع جلدك عن جسدك. وأنت صامته مكتوفة اليدين كأنك تطمعين منه في أن يمنحك الجائزة الأولى في الصبر والجلد.

ثم انتقل إلى الحديث عن أصدقائها السابقين. ولما ذكر روز وموفات. لمعت عيناها وغمغمت:

– إنني لو أردت..

فقاطعها بلهجته المغرية.. وعرض أن يتوسط فيما بينها وبين موفات قال:

– دعيني أدبر كل شيء.. وأعيد الحياة إلى مجاريها.. إنني أقابل الكونت كثيرًا.. وقد لاحظت أنه يمتقع ويفر لونه كلما ذكر اسمك على مسمع عنه.

ولكنها أجابت:

– كلا.. لا تفعل شيئًا من ذلك.. إنني راضية عن حالي.

وعمد لابورديت إلى مهاجمتها من ناحية أخرى. فقال لها في دهاء إن "بوردنيف" يستعد في الوقت الحاضر لإخراج مسرحية جديدة من تأليف

"فوشيري".. وإن في هذه المسرحية دورًا خلقيًا بها وفي استطاعتها أن تحصل عليه وتقوم به إذا شاءت.

فهتفت:

– ماذا تقول؟ مسرحية جديدة فيها دور يصلح لي؟! إن فونتان لم يذكر لي شيئًا عن هذه المسرحية وهذا الدور.

وعضت على شفتيها.

وشعر لابوردتي أنه لمس وترًا حساسًا.. فاستطرد:

– أنت تعلمين إنني جدير بالثقة.. فلماذا لا تعهدين إلى في التمهيد لعودتك إلى المسرح.. وإصلاح ما بينك وبين موفات؟! إنني على استعداد لأن أرده إليك طائعًا ذليلًا.

فقالت في حزم:

– كلا..

وتركته وانصرفت.. وهي أشد ما تكون اشفاقًا على نفسها وشعورًا بتضحياتها.لو أن رجلًا ضحى في سبيل المرأة التي يحبها معشار ما صحت في سبيل فونتان. إذن لملأ الدنيا صياحًا.. وافتخارًا بوفائه وإخلاصه.

بيد أن شيئًا واحدًا في حديث لابورديت ترك في نفسها أثرًا عميقًا وذلك هو إتفاق الجميع على تخطئتها.. وإجماع الآراء على وجوب خلاصها من فونتان.

ولما عاد فونتان إلى البيت في ذلك المساء.. وسألته.. لماذا لم يحدثها عن المسرحية الجديدة.. وعن ذلك الدور الهام الذي يصلح لها.. صاح في وجهها بخشونة جارحة:

– أي دور؟! لعلك تعنين دور "السيدة العظيمة" في تلك المسرحية؟ لعمر الحق أنك مخلوقة متواضعة.. أفتحسبين إن في مقدورك القيام بهذا الدور؟! ها. ها. هذه أظرف دعابة سمعتها منذ بضعة شهور.

وضحك ضحكة حزت في قلبها.. وجرحت كبرياءها.. وأشعرتها بالمذلة والهوان.

ولم يمض وقت طويل. حتى أصبح تدبير المال.. هو شغل نانا الشاغل. ذلك إن فونتان وضع السبعة آلاف فرنك في جيبه. وانطلق بها كالكلب السعيد. فلم تجسر نانا على مناقشته. وكان في أول الأمر ينقدها ثلاثة فرنكات لنفقاتهما اليومية. ولكنه لم يلبث بعد شهر أن نسي أو تناسي أن يترك لها الفرنكات الثلاثة على حافة المائدة. فاضطرت نانا أن تطالبه بهذه الفرنكات في خجل.. ثم في إلحاح.

– وفي أحد الأيام.. تناسى أن يترك المبلغ كالمعتاد.. ولما عاد إلى البيت، ووجد أن نانا قد أعدت له طعامًا شهيًا. إمتلأت نفسه سرورًا.

فعانق نانا.. وراح يغني ويرقص.. ولم يخطر له أن يسأل نانا كيف أعدت الطعام.. ومن أي مصدر حصلت على ثمنه.وسرت المسكينة لسروره. وبلغ بها الهوان. أن أصبحت لا ترجو منه أكثر من كلمة طيبة..

وفي يوم آخر.. وضعت نانا في يده بضعة فرنكات.. قائلة إنها زادت عن نفقات اليوم التالي..

ونظر إليها فونتان حائرًا، لأنه لم يكن قد أعطاها شيئًا منذ بضعة أيام.. وتوقع أن يسمع منها عتبًا وتقريعًا.. ولكنها ابتسم له وقبلت أنفه الكبير... فتناول الفرنكات ووضعها في جيبه راضيًا مسرورًا.

ومنذ ذلك اليوم.. لم يعد يهمه إلا أن يجد طعامًا شهيًا دون أن يعرف مصدره.. فهو يغتبط وتشيع الابتسامة في وجهه إذا وجد دجاجة سمينة أو فخذ خروف.. ويتهجم ويعبس إذا وجد صحفة من البطاطس.. ولا ينسى في الحالين أن يصفع نانا.. عن رضى أو عن غضب.

وذات مساء.. وجدت مدام ليرا على المائدة طعامًا يصلح لوليمة.. فسألت:

– من ذا الذي دفع ثمن هذا الطعام ؟

وكان السؤال فجائيًا.. فبهتت نانا.. وانفجرت باكية.. وفهمت مدام ليرا وغمغمت:

– نعم.. نعم.. لا بأس.

كانت نانا على استعداد لكل تضحية. في سبيل الاحتفاظ بفونتان.

ثم إن الذنب.. كان ذنب مدام "تريكو".. فقد صادفتها هذه المرأة في الطريق في إحدى ساعات عوزها وضيق ذات يدها.. وضربت لها موعدًا.. فوافقت على كره منها.. ووافقت مرارًا بعد ذلك لتحصل على نفقات البيت.وأسرف فونتان في مطالبه.. وأسرفت نانا في إرضائه.. وانقلبت الأوضاع.. فصارت "نانا" هي التي تبحث عن مدام تريكو.. للحصول على موعد. وانتهى بها الأمر– في سبيل حبها بهذا الرجل– أن تعود سيرتها الأولى وأن تقضي المساء وشطرًا كبيرًا من الليل متأبطة ساعد "ساتان" هائمة في الأزقة والشوارع المظلمة، لإغراء المارة واصطياد العابرين.. كما كانت تفعل في أول عهدها بحياة الرذيلة.

وكانت "ساتان" قد هبطت إلى قرار الهوة من طبائع الرجال. وتعلمت من ضروب الإغراء والغواية. واكتشفت من مطارح الفجور ما أدهش نانا.. وأقنعها بأن العالم قد تجرد من الفضيلة وأقفر من الخير، ولكنها انسابت وراء "ساتان"، وتعلمت منها ما لم تكن تعلم وعرفت.. لماذا يجب أن تجتذب أنبل الرجال مظهرًا وأوقرهم هندامًا وكيف إن هذه المظاهر ليست إلا طلاء لأحد الطبائع وأخبث الغرائز..ولماذا يجب عليها أن تحترم سائق المركبة دون السيد الذي يجلس داخل المركبة، لأن الاول ينتمي إلى طبقة توقر النساء أكثر مما توقرهن طبقة الأسياد.

وهكذا راحت المرأتان تتعثران على الأرصفة.. وتترصدان الرجال. فيسعدهما

الحظ حينًا. ويخونهما أحيانًا. إلى أن ضيق عليهما الشرطة الخناق.. فانتقلتا إلى الحي اللاتيني.. ثم جاءت العطلة الصيفية وأغلقت المعاهد أبوابها، وأقفر الحي اللاتيني من أهله.. فانحدرت المرأتان إلى "مونمارتر".

وتعلمت نانا في هذه الأثناء. كيف تمتقع لمجرد التفكير في رجال الشرطة. وتترك ساقيها للريح.. إذا أبصرت شرطيًا في آخر الشارع..

وذات ليلة عادت نانا إلى بيتها. متعبة مهمومة.. فقد لازمها سوء الحظ بضع ليال متواليات. وأصبحت لا تدري كيف ترضي شهوة فونتان إلى الطعام والشراب.وصعدت السلم بعناء وهي تتمنى في كل خطوة. لو أنها تستطيع الارتماء على الأرض.. لتنعم بالنوم. وتريح قدميها المتورمتين.

دقت الباب.. ولم تسمع جوابًا.. وأعادت الكرة بدون جدوى.

ورأت النور ينبعث من ثقب القفل. وسمعت حركة فونتان في الداخل فدقت الباب مرة ثالثة.. ثم مرة رابعة.. وأخيرًا. سمعت فونتان ينطق بكلمة بذيئة مهينة. وينطق بها في هدوء.. وبصوت واضح جلي.

ولم تصدق نانا أذنيها. وطرقت الباب بكلتا يديها. فكرر فونتان تلك الكلمة. واستمرت تطرق الباب. وفونتان يكرر تلك الكلمة بإنتظام حتى انقضت بضع دقائق.. وأخيرًا فتح فونتان الباب. وصاح في وجهها بصوت أجش:

– متي تكفين عن إزعاجي بحق الشيطان.. ألا تنصرفين وتتركينني وشأني؟ ألا ترين إنني لست على انفراد؟

نعم. إنه لم يكن على انفراد. فقد رأت نانا من فتحة الباب تلك الممثلة التي شهداها على مسرح "الأوبرا بوف"وقد جست على أحد المقاعد، كأنها صاحبة الأثاث الذي دفعت ثمنه.. وتقدم فونتان خطوة إلى الأمام. وصاح وهو يلوح بقبضتيه مهددًا:

– إليك عني. وإلا خنقتك.

وذعرت نانا. وهبطت السلم مهرولة وهي تبكي بصوت مسموع لقد طردت من بيتها!

وتذكرت. بأسرع من لمح البصر. كيف أهانت موفات وكيف طردته. وعجبت لسخرية الأقدار! وخطر لها في الحال أن تذهب إلى ساتان. وتقضي تلك الليلة في غرفتها، ولكنها وجدت ساتان في الشارع. فقد طردها صاحب المنزل لأنها عجزت عن دفع أجرة الغرفة منذ ثلاثة شهور.

ولما كان القانون لا يجيز لصاحب المنزل أن يطردها ويحول دون دخولها. فإنها وقفت في عرض الطريق. وراحت تصخب وتشتم.. وتهدد بالالتجاء إلى البوليس، ولكنها فكرت مرتين قبل أن تنفذ تهديدها. ورأت من الصواب ألا تدع البوليس يضع أنفه في شؤونها.. فتأبطت ساعد "نانا".. وقصدت بها إلى بيت صديقة لها من طراز "مدام تريكو" تدعى "بلانش بواسيه".

ورحبت بهما هذه المرأة. وسمحت لهما بقضاء الليلة في إحدى الغرف.

وما أن أغلقت "ساتان" باب الغرفة.. حتى انفجرت "نانا" باكية وراحت تقص على صديقتها ما حدث بينها وبين فونتان.

وأصغت إليها ساتان.. وواستها.. ووصفت الرجال بما لا يسرهم. وأنهما في هذا الحديث.. إذا بهما تسمعان جلبة غير عادية.. وصيحات تدل على الذعر.. فأرهفت ساتان أذنيها.. وامتقع وجهها.. وهتفت في ذعر:

– البوليس!!! ولا أمل في النجاة. لقد وقعنا في الفخ كالفئران.

فذعرت نانا.. وطار صوابها. وأسرعت إلى النافذة كامرأة مجنونة تريد أن تلقي بنفسها من الفضاء.

كانت النافذة تطل على غرفة البواب..

صاحت ساتان:

– قفي.. أنك تقتلين نفسك.

ولكن نانا كانت تعلم أن وقوعها في قبضة البوليس. معناه ضياعها والتشهير بها.. وتلويث سمعتها وسمعة ولدها إلى الأبد. فلم تتردد.. وصعدت إلى النافذة.. وألقت بنفسها في القضاء المظلم.

وبعد بضع دقائق.. كانت تتسلل بين الأشجار في حديقة المنزل المجاور.. وقد تمزقت ثيابها.. وتخدشت يداها.. وكمنت في ركن الحديقة.. وهي لاهثة الأنفاس.. وقلبها يثب في صدرها بعنف.

وأصغت إلى صراخ النساء. وصياح البوليس في بيت "بلانش بواسيه"، فوضعت يدها على فمها.. كأنها تخشى أن تنم عليها أنفاسها.. وبقيت كذلك وقتًا طويلًا.. إلى أن انصرفت مركبات البوليس.. ومرت ساعة أخرى.. وعندئذ فقط خرجت من مخبئها.. ووثبت من سور الحديقة إلى الشارع.. وأطلقت ساقيها للريح في الطريق إلى "باتينول".

وطرقت باب عمتها.. وما إن أبصرت بها مدام ليرا، ورأت وجهها الشاحب.. وأصابعها الدامية.. وثيابها الممزقة، حتى فهمت كل شيء وصاحت:

– ألم أحذرك ؟! ألم أتنبأ بكل هذا ؟ ادخلي يا بنيتي المسكينة.. ادخلي.. فهذا البيت يرحب بك دائمًا.

وقصدت نانا توًا إلى فراش ولدها.. وكان الطفل نائمًا.. فانحنت فوقه.. ونظرت إلى وجهه الصغير الشاحب. وأثار منظر هذا الوجه البريء شجونها.. وشعرت بالبؤس والشقاء والمرارة كما لم تشعر في أي وقت مضي.. فعانقت الطفل وهمست بصوت باك:

– أواه.. يا ولدي الصغير المسكين.. يا ولدي الصغير المسكين.

الفصل السادس عشر

نشطت الحركة على خشبة المسرح وبين الكواليس.. أمام صالة خالية من النظارة.كان القوم يقومون بالتجارب الأولى تمهيدًا لإخراج المسرحية الجديدة التي وضعها فوشيري.. وجعل إسمها "السيدة العظيمة".

وفي ركن إحدى الشرفات.. جلست "نانا" وحدها لشهود التجربة وتقدير أهمية الأدوار..كانت المسرحية تتلخص في أن سيدة عظيمة علمت أن زوجها وقع في قبضة إحدى الغانيات. فحاولت أن ترده عن غيه وأن تستميله إليها.. فذهبت جهودها هباء.. وأخيرًا قررت المرأة أن تكشف السر في فتنة الغانيات.. ولماذا تنجح المرأة الساقطة حيث تفشل المرأة الشريفة وصحت عزيمتها على مقابلة عشيقة زوجها؟ وهناك لقنتها الغانية درسًا في الفتنة والغواية، جعلتها أشد خطرًا من أعرق الغانيات في الإثم والرذيلة..

وقد أسند دور الدوقة هيلين "السيدة العظيمة" إلى روز منيون. ودور اوجستا "الغانية" إلى سيمونا.. لكن "نانا" قلبت شفتها احتقارًا وشماتة.. حين رأت "روز" تخطر على خشبة المسرح في ثياب الدوقة.. وأصدرت حكمها بأن هذا الدور لن ينجح إلا بها.

وفتح باب المقصورة فجأة. فنظرت نانا خلفها. ورأت لابورديت.

سألها:

– ما قولك في دور "أوجستا"؟ يريد بوردنيف أن يسند إليك هذا الدور..

فهزت نانا كتفيها. وأجابت:

– سوف نتحدث في هذا.

ثم انحنت إلى الأمام وسألت بصوت خافت:

– هل أنت واثق من أنه سيأتي؟

فأجاب:

– نعم.. كوني مطمئنة.

كانا يتحدثان عن "مورفات" فقد هيأ "لابورديت" السبيل لمقابلة بين موفات ونانا. وساهم بوردنيف في تذليل العقبات حين سمح بأن يكون اللقاء في إحدى شرفات المسرح.

بل وقد فعل بوردنيف أكثر من ذلك، إذ عبر عن استعداده لإسناد دور "أوجستا" إلى نانا.

كان قد خسر كل ثروته في المضاربات. فأراد أن يخطب ود موفات عسى أن يمنحه الكونت قرضًا ينقذه من الإفلاس.

وفجأة.. ذاع بين الكواليس نبأ أذهل الممثلين.. فراحوا يتناقلونه في همس.. ثم استحال الهمس إلى لغط.. وقال أحدهم بصوت مرتفع:

– نانا هنا.. لقد عادت نانا..

وسمعت روز هذا النبأ في ذات اللحظة التي دخل فيها "لابورديت" واقترب من موفات، وتأبط ساعده. وهمس في أذنه كلامًا.

وجن جنون روز وصاحت بزوجها:

– هل سمعت ما يقال؟! وهل رأيت ماذا فعل ذلك التعس لابورديت؟! الويل لها إذا عادت إلى أساليبها القديمة وانتزعته كما انتزعت ستينر من قبل.. إنني أفقأ عينيها إذا فعلت.

فهز منيون كتفيه. وقال بهدوء الرجل الذي يعلم بواطن الأمور:

– صه.. لا فائدة من النضال.

كان يفهم موفات حق الفهم. ويعلم أن إشارة من أصبع نانا.. أو إيماءة من رأسها.. تكفي لأن تجعله يرتمي على الأرض أمامها.. لكي تمشي على جسده.

والواقع.. أن موفات ما كاد يعي الكلمات التي همسها لابورديت في أذنه، حتى امتقع لونه.. وارتجفت يداه.

كان قد سمح لنفسه أن يساق إلى أحضان روز لغرض واحد. هو أن يملأ الفراغ الهائل الذي تركته نانا في حياته.

أراد أن ينسى سابين. وأن ينسى نانا، لأنه يعلم أن في النسيان نجاته وخلاصه..

ولكن صوت نانا كان يرد في أذنيه في كل ساعة من ساعات الليل والنهار. وذكرى لمساتها. وقبلاتها ونعومة بشرتها. كانت ترسل الدم الحار في شرايينه ،. فنسى حادث فونتان. ونسى الكلمات التي بصقتها نانا في وجهه. وأصبح لا يذكر إلا أنه فقد نعمة الحياة وسعادتها ومتعة جسده. وشعاع النور الذي يضيىء ظلام حياته.. كل أولئك قد ذهب بذهاب نانا.

فلما همس لابوردتي في أذنه:

– المقصورة الثالثة إلى اليمين.

أحس بأن قلبه قد وثب في صدره وثبة عنيفة ثم كف عن الحركة.. وبأن قدميه لا تقويان على حمله. فوقف في مكانه لحظة. ثم تقدم مدفوعًا بقوة لا تغلب.

وقرع باب المقصورة.. وسمع صوتها وهي تقول في همس:

– أدخل..

فدخل. وتبادلا نظرة طويلة صارمة، ورأت نانا أنه جامد في مكانه، لا يبدي حراكًا، فقالت ضاحكة:

– هل عدت أيها الغر ؟

وابتسم موفات عندما وصفته بأنه "غر" واعتبر هذا الوصف تدليلا وتدليها. واغتبط به كما لو كان لقبًا من ألقاب الدولة. وقال لها إنه سعيد بلقائها، ثم لم يسعفه ذهنه المضطرب بأكثر من هذا.. وبقى واقفًا يلتهمها بعينيه ولا يبدي حراكًا كما لو كان قد سمر في الأرض.

وأرادت نانا أن تعجل بالتفاهم، فقالت:

– أليس عندك ما تقوله.. إنك أردت مقابلتي. وهأنذا قد جئت. وها أنت تنظر إلي كالصنم فتكلم، لقد كنا كلانا على خطأ. ولكني صفحت عنك.

ثم استطردت فقالت إن الماضي قد انقضي، وليس من الخير أن ينبش وأنهما الآن قد تصافحا. ويجب أن يظلا صديقين.

فغمغم موفات في شيء من القلق:

– نظل صديقين؟!

– نعم. لنكن صديقين.. فإنني أعتز بصداقتك وتقديرك.. وكي نكف لصداقتنا الدوام يجب أن نجعل الصلة بيننا بريئة قائمة على الاحترام المتبادل.

فزاد قلق الكونت. وقال بلسان متلعثم:

– أصغي إلى إنني جئت الآن في طلبك. وأنت تعلمين ما أعني. إنني أرجو أن تعود الصلة بيننا كما كانت. فهل توافقين؟

فأطرقت نانا برأسها.

كانت قد لاحظت اضطرابه وقلقه. فأرادت أن تضاعفهما. وأبطأت في الإجابة.. وأخيرًا رفعت رأسها.. ورمقته بنظرة جدية ورزينة. وقالت بصوت حزين.

– هذا مستحيل.. لا يجب أن نعيد هذه التجربة.

فهتف في ألم:

– ولماذا؟

– لماذا؟! لأن هذا مستحيل.. ولأنني لا أريد...

فنظر إليها في فضول وذهول.. وجثا تحت قدميها فجأة ولكنها إنكمشت. وغمغمت:

– دع هذه الأعمال الصبيانية.

ولكنه لم يصغ إليها.. ودفن وجهه في حجرها.. وهو يرتجف من قمة رأسه إلى أخمس قدميه.

قال لها:

– أصغي إلي يا نانا.. لقد وجدت منزلًا أنيقًا في حدائق "مونسورو".. وسأوفر لك كل أسباب النعمة والهناء.. وأجيبك إلى كل ما تطلبين.. وأحقق أعظم رغباتك وأتفهها.. وأتفهها.. وأكون عبدك الذليل.. بشرط واحد.. هو أن لا يكون لك عبد سواي.. وأن لا يكون لي منافس فيك.. فإذا وافقت.. أحطتك بما تشتهين.. من ثياب ومجوهرات.. ومركبات وخدم.

وكانت نانا تهز رأسها.. بعد كل عبارة من عباراته.. ثم ضاقت ذرعًا بعروضه.. وقالت في ضجر:

– كفى.. كفى مساومة.. قلت لك إنني لا أريد.

فتهالك على أحد المقاعد.. ودفن وجهه بين يديه.. ونهضت نانا وأخذت تسير في المقصورة ببطء.. وبرود.. وأخيرًا وقفت أمامه وقالت في صراحة قاسية:

– واعجبًا لكم أيها الأغنياء.. أفتحسبون أن في إستطاعتكم دائمًا أن تبتاعوا بنقودكم كل ما تريدون؟ ماذا تهمني القصور والمجوهرات والمركبات؟! لو أعطيتني كل باريس.. ما تزحزحت عن موقفي. وما أنيت عن عزمي.. إنني أعاشرك في أحقر الأكواخ إذا أحببتك.. ولا أعيش في أفخم القصور ما لم يكن قلبي معي..كلا.. إنني لا أعبأ بالمال.. إنني أطأه بقدمي.. وأبصق عليه.

واصطنعت الإشمئزاز.. ثم تنهدت واستطردت بصوت حزين:

– إنني أعرف شيئًا أعز علي من المال.. وكم أتمنى الحصول عليه!! فرفع موفات رأسه.. ولمع في عينيه بريق الأمل:

قالت:

– ولكنك لا تستطيع أن تمنحني ما أتمنى. لأنه ليس في متناول يدك.. ولهذا أحدثك به.. إنني أتمنى الحصول على دور المرأة الشريفة في المسرحية الجديدة.

فغمغم موفات في دهشة:

– أية امرأة شريفة ؟!

– "الدوقة هيلين".. إنني أطمع في هذا الدور ولا أطمع في شيء سواه.. وإذا حسبوا أنني أقبل دور "أوجستا" كانوا على خطأ لأنه دور صغير لا قيمة له، ثم إنني تعبت من القيام بدور الغانية المستهترة.. وإذا قمت حسب الناس أنني لا أجيد سواه على المسرح أو خارجه.. ولكنني أريدهم جميعًا على أن يفهموا.. أنني أستطيع أن أجيد دور المرأة الكريمة الشريفة متى أردت. وليس في هذا المسرح

ممثلة واحدة تستطيع اصطناع العظمة والنبل كما أستطيع.. نعم.. إنني أحلم بهذا الدور.. وسأكون أتعس النساء إذا لم أحصل عليه.

قالت ذلك بصوت ثاقب.. وبلهجة تنم عن الجد والإخلاص.. وأصغى إليها موفات وهو مطرق برأسه.. ولكنه لم يجب.

– هل فهمت؟! إنني أريدك على أن تقنعهم بإسناد هذا الدور إلي.

فذهل. وقال في يأس:

– ولكن هذا مستحيل.. إنك اعترفت بنفسك منذ لحظة أن هذا في متناول يدي.

فهزت كتفيها وقالت:

– ولكنك تستطيع أن تحاول.. إذهب إلى "بوردنيف" وقل له أنه يجب أن يسند إلى هذا الدور.

– إن بوردنيف في أشد الحاجة إلى المال.. وأنت غني وفي استطاعتك أن تقرضه.

فصمت.. وضايقها صمته.. فصاحت:

– حسنًا.. لقد فهمت.. إنك لا تريد إغضاب روز منيون.. وأنا لم أحدثك عنها قبل الآن.. ولكن الموضوع لا يستحق أن يكون موضوع حديث.. وبحسبك أن تعلم أنه متى أقسم الرجل للمرأة أن يحبها إلى الأبد.. فليس من الوفاء أن يرتمي في أحضان أول امرأة تصادفه غداة افتراقهما.

إنني لا أريد أن يكون لي شأن بهذه المرأة أو بزوجها.. فقد كان يحسن بك أن تقطع صلتك بهما قبل أن تفكر في مقابلتي.

فهتف:

– إنني سأقطع صلتي بهما في الحال.

– إذن ماذا يمنعك من العمل؟ إن بوردنيف هو السيد هنا.. وإذا كان لفوشيري بعض الأهمية بصفته مؤلف المسرحية...

ولم تكمل عبارتها.. إذ أحست بأنها قد لمست أدق نقطة في الموضوع..

وأطرق موفات برأسه وأصغى إليها في صمت.

كان قد آثر أن يتجاهل الصلة بين فوشيري وسابين. وانتهى إلى إيهام نفسه بأنه كان على خطأ في شكوكه وريبته.. ولكنه ظل يضمر لفوشيري غير قليل من الحقد والموجدة.. وكانت نانا تجهل ما آلت إليه الصلة بين الزوج والعشيق... فاستطردت وهي تتحسس طريقها:

– ولكن فوشيري ليس رديئًا كما يتوهم الكثيرون.. أنه طيب القلب. ومتى ذهبت إليه..

ولكن موفات نفر من فكرة السعي لدي فوشيري.. وقاطعها بحماسة:

– كلا.. كلا.. وألف مرة كلا..

فصمتت. وخطر لها أن تقول:

– إن فوشيري لن يرفض لك سؤالًا..

ولكنها أشفقت ألا تترك هذه الكلمات أثرها المطلوب.. وقنعت بأن نظرت إليه.. وأودعت نظرتها المعني الذي أرادته.

ورأى موفات نظرتها.. فامتقع لونه.. وأشاح بوجهه.. وهو يقول:

– ليس هذا في مقدوري. اطلبي ما شئت. أما هذا فلا.

ولم نانا تعمد إلى الجدل والمناقشة..كانت تعرف وسيلة أخرى لاقناعه،

فاقتربت منه، ومست جبينه بأناملها. ودفعت رأسه بلطف إلى الوراء.. وطبعت على شفتيه قبلة طويلة.وارتجف الكونت. وسرت في جسده رعدة شديدة. وتألقت عيناه الحزينتان ببريق كاللهب.. وانتصبت نانا واقفة. وقالت له ببساطة:

– إذهب.

فأطاع. وخرج. ولكنه ما كاد يتقدم بضع خطوات.. حتى لحقت به. وأحاطت عنقه بساعديها. وقالت بلهجة فاتنة. هي تسند رأسها إلى صدره:

– وأين ذلك القصر الذي حدثني عنه؟!

فأجاب:

– في شارع "فبليبه".

– وهل أعددت المركبات؟

– نعم.

– والمجوهرات؟!

– والمجوهرات..

– ما أطيب قلبك.. سوف ننعم بسعادة لا مثيل لها، لأنك بدأت تفهم حاجات المرأة. وما دمت ستعمل على تحقيق سائر رغباتي فما حاجتي إلى غيرك من العشاق؟!

وقبلته مرة أخرى ولما ابتعد. تنفست الصعداء.

وابتعد موفات وهو يتعثر في مشيته.. وطنين مبهم يملأ أذنيه وقوة لا تغلب.. تدفعه إلى الأمام. ولكن ماذا يقول لهم؟! وكيف يعقد هذه الصفقة!؟

ووقف بين الكواليس مفكرًا مهمومًا. وجعل ينظر إلى خشبة المسرح ولا يرى شيئًا، ثم جمع أطراف شجاعته.. واقترب من بوردنيف.. وقال له في صراحة:

– إن نانا تريد الحصول على دور روز.

فذهل بوردنيف وهتف:

– هل جنت هذه المرأة؟

ونظر إلى الكونت. ولاحظ اضطرابه. وشحوب لونه وسأل نفسه:

– بحق الشيطان. ما معنى هذا ؟

وساد بينهما صمت طويل. وقال بوردنيف لنفسه أن من المضحك إسناد دور الدوقة هيلين إلى نانا.. هذه المرأة العاتية المديدة القامة.. إنها تهوي بهذه الشخصية إلى الحضيض. وتقضي على المسرحية الجديدة بالفشل والسقوط.. ولكن.. من الخير على كل حال أن يعرف رأي المؤلف.

ونادى فوشيري.. قبل أن يتمكن موفات من منعه.. ورأى الكونت من اللياقة أن يفسح السبيل للرجلين، فابتعد قليلًا. وتظاهر بالإهتمام بمناظر المسرحية، وأقبل فوشيري وهو يقول: ماذا تريد؟

فأجاب بوردنيف:

– لا شيء.. قد خطر لي خاطر.. وأريد أن أعرف رأيك.. فقط يجب أن تفكر وتتروى قبل أن تجيب..ما قولك في إسناد دور الدوقة إلى نانا؟!

فذعر فوشيري وصاح:

– كلا.. وألف مرة كلا.. هل أنت جاد فيما تقول؟! ولكن ذلك سوف يضحك الجمهور..

– لا بأس من أن يضحكوا. فكر يا صديقي. إن الكونت موفات يوافق على هذا الرأي.

واقترب موفات في تلك اللحظة وقال:

– نعم.. أنه رأي لا بأس به..

– فتحول إليه فوشيري.. وصعده بنظره..

ما شأن هذا الرجل.. ولماذا يضع أنفه فيما ليس من عمله..

أجاب في غلظة:

– كلا.. كلا.. إن نانا تجيد دور البغي، وذلك طبيعي. إسناد دور المرأة الشريفة إليها، فتكليف لا طاقة لها عليه..

فقال موفات بجرأة:

– أؤكد لك أنك مخطيء.. لقد طبت إلى في التو واللحظة.. أن أبذل قصارى جهدي لكي..

فدهش فوشيري وقاطعه:

– في التو واللحظة!! وأين هي؟!

– إنها هنا.. وقد أكدت لي أنها سوف تجيد هذا الدور.

وفهم فوشيري.. وهز رأسه.. وقال على سبيل المجاملة:

– ربما كنت مخطئًا.. وربما كان في مقدورها حقًّا أن تجيد هذا الدور.. ولكن الدور قد أسند إلى روز ومن المستحيل أن تنتزعه منها..

فقال بوردنيف:

– هذه مسألة يمكن تسويتها، وأدرك فوشيري أن الرجلين على اتفاق.. وأشفق أن تكون مسرحيته هي الضحية.

فصاح مستنكرًا:

– كلا.. كلا.. إن في إسناد الدور إليها معناه القضاء على المسرحية.. وساد صمت مؤلم.. ووجد بوردنيف أن من الحكمة أن يتراجع بضع خطوات.. عسى أن يتم الرجلين تسوية الخلاف فيما بينهما..

وعندئذ رفع موفات رأسه.. وقال بصوت خافت:

– هب أنني طلبت منك ذلك كمعروف..

– مستحيل..

– إنني أرجوك..

ونظر إلى فوشيري بإمعان وقرأ هذا في نظرته معنى التهديد، واستسلم في الحال.. وغمغم بلسان متلعثم:

– على رسلك.. ولكنها لن تنجح.. وسوف ترى..

وهمس موفات وهو يبسط يده إلى غريمه:

– شكرًا لك..

وعندئذ اقترب بوردنيف وهو يقول:

– يخيل إلى أنكما اتفقتما.. وأنه لم يبق إلا التفاهم مع منيون لحمل زوجته على النزول عن دورها..

ودعا إليه مينون.. وقال له في صراحة أن النية قد اتجهت إلى إسناد دور الدوقة هيلين إلى نانا.. وغضب مينون.. وضرب الأرض بقدمه.. قائلًا إن المسألة مسألة كرامة قبل كل شيء.. وإن إنتزاع الدور من زوجته يسيء إلى سمعتها كممثلة موهوبة.. وأنه لا يري بدًا في هذه الحالة من إلغاء العقد المبرم بينها وبين بوردنيف.. ورفع الأمر إلى القضاء في طلب التعويض..

وبدأت المساومة في قيمة التعويض.. وأصر مينون على عشرة آلاف فرنك.. وفتح بوردنيف فمه في دهشة.. وهم بالرفض، ولكنه شعر بأصابع موفات تضغط على ساعده.. وفهم إن الكونت على استعداد لدفع هذا المبلغ..

وفي هذه الأثناء. لم يكن للممثلين بين الكواليس حديث إلا عن نانا وعما يقال عن إعتزامها العودة إلى المسرح.

وأصغي فونتان إلى حديث زملائه. وتظاهر بقلة الاكتراث. وغمغم قائلًا: إنه ليس من اللياقة أن يهجو امرأة كان يحبها.

والواقع.. إنه كان يشعر بالحقد على تلك المرأة الفاتنة التي عجزت عن إرضائه.. وحمل لابورديت إلى نانا نبأ نجاح المفاوضات. فتأبطت ساعده. ودخلت المسرح منتصبة القامة مرفوعة الرأس. تمشي مشية الظافر.

نعم. يجب أن تبرهن لجميع هؤلاء الأوغاد على أنها تستطيع أن تكون امرأة عظيمة نبيلة متى شاءت، ولكنها أوشكت أن تفسد هذه العظمة وهذا النبل عندما رأت روز مينون وهمست:

– إن بيننا حسابًا. سوف أصفيه في أحد الأيام. فتذكري هذا.

وسمعت نانا تهديد غريمتها وتميزت غيظًا. وأسندت يديها على فخذيها. وهمت أن ترسل من فمها مختارات من قاموسها. ولكنها عادت فضبطت نفسها. ورفعت رأسها. وقالت بلهجة دوقة عظيمة تعنف وصيفتها:

– ماذا؟ يخيل إلى أنك جننت يا عزيزتي.

ومضت في سبيلها. ووقع بصرها على فونتان. وخطر لها في الحال أن تخلق حولها جوًا يساعد على نجاحها. فاقتربت من الرجل الذي أذلها وعلمها درسًا كان نقطة جديدة في حياتها. وبسطت إليه يدها وقالت بهدوء:

– هل أنت بخير؟!

– نعم.. وأنت؟

– إنني في خير حال. شكرًا لك.

كانا كأنهما افترقا بالأمس فقط. على أحسن ما يفترق الأصدقاء.

وبعد شهر. عرضت "السيدة العظيمة" على مسرح "الفاريتيه" وكان دور "الدوقة هيلين" كارثة على نانا..لم تستطع إجادة هذا الدور... ولم يقابلها النظارة بصفير الإستهجان. ولكنهم ضحكوا ساخرين.. وعرفت روز مينون كيف تثأر لنفسها.. وكانت– وهي بين النظارة– تقابل ظهور نانا على المسرح بضحكة ساخرة رنانة.. فلا يلبث النظارة أن يحذوا حذوها.

وقالت نانا لموفات بعد التمثيل:

– هذه مؤامرة دنيئة لحمنها الحسد.. وسداها البغض. ولكن ماذا يهمني إعجاب الباريسين أو سخريتهم؟ سوف أبرهن لهم على أنني "سيدة عظيمة" بكل معنى الكلمة.

الفصل السابع عشر

ومنذ ذلك العهد. أصبحت نانا "سيدة عظيمة" بالمعنى الصحيح فصورتها تزين نوافذ الحوانيت.. واسمها يملأ الصحف.. وحفلاتها وولائمها هي حديث الناس في المجالس. إذا مرت بمركبتها في الشوارع أو في غابة بولونيا. نظر إليها الناس في فضول وحماسة وحيوها كما تحيا الملكات.. وإذا ارتدت ثوبًا.. أو ابتكرت زينة قلدتها كرائم السيدات.

وكان غريبًا حقًا.. أن تفشل في دور "السيدة العظيمة" على خشبة المسرح.. وأن تصيب فيه كل هذا النجاح على مسرح الحياة.. في غير تصنع أو تعمل.

هجرت نانا المسرح. في اليوم الثالث بعد عرض "السيدة العظيمة" وتركت بوردنيف على شفا الخراب.. رغم المساعدة المالية التي تطوع بها موفات.. وقالت له في صراحة أنها لم تعد تعبأ بالشهرة المسرحية ولا بإعجاب الجمهور..

والواقع.. أنها كانت تشعر بالحقد على الجمهور الذي خذلها وسخر منها.. فأضافت هذا الدرس الجديد.. إلى الدرس الذي تعلمته من فونتان.

ولم يخطر لها قط أن تثأر لنفسها من ذلك الممثل، ذلك لأن حب الانتقام لم يكن من رذائلها. لأنها لم تكن تحفل بالماضي أو المستقبل فكل ما احتفظت به من ماضيها هو حب الظهور.. وإنفاق المال بغير حساب.. واحتقار الرجال الذين يمدونها بهذا المال... والاستمتاع بجلب الخراب على عشاقها والمعجبين بها.

وما إن هجرت نانا المسرح حتى انصرفت إلى تنظيم شؤونها وتدبير حياتها.. وأحاطة نفسها بكل مظاهر النعمة والبذخ... فابتعات ثلاث مركبات.. وتسعة جياد.. وحشدت في بيتها جيشًا من الخدم والحشم.. واستردت وصيفتها لويز..

واستبدلت أثاث القصر الذي ابتاعه موفات لأجلها.. بأثاث آخر جديد يلائم ذوقها وجنونها بالإسراف ومظاهر الترف.

وكانت قد عنيت منذ البداية بتنظيم علاقتها بموفات على أساس ثابت.. فاتفقا على أن يمنحها الكونت شهريًا أثنى عشر ألف فرنك فيما عدا الهدايا.. وأقسمت نانا مقابل ذلك على الوفاء والإخلاص...

ولكنها أصرت على أن يكون لها مطلق الحرية في استقبال من تريد من أصدقائها.. ما دامت تحتفظ له بمواعيد معينة.. وطالبته بأن يثق فيها ثقة عمياء.. وحرصت في كل وقت على أن تكون لها السيطرة التامة.. واستثمرت خوفه من أن يفقدها لدعم سيطرتها ونفوذها.. فكانت إذا بدرت منه بادرة تدل على الغيرة عبست وهددت بهجره.. وقالت أنه لا محل للحب.. حيث لا محل للثقة، وأنها تؤثر الحياة في كوخ حقير مع الحرية.. على الحياة في ذلك القصر مع الهوان والاستعباد.

وهكذا.. لم ينقضي الشهر الأول.. حتى تقهقر الكونت على طول الخط.. وأذعن لسائر مطالبها.. وأصبح أطوع لها من بنانها.

ومع مرور الأيام.. عرفت نانا بما اصطنعت من دلائل العطف والاهتمام أن تتغلغل في شؤون الكونت.. وتفرض إرادتها على تصرفاته.. فكان إذا جاءها عابسًا متهجمًا.. ابتسمت له. ولاطفته وهونت عليه واستفسرت منه عما يحزنه.. وبذلت له النصح.. وعوضت عليه عطف الزوجة.. وحنان الأم.. وهكذا عرفت أدق شؤونه الخاصة والعامة.. ومبلغ ثروته وتطور علاقاته بامرأته وابنته.. وكانت دائمًا تصدر في نصائحها له عن إخلاص وإنصاف وبعد نظر. فتضاعفت ثقته فيه. وزاد اعتماده عليها.

ولم يبد على نانا ما يدل على الحنق والتحزب.. إلا عندما ذكر لها موفات.. أن داجينيه قد تقدم إليه في طلب يد ابنته ستيللا.. وأنه لم يعط الشاب جوابًا شافيًا.

وكان داجينيه.. منذ بدأ يفكر جديًا في مصاهرة الكونت.. قد عمد إلى ذم نانا.. فوصفها بأنها مغامرة أفاقة. وأنها تعمل على خراب أسرة موفات، فعز على نانا أن يقابل داجينيه إحسانها إليه بالإساءة ووجدت الفرصة سانحة لأن تلقي ثروته على صديقاته حتى بات لا يجد ثمن طعامه.ولكن موفات التمس له عذرًا من شبابه.. وطيشه.. وقلة تجاربه وقال أنه ارعوى الآن عن غيه وأصبح مثال الجد والاستقامة.

ولكن نانا لم تكن المرأة التي ترضي بالخذلان.. فصممت على أن تضع بين داجينيه وستيللا حاجزًا من فولاذ، وقالت لموفات أن داجينيه كان عشيقها.وإنها إذ تتكلم عنه.. إنما تصدر عن علم ومعرفة بحقائق الأمور. وحينئذ امتقع وجه موفات.. ولمعت عيناه.. وغمغم:

– وإذن يجب أن ينتهي كل شيء بينه وبين ابنتي.

وذات مساء. لم تتورع نانا– بعد أن أغدقت حبها وعطفها على موفات– عن أن تنظر إلى فانديفر بعين الإعجاب.

كان هذا الشاب الكريم المحتد يتردد عليها منذ أيام. ويحمل إليها الهدايا وباقات الزهر. وكانت نانا تصغي إلى مغازلاته.. لا عن رغبة فيه.. وإنما لكي تثبت له أنها تستمتع بكل حريتها. وأنها ليست عبدة موفات أو سواه..

ولم يخطر لها في البداية أن تستنزف أمواله.. لكن حدث في ذلك المساء.. أنه تطوع بشهامة لسداد دين كبير كانت قد نسيت التحدث عنها إلى موفات. ووجد الشاب أن الفرصة سانحة للكلام فعرض عليها وقبلت أن يمنحها عشرة آلاف فرنك شهريًا.

وكان لابورديت –بما عرف عنه من دقة الملاحظة وبعد النظر– قد أفهمها أن تقود الكونت لا تكفي لتسيير دقة الأمور في قصر عظيم كهذا أشبه بالبالوعة.. وأنه

يتعين عليها –إذا أرادت ألا تتورط في ديون جديدة– أن تضمن مصدرًا آخر للإيراد..

وهكذا لم تجد حرجًا في قبول اقتراح فانديفر.. ولكنها لم تجد حرجًا في قبول اقتراح فانديفر.. ولكنها اشترطت عليه. ما إشترطت على موفات من قبل. أي الاستمتاع بكل حريتها. وتحديد ساعة معينة لزيارته.

وكان فانديفر في ذلك العهد ينفق آخر ما بقي من حطام ثروته العظيمة التي ابتاعها الغانيات.. وموائد الميسر.. وجياد السباق.. وقد رأى من حقه أن يقدم– على حد قوله– على حماقة أخيرة وأن يقدم عليها بكل مظاهر العظمة والبذخ.

ومن ثم ارتكب هذه الحماقة.. وهو يعلم علم اليقين أن نانا ستلتهم ما بقي من ثروته في لقمة واحدة.. ولكن كان يرغب في الفخر والتسلية أن يرى تراث أجداده يتوارى في جوف هذه الغانية.

ولهذا لم يتردد في قبول ما اشترطته نانا. وكان أقل تواضعًا وأكثر قناعة من موفات. فلم يطالبها بأن تقسم على الوفاء والإخلاص لأنه كان يعرف الحقيقة. وأن تظاهر بغير ذلك.. كان يريد فقط أن ينعم بساعته. وأن تعرف باريس ذلك.

وهكذا نظمت نانا شؤونها.. وسار كل شيء في القصر بانتظام الساعة الدقاقة. تحت إشراف لويز الوصيفة. وجوليان كبير الخدم.

وكانت "لويز" قد وصفت عمل سيدتها– حين أبرمت صفقتها مع فانديفر– بأنه ضرب من الحماقة والطيش.. وأشفت من مغبته كل الإشفاق. ولكنها لم تلبث أن تنبهت إلى حقيقة لا شك فيها. وهي أن غنائم الوصيفة تزداد دائمًا بمقدار طيش سيدتها.

وأخذت الهدايا تنهمر على القصر كالمطر.. وراحت لويز تصطاد الذهب في الماء العكر.

الفصل الثامن عشر

وفي صباح أحد الأيام. وكان موفات لا يزال في مخدع نانا.. دق الجرس. ففتحت لويز الباب. ورأت نانا أمامها شابًا يرتجف.

هتفت:

– يا إلهي.. هذا جورج.

وهجم عليها جورج. واحتواها بين ساعديه. وقبلها بحرارة.. فقاومته في سكون وهمست في ذعر:

– دعني. دعني. إنه هنا. وأنت يا لويز. هل جننت؟ كيف بحرارة.. فقاومته في سكون. وهمست في ذعر:

– دعني. دعني. إنه هنا. وأنت يا لويز. هل جننت؟ كيف سمحت له بالدخول. اذهبي به إلى غرفة الطعام. وسألحق به.

واستطاعت لويز بعد جهد أن تحمل الشاب على الأذعان.

وبعد بضع دقائق دخلت نانا غرفة الطعام. وعانقت جورج في رفق. فنظر إليها الشاب. واغرورقت عيناه الصافيتان بدموع الفرح وقال لها أنه سعيد بلقائها. وأن أمه قد سمحت له بالسفر إلى باريس ظنًا منها أنه عاد إلى صوابه.. وأنه ما كاد يضع قدميه في باريس حتى أسرع إليها.

وكان يتكلم. وهو ممسك بيديها بين يديه المرتجفين. وسألها أخيرًا بلهجة صبيانية:

– وهل ما زلت تحبينني حقًا؟

فأجابت في ضجر وهي تسحب يديها من قبضتيه:

– أنت تعلم إنني أحبك. ولكن لا يجب أن تهبط هكذا من السماء دون أن أكون على علم.

أنت تعلم أنني لا أستمتع دائمًا بحريتي.. فكن حكيمًا.

وكان جورج قد وثب من المركبة التي أقلته.. ودخل القصر دون أن يلتفت يمنة أو يسرة.. ودون أن يلاحظ ما يحيط به من مظاهر الترف... ولكنه لاحظ ذلك الآن. وقال بحزن:

– نعم.. نعم.. قد فهمت..

وعندئذ قالت له أنه لا يجب أن يزورها في الصباح. وأنها تستمتع بحريتها فيما بين الساعة الرابعة والساعة السادسة مساء.. وفي استطاعته أن يزورها كما يشاء خلال هذه الفترة..

وأصغى إليها الشاب.. وهو واجم مكتئب.. ثم نظر إليها بعينين فيهما كثير من التوسل والرجاء.. فقبلت جبينه وقالت بلطف:

– كن عاقلًا.. وسأبذل جهدي.

والواقع.. أن اهتمام نانا به كان قد أدركه الفتور..كانت ترى فيه فتى وديعًا.. طيب المعشر.. يجوز لها أن تستقبله بروح الزمالة والصداقة.. ولا شيء غير ذلك، ولكنها رأت على وجهه فيما بعد من دلائل الحزن والتعاسة ما جعلها تمد له حبل الأمل.. وتسمح له بالتسكع حولها.. فلم يلبث أن أصبح جزءًا من محوطاتها.. أو على الأصح.. أصبح أشبه بكلبها الصغير.. كلاهما يتبعها أينما ذهبت.. ويتمدد تحت قدميها كما جلست وكلاهما ينعم بنصيب متساو من بسماتها.. ولمساتها..

وما أبطأت مدام هيجون أن علمت بأن ولدها قد وقع مرة أخرى في قبضة

تلك المرأة المخيفة.. فأسرعت إلى باريس.. واستنجدت بولدها الأكبر الكابتن فيليب لكي يعمل على إنقاذ شقيقه..

ولما كان جورج يخشى شقيقه الأكبر.. ولا يستطيع أن يكتم عن نانا شيئًا من أحزانه ومسراته ومخاوفه.. فإنه راح يحدثها عن متاعبه.. ويصف لها شقيقه بأنه فظ غليظ القلب.. لا يتورع عن الإلتجاء إلى أشد الوسائل عنفًا. قال لها:

– إن أمي لن تأتي إلى هنا.. ولكني واثق من أنها سترسل أخي للبحث عني..

فقالت نانا:

– بودي أن أراه هنا.. وسواء كان ضابطًا أو غير ضابط.. فسيعرف جوليان كيف يلقي به إلى الخارج.

وانقضت الأيام. ولم يأت فيليب. فقالت نانا:

– لماذا لم يأت أخوك ؟! يخيل إلى أنه جبان.

ولكن حدث في صباح اليوم الثاني.. بينما كان جورج يداعب الكلب الصغير تحت قدمي نانا.. إن دخل جويان.. وقال لسيدته أن الكابتن فيليب هيجون يطلب مقابلتها.

فذعر جورج وامتقع لونه.. فغمغم:

– هذا ما توقعته.

ثم راح يرجو نانا أن تعتذر عن مقابلة أخيه.. ولكنها رفعت رأسها بكبرياء.. وقالت وعيناها تتألقان:

– ولماذا أعتذر عن مقابلته؟ هل تظن أنني أخشاه ؟

ثم تحولت إلى كبير الخدم وقالت:

– اذهب بهذا الزائر إلى غرفة الاستقبال يا جوليان.. ولينتظر هناك حتى يروقني أن أستقبله.

وأخذت تسير في الغرفة جيئة وذهابًا.. وهي لامعة العينين موردة الخدين.. وتقف أمام مرآتها بين الفينة والفينة.. لتبتسم إعجابًا بنفسها.. أو لترفع خصلة شعر عن جبينها. بينما كان جورج يرتجف هلعًا من هول الموقف المنتظر.

قالت له:

– أظن أن الانتظار قد أفاده، فاتركني الآن لكي أستقبله.

فغمغم وهو ينتزع قدميه من الأرض انتزاعًا:

– لا تنسي أنه أخي.

– كن مطمئنًا. إذا تأدب. فسأكون أكثر منه أدبًا.

ودخل الضابط الشاب.

وحاول جورج أن يسيطر على اضطرابه وفضوله. وأن ينتظر النتيجة في صبر وهدوء. ولكن قوة لا تغلب. دفعته إلى الإنصات بالباب.. بيد أنه لم يسمع من حديثهما إلا النزر اليسير. فقد كان الباب سميكًا والحديث خافتًا. وفقط التقطت أذنه هذه الكلمات: "شرف الأسرة" "مجرد طفل".

وانتظر أن يسمع صوت نانا. وهي تصرخ في وجه أخيه. وتدعوه مغفلًا. وتأمره بالانصراف.

ولكن شيئًا من هذا لم يحدث.. كان صوت نانا همسًا. وصوت فيليب أشبه بغمغمة رقيقة.

ثم سمع شهقة. جعلته يجمد في مكانه.. هل كانت نانا تبكي؟!

وتردد بين أن يلزم السكون إلى النهاية. وبين أن يهجم على الغرفة ويقول لأخيه أنه جبان. وأن من النذالة أن يخدش شعور امرأة ويبكيها، ولكن حدث في هذه اللحظة أن أقبلت "لويز" وسمع جورج وقع أقدامها. وخجل من أن يضبط متلبسًا باستراق السمع.. فابتعد عن الباب مسرعًا.

وشرعت الوصيفة في ترتيب أثاث المكان.. فسار جورج إلى النافذة.

وألصق جبينه بزجاجها.. وانتظر.

سألته لويز بعد لحظة:

– هل هذا الضابط شقيقك؟

فأجاب بصوت مختنق:

– نعم.

– وهل أزعجك قدومه؟

فأجاب بعد تردد:

– نعم.

فهزت لويز كتفيها.. ومضت في عملها. ثم قالت بعد لحظة:

– كن مطمئنًا. سوف ينتهي كل شيء على ما يرام.

ولم تزد.. ولكنها لم تبرح المكان.. واستمرت في عملها، خيل إلى جورج أنه لا فائدة منه وأنها إنما تتكسع لكي تمنعه من الإنصات إلى ما يقع في الغرفة المجاورة.. كان ممتقع اللون مضطرب الحواس.. ينظر إلى الباب تارة. وإلى لويز تارة أخرى.. وخيل إليه أن المقابلة قد طالت أكثر مما يجب.. وراح يسأل نفسه:

– ترى هل ما زالت تبكي؟!

وبعد قليل.. انصرفت لويز. فأسرع جورج إلى الباب. وألصق أذنه بثقب المفتاح. وأدشه أن يسمع ضحكة رنانة.

ثم سمع وقع أقدام فيليب.. وصوت الأولى وهي تودع أخاه في أدب ولطف.. فانتظر لحظة.. ثم دخل الغرفة.. فوجد نانا أمام المرآة.. تنظر إلى نفسها بأنعام.

سألها بصوت خافت:

– ماذا حدث؟

– ماذا حدث؟.. لا شيء.

ثم استطردت بقلة إكتراث:

– ماذا كنت تعني حين قلت إن أخاك فظ غليظ القلب؟ أنه مثال لدماثة الخلق والظرف.

– إذن قد تفاهمتما بالحسنى؟

– طبعًا.. هل ظننت أننا سنتلاكم؟

ولم يستطع جورج أن يفهم. وغمغم بلسان متلعثم:

– لقد خيل إلى.. أنني سمعت.. هل كنت تبكين؟

فدارت على عقبيها بسرعة وهتفت:

– كنت أبكى! أنا أبكي؟ إنك تحلم.. ولماذا أبكي؟

– إذن فإن أخي..

فقاطعته:

– إن أخاك يا غلامي.. قد فهمني في الحال.. ولو أنني كنت من طغمة الغانيات

المبتذلات.. لكان من حقه أن يتدخل في الأمر إشفاقًا على شبابك ومستقبلك.. ولكنه فهمني من أول نظرة وأدرك أن لا خطر عليك مني.. فتصرف تصرف الرجل المجرب الخبير بشؤون الحياة.. فلا تجزع بعد الآن.. إنه سيطمئن أمك..

ثم استطردت وهي تضحك:

– وفضلًا عن ذلك. فإنك سوف ترى أخاك هنا. أنني دعوته لزيارتي فوعد بالحضور.

فامتقع وجه جورج وهتف:

– آه.. أنت دعوته لزيارتك!

ولم يزد.. ولم يدر بينهما حديث عن فيليب بعد ذلك.. ولكنه اطمأن إلى هذه النتيجة، لأنه كان يؤثر الموت على فراق نانا، على أنه أحس في أعماق نفسه بألم مبهم.. لم يفهم له سببًا.. ولم يحدث به أحدًا.. واقترن هذه الألم بحيرة شديدة.. حين عاد إلى البيت في المساء.. فاستقبلته أمه وعلى شفتيها ابتسامة ارتياح وطمأنينة.. أدرك أن فيليب قد نجح في طمأنتها. ولكن كيف؟

وفي مساء اليوم التالي.. دهش جورج ووجم حين رأى أخاه في بيت نانا.. ولكن الضابط الشاب كان مرحًا طروبًا في ذلك المساء.. فربت على خد أخيه.. ولم يوجه إليه كلمة واحدة لها معنى النصيحة أو التعنيف.وأحمر وجه جورج. وشعر بمزيج من الحيرة والاشمئزاز حين رأى أخاه يتحدث ويضحك في غير كلفة.. كأن بينه وبين نانا صداقة أعوام.. ولكن هذا الشعور أفسح فيما بعد سبيلًا للقلق والغضب.. حين تعاقبت زيارات فيليب. وأصبح الإخوان يلتقيان في بيت نانا كل يوم تقريبًا.

وفي تلك الفترة من حياة نانا. لم تكن للغانية رغبة لا تجاب. أو طلب لا يلبى.

وقد حدث بعد ظهر أحد الأيام. أن خالف موفات النظام الذي وضعته نانا لزياراته. وذهب إليها في الساعة الرابعة. وبيده تذكرة لحفلة تمثيلية ستقام في الليل التالي. ولما أنبأته "لويز" بوجود فيليب وجورج هيجون.

ترك التذكرة عند الوصيفة. وانصرف دون أن يقابل نانا. وهو يحسب أنه سلك سلوك العاشق المطمئن إلى إخلاص عشيقته، بيد أنه ما كاد يزورها في المساء.. حتى استقبلته باشمئزاز المرأة المهينة وقالت له:

– سيدي.. أنا لا أظن أنني فعلت ما يستوجب الإهانة. ويجب أن تفهم أنني أستقبل أصدقائي علانية.. وإنني ما دمت في البيت فإن في مقدورك أن تدخل.. وتجلس مع الجالسين.

فذهل موفات وأراد أن يوضح موقفه فغمغم:

– ولكن يا عزيزتي..

فقاطعته:

– أنك لم تدخل، لأنني كنت أجالس بعض الأصدقاء. فهل حسبت أن بيني وبين أولئك الأصدقاء ما أود كتمانه؟! أنك ما زلت تفتقر إلى اللياقة يا سيدي.

ولم ينل صفحها إلا بعد عناء.

ولكن هذا الموقف أثلج صدره.. وأقنعه– لو كان بحاجة إلى الاقتناع– بأن نانا لا تزال على إخلاصها ووفائها.وبهذه المناورات. عرفت نانا كيف تخضعه وتكسب ثقته.

وما لبثت أن طالبته بالترحيب بجورج.. قائلة أنه طفل. وأنه يدخل التسلية على نفسها.. وباستقبال فيليب قائلة أنه شاب مهذب دمث الخلق.. ثم جمعت بين ثلاثتهم على مائدتها فأبدى الكونت عطفا على الأخوين.

واستفسر عن أمهما الكريمة.. وحرص طول الوقت على التظاهر بأنه ضيف نانا مثلهما.. وذلك انقاذا لمركزه كزوج وموظف كبير.

ومنذ ذلك العهد كان الشقيقان والكونت وفانديفر يتقابلون في بيت نانا كل يوم تقريبًا.. ويتصافحون كأعز الأصدقاء. ويتناولون الطعام في بعض الأحيان على مائدتها..

الفصل التاسع عشر

وذات يوم، تاقت نانا إلى رؤية ساتان.. فقصدت إلى مطعم كانت صديقتها تختلف إليه..

ولكنها لم تجدها، وأنها تتناول الطعام بمفردها.. إذا بداجينيه.. يدخل المطعم والتقت عيونهما.. وامتقع وجه داجينيه.. ولكنه لم يكن بالرجل الذي يتقهقر.. تقدم منها. وعلى شفتيه إبتسامة.. وسأل في أدب واحترام إن كانت تسمح له بتناول الطعام على مائدتها.. ولكنها رفعت رأسها بكبرياء. وأجابت ببرود:

– تستطيع أن تجلس حيث شئت يا سيدي.. إنني في مكان عام.

وكان من الطبيعي بعد هذه البداية السيئة أن يدور حديثهما في جو شديد التوتر..

ولكن نانا كان تريد التشفي. فما أن فرغت من طعامها. حتى انحنت إلى الإمام وقالت باحتقار:

– أرجو أن تكون قد قطعت شوطًا بعيدًا في مسألة زواجك.

فأجاب داجينيه أن المسألة توقفت مؤقتًا. وأنه لم يلح في معرفة جواب الكونت.. لأنه لاحظ فجأة أن شعور الكونت نحوه قد تبدل وخالطه شيء من الفتور.

فأسندت نانا ذقنها على كفها. ونظرت إليه بعينيها الصافيتين.. وقالت وعلى شفتيها إبتسامة تهكم:

– إذن أنا مغامرة أفاقة. ويجب إنتزاع صهرك المنتظر من قبضتي؟! لو لم تكن غبيًا قصير النظر لما قلت هذا الكلام لرجل يعبدني وينقل إلى كل كلمة تنطق بها.. اصغ إلي يا عزيزي. إن زواجك يتم غدًا لو أردت.

واعترف داجينيه فيما بينه وبين نفسه بهذه الحقيقة. وقرر أن يطأطيء الرأس للوصول إلى غرضه. واستعان بالدعابة. وبسحر عينيه وصوته لإثارة عطف نانا. فنهض واقفًا فجأة. وأحنى قامته باحترام حتى أوشك رأسه أن يمس الأرض. وطلب إليها أن تمنحه يد الآنسة ستيللا دي بيفيل..

وضحكت نانا.. حتى طفرت الدموع من عينيها.. وقالت له أن من المستحيل على الإنسان أن يخاصمه طويلًا..

وعندما نهضت عن المائدة. كانت مرحة باسمة. وقد أنساها صوته الساحر.. إساءته إليها.

وغادرت المطعم. وأمرت سائق مركبتها بالعودة. وتأبطت ساعد داجينيه. ورافقته إلى بيته.

وبعد ساعتين. سألته وهي تتناول قبعتها:

– هل تفكر جديًا في هذا الزواج؟!

فأجاب: نعم.. ما لم أجد مخرجًا آخر.. أنت تعلمين أنني أضعت كل ثروتي.

– إن ستيللا هيكل عظمي.. ولكن ما دمت ترى أنها مغامرة رابحة، فإنني على استعداد للأخذ بيدك.

فضغط يدها على صدره.. معبرًا عن شكره ووفائه.

وفي مساء ذلك اليوم.. إجتمع موفات وفانديفر والشقيقان هيجون عند نانا.. وتناولوا الشاي في قاعة الاستقبال..ودار الحديث بينهم حول الخسارة الفادحة التي مني بها فانديفر في السباق الأخير.

وهز فانديفر كتفيه بقلة إكتراث. وقال أنه يعقد أملًا كبيرًا على السباق التالي.. وسيراهن بكل ثروته على جواده "لوزيجان".

فقلبت نانا شفتها وسألت:

– وإذا خسرت؟!

فومض في عيني فانديفر بريق غريب.. ثم ضحك وقال بلهجته المرحة أنه إذا خسر في هذه المرة فسوف يحبس نفسه مع جياده ويشعل النار في الإصطبل.

ولم يشترك موفات في هذا الحديث.. ولاحظت نانا أن موفات مكتئب على غير عادته.. فلما انفردت به بعد انصراف الآخرين.. جلست على مقعده. وأحاطت عنقه بساعدها.. وسألته في حنان:

–ماذا بك ؟

فارتجف ركن فمه رجفة عصبية. وأجاب:

– لا شيء..

ولكنها كانت قد تعلمت أن تقرأ سريرته كما تقرأ في كتاب مفتوح..

قالت له بحنان الأم:

– تكلم أيها العزيز.. إنني أرى حزنك في عينيك..

فاغرورقت عيناه بالدموع.. ووضع يده في جيبه. وأخرج رسالة قدمها إليها.. دون أن ينطق بكلمة..

وتناولت نانا الرسالة ولشد ما كانت دهشتها عندما قرأت على غلافها عنوان فوشيري..

أما الرسالة ذاتها.. فكانت عبارة عن ثلاثة سطور تتضمن موعدًا للقاء في مكان معين..

وهزت نانا رأسها.. ولم تفهم..

قال موفات:

– هذه الرسالة بخط زوجتي..

فذهلت.. وصمتت لحظة. ثم قالت في رفق:

– هون عليك.. لقد كنت أعلم هذا منذ وقت طويل.. ولكني كنت أفتقر إلى الدليل.. ولكن كيف وقعت هذه الرسالة بين يديك؟

– لا أعلم.. إنني تسلمتها اليوم في البريد ضمن غلاف آخر.. ولم أجد كلمة واحدة من الشخص الذي أرسلها..

– وأين الغلاف الآخر؟!

فوضع يده في جيبه وأخرج الغلاف.. وقدمه إليها..

ونهضت نانا واقفة. وأنعمت النظر في الخط الذي كتب به عنوان الغلاف.. ثم ابتسمت وقالت:

– هذا خط روز منيون.. إنني أعرفه.. وأعرف غرضها من إرسال هذا الخطاب إليك..

إنها كانت عشيقة فوشيري.. وأكبر الظن أنها عمدت إلى هذه الوشاية لتحول بينه وبين زوجتك..

وعادت إلى الجلوس بجانبه. وفي عينيها نظرة ظفر.وتوقعت أن يتحدث إليها ولكنه تنهد. وقال وهو ينهض:

– سأنصرف الآن. فلست أريد أن أزعجك.

– بل إبق. يجب أن تبقى، فربما استطعت أن أقدم إليك نصيحة.

فأخذ يسير في الغرفة جيئة وذهابًا. وهو مطرق برأسه.

سألته:

– وماذا في نيتك أن تفعل الآن؟!

– سأتحدى هذا الرجل وأقتله.

فهزت رأسها وقالت:

– لا فائدة من ذلك.. وزوجتك؟!

– سأقاضيها في طلب الطلاق. وبين يدي الدليل على خيانتها.

–كلا.. كلا.. لا تفعل شيئًا من ذلك.

وتحدثت إليه بصوت خافت. وأوضحت ما ينشأ عن المبارزة وقضية الطلاق من فضيحة تتناولها الصحف ويتناقلها الناس وتؤدي حتمًا إلى النيل من شرفه ومركزه.

فصاح:

– وماذا يهمني. بحسبي أن أنتقم.

فقالت ببطء.

– يا عزيزي. إن الرجل في مثل هذه الشؤون إذا لم ينتقم لنفسه في الحال، فإنه لا ينتقم أبدًا.

فوقف موفات. وفكر طويلًا في هذه الكلمات.وسددت إليه نانا الطعنة الثانية.

قالت:

– ولا تنس أيها العزيز.. أنك كنت تخون زوجتك طيلة هذا الوقت. وهي تعلم ذلك. فبأي حق تلومها. وبأي حق ترميها بأول حجر؟ إذا قدمتها المحكمة فسوف تتكلم. وسوف تقول أنك ضربت لها أسوأ المثل.

فتهالك في مقعده.. وقد أزعجته هذه الكلمات الصريحة.. التي رددت صوت ضميره.

قالت نانا:

– أسغ إلي يا عزيزي.. يجب أن تذهب إلى زوجتك وتعمل على إزالة سوء التفاهم.

ولكنه نفر من هذه الفكرة.. وقال أنه يفضل الموت على هذا الهوان.

بيد أن نانا لم تقتنع بهذا الكلام.. واستطردت في رفق:

– يجب ان تصلح ما بينك وبين زوجتك.. افعل ذلك من أجلي.. فلست أريد أن يقال أنني هدمت بيتك.. وقوضت سعادتك.

– كلا.. كلا.. ذلك مستحيل..

– إنها زوجتك.. فضع الواجب فوق كل اعتبار. وإني أرى من واجبك. بل ومن أقدس واجباتك أن تمد إلي إمرأتك.. فتقبل عثرتها.. وتساعدها على العودة إلى سواء السبيل.

ودهش موفات للهجتها.. وحار في فهم الحافز لها في هذا الكلام.

ولكنها مضت في حديثها فقالت أن عودته إلى زوجته.. لن تغير ما بينهما.. فسيظل هو عشيقها الأوحد.. ولن تتخذ من دونه عشيقًا.. ولكن إصلاح ما بينه وبين زوجته.. سيرد عليها سعادتها وشرفها.. وسيقطع ألسنة السوء.. وبذلك يستريح كل إنسان.

فرد بصوت أجش:

– كلا.. كلا.. ذلك مستحيل.

– والمال..كيف تحصل عليه؟! أنني أعرف متاعبك وأعلم أنك اقترضت مائة ألف فرنك من لابورديت.. وهذا الدين قد حان موعد سداده..

وأصابت هذه الكلمات من جسده جرحًا داميًا..كانت نكبته في شرفه.. قد أنسته نكبته في ماله..والواقع.. أنه كانت هناك بالوعة أخرى –عدا نانا– تستنزف ثروته باستمرار.

كانت سابين– منذ عودتها من "فونديت"– قد تمردت على جميع صفاتها وعاداتها فأدهشت أصدقاءها وأصدقاء زوجها بإسرافها وتبدلها.. واهتمامها الفجائي بمظاهر النعيم والترف.. كأنما آلت على نفسها أن تبر في ذلك غريمتها نانا.. وكانت النتيجة أنها أنفقت خمسمائة ألف فرنك لإعادة تأثيث بيتها.. وخمسين ألف فرنك لابتياع ثياب ومجوهرات.. عدا مبالغ أخرى اختفت ولم يظهر لها أثر.

وقد حاول موفات مرتين أن يسألها عن مصير المبالغ الطائلة التي تبددت. ولكنه كان يرى على شفتيها إبتسامة مقيتة غير مشجعة فلزم الصمت خوفًا من أن تلقى عليه بدورها أسئلة لا يستطيع الإجابة عليها... وهكذا كان الرجل يجر الخراب على نفسه من ناحية.. وزوجته تجر عليه من ناحية أخرى. دون أن يجرؤ أحدهما على محاسبة الآخر.

وكانت النتيجة.. ان الرجل أضاع كل ثروته.. ولم يبق من مزارعه الواسعة سوى مزرعة "لابورد"... وهذه لم يكن في استطاعته أن ينصرف فيها للبيع دون موافقة زوجته. لأنها كانت جزءًا من بائنتها.

وواصلت نانا هجومها..

قالت:

– وسوف تهيئ لك مسالة زواج داجينيه وستيللا فرصة طيبة للاتفاق والتفاهم مع زوجتك..

ففتح موفات عينيه وقال:

– ولكني لن أزوج ابنتي من هذا الأفاق.. بعد الذي علمته منك.. فتظاهرت بالدهشة وهتفت:

– هل تشعر بالغيرة؟! أيمكن هذا؟! إنني نقمت عليه.. لأنه هجاني وذمني.. ولكنه في الواقع شاب دمث الخلق كريم المحتد ولن تجد أصلح منه لإسعاد ابنتك..

فدفن موفات رأسه بين يديه.. وأفلتت من فمه آهة عميقة ولم يجب.

الفصل العشرين

بعد أسبوع.. علمت نانا أن صديقتها ساتان طريحة الفراش في المستشفى فقررت أن تزورها.. وارتدت ثيابها.. وتأهبت للخروج.. حين دخل لابوردتي فجأة وهو شاحب الوجه زائغ البص.

وذعرت نانا.. لأنها تعرفه رزينًا. هادئًا غريبًا عن الانفعالات النفسية العنيفة.. فهتفت. وقد أوجست شرًا:

– ماذا دهاك..

فقال وهو يلتقط أنفاسه:

– هل علمت؟!

– ماذا؟!

– لقد انتحر فانديفر..

فوضعت نانا يدها على فمها لتكتم صيحة ذعر أوشكت أن تفلت من فمها.. ثم انهارت على أحد المقاعد.. وجلس لابورديت.. وهو يلهث.. ويجفف العرق المتصبب على جبينه..

وساد بينهما صمت طويل محزن.. بددته نانا أخيرًا بأن سألت:

– وكيف؟!

فأجاب لابورديت:

– إنه راهن أمس بما بقي من ثروته على جواده "لوزيجان" وخسر، فحبس نفسه مع جياده. وأشعل النار في الإصطبل .

فهتفت نانا، وهي أشد شحوبًا من الموتى..

– يا للهول!! هل فعل ذلك؟! إنه قال لي مرة أنه سيفعل ذلك ولكنه قال ذلك على سبيل الدعابة.

وشرد بصرها.. وتخيلت منظر الإصطبل والجياد وفانديفر.. والسنة اللهب.. وغمغمت:

– حقًا.. إنها نهاية رائعة.

فقال لابورديت وفي عينيه نظرة صارمة:

– ولكنها نهاية حقه. أن هذا الجيل الفاسق من أبناء الذوات وسلالة النبلاء الأقدمين.. جدير حقًا بالفناء.

فقطبت نانا حاجبيها وقالت:

– أنا لا يهمني موته.. بقدر ما يهمني ما سوف يقال.. سوف يزعمون أنني سبب خرابه.. وعلة موته. كأنما المرأة لا تستطيع أن تطالب الرجل بمال دون أن تدفع به إلى حماقة أو جريمة. لو أنه قال لي "ليس عندي مال" إذن لأجبته: "هذا حسن.. فلنفترق".

أما أن يعدني بمائة ألف فرنك اليوم ثم ينتحر.. فذلك ما لا أفهمه. فتنهد لابورديت وقال:

– إنك خسرت مائة ألف فرنك.. باعتبار ما كان يمكن أن يكون.. أما أنا فقد خسرت مائة ألف فرنك اقترضها مني منذ بضعة شهور.. وكان اليوم موعد سدادها.

وبهذه المناسبة.. ماذا فعل صديقك الكونت؟

فأجابت نانا:

– كن مطمئنًا.. إنه تفاهم مع زوجته على بيع مزرعة "لابورد" وكل منهم أحوج إلى ثمنها من الآخر.

الفصل الحادي والعشرين

في أحد أيام الشتاء.. كان موفات على موعد مع نانا لكي يرافقها إلى حفلة راقصة. ولكنه دعى فجأة إلى قصر التويلري "قصر الإمبراطور".

فبكر بالذهاب إلى نانا ليعتذر لها. والفى قصرها العظيم يسبح في ظلام دامس. وسمع أصوات الضحك تنبعث من جناح الخدم. ووجد الأبواب مفتوحة على مصاريعها. فصعد السلم بخطى متئدة. واجتاز دهليزًا مزينة جدرانه بتماثيل وصور من أبدع ما صنع الفنانون. ونفذ إلى قاعة الاستقبال.

وهناك.. على ضوء المصباح الضئيل الذي لا تكاد أشعته تصل إلى جدران القاعة. وقع بصر الكونت على نانا.. وجسدها الفاتن متهدل على مقعد كبير من القطيفة. وشعرها الجميل منسدل على كتفيها وقد أحاطت عنق جورج بساعديها.. وراحت تهمس في أذنه بصوت خافت رقيق.

لم يكن ثمة مجال للشك.

لقد أقسمت له نانا على الوفاء والإخلاص. وزعمت أنها لن تشرك معه أحدًا في قلبها. وجسدها.. وكان من دواعي عزائه وخيلائه أن يملك هذه المرأة بغي شك، ولكنه رأى الآن أن سعادته ليست إلا وهمًا.. وإن إخلاصهما لم يكن إلا حلمًا.. وأفلتت من شفتي موفات صيحة دهشة وألم وجمد في مكانه.

وبهتت نانا لهذه المفاجأة.. وأسرعت إلى الكونت فأمسكت بيديه واقتادته إلى الغرفة المجاورة.. لكي تفسح لجورج سبيل الفرار.. ولم تدر كيف تعتذر حقًا أن تستهدف لهذه الموقف المهين من أجل غلام لا يكاد يملك ثمن باقة زهر يقدمها إليها؟؟

كان جورج قد جاءها حزينًا يائسًا.. وعتب عليها أنها تسرف في ملاطفة

أخيه.. وتفسخ له صدرها. وتشجعه على زيارتها. ثم حدثها عن شكوكه وغيرته.. فأرادت أن تهون عليه. وتسرى عنه.ولكن هذه المفاجأة قد علمتها أن تكون ضنينة بعطفها بعد الآن وأن توصد قلبها دون عاطفة الشفقة والإحسان.

وتهالك موفات على أحد المقاعد. وسقط رأسه على صدره.. وتدلى ساعداه، ولم يحول بصره على الأرض. ولم ينطق بكلمة.وتأثرت نانا لحزنه الصامت. وقالت بصوت رقيق:

– معذرة.. لقد أخطأت. فاصفح عني.

وجلست تحت قدميه.. وعقدت يديها فوق صدرها في ضراعة. وسمعت الآهة الخافتة التي انبعثت من صدره. فتشجعت.. وامعنت في الخضوع والضراعة والاعتذار.

قالت:

– أنت تعلم أنني لا أستطيع أن أنتزع قلبي من صدري.. لقد كان من الرحمة أن أقول كلمة ترفية لهذا الغلام الضال.. وبعد.. فإن المرأة لا يسعها إلا أن تشعر بالعطف على أولئك الذين يحبونها.. ولا تبادلهم الحب.

وسمح الكونت لنفسه بأن يقتنع.. وغفر لها.. وطالبها فقط بأن لا تستقبل جورج.. غفر لها للمرة الثانية. ولكن أوهامه جميعًا تبددت، وضاعت ثقته في إخلاصها ووفائها.

وفي اليوم التالي.. خدعته نانا أيضًا.. فأغمض عينيه.. لأنه أشفق من إقفار حياته بدونها.

وهكذا بدأ عذابه وتفكيره.

وفي ذلك العهد.. كانت نانا في أوج سطوعها وعظمتها... فأذهلت باريس كلها بترفها الصارخ. وأبهتها الوقحة. وقلة إكتراثها بالمال..كان قصرها أشبه ببوتقة

هائلة. ينصهر فيها كل ما يصل إلى يدها من مال.. كانت ترسل أنفاسها على الذهب فيستحيل رمادًا تذروه الرياح.. ولم تشهد باريس قط.. مثل هذا الإسراف ولا مثل هذا الشغف بالحصول على المال لبعثرته ذات اليمين وذات الشمال.

وصار القصر.. هوة عميقة بغير قرار.. هوة يتوارى فيها الرجال وأموالهم وشرفهم. فلا يظهر لهم أثر بعد ذلك.

كانت هذه الغانية التي تزدري اللحوم.. ولا تأكل غير الخضر والحلوى. تنفق على مائدتها شهريًا نيفًا وخمسة آلاف فرنك.وكان مطبخها غنيمة للخدم والحشم.. يطمعون فيه من شاءوا من الأقارب والأصدقاء بغير حساب.. وقصرها أشبه بمدينة أغار عليها العدو وأعمل فيها السلب والنهب، فكبير الخدم يتقاضى ضريبة من المتاجر. والخدم يسرقون الآنية والصحاف والثياب.. والحوذي يبيع علف الخيل. ولويز تتستر على الجميع.. لتستر سرقاتها.. كل ذلك عجل بخراب لا مفر منه.. لقصر يلتهمه عدد لا يحصى من الأفواه الجائعة.

وهذا الذي كان يحدث في المطبخ من سرقة وتبذير وإهمال، كان يحدث كذلك في مخدع نانا وغرفة ثيابها، فالثوب الثمين الذي يربي ثمنه على عشرين ألفًا من الفرنكات... يلبس مرة أو مرتين ثم ينسى وتبيعه "لويز".

والمجوهرات التي لم تعد تصيب هوى من نفس نانا.. كانت تختفي من الأدراج.. وتتوارى. والأشياء الصغيرة الثمينة التي تبتاعها نانا إرضاء لنزواتها.. أو بحكم المودة.. كانت تكدس في الأركان.. ثم تكنس إلى الشارع.

وكان شغف نانا لا حد له بكل شيء باهظ الثمن.. لا لفائدته.. أو جماله.. وإنما لأنه باهظ الثمن.. وليس في مقدور كل إنسان أن يقتنيه.. وهكذا كانت تجمع حولها أكداسًا من أواني الزهور.. وأدوات الزينة.. والزخرف.. ثم لا تلبث أن تتلفها بيديها الصغيرتين أو تنساها فتسرق.

أما نفقاتها الشخصية.. فقد بلغت أرقامًا لا يصدقها العقل.

عشرون ألف فرنك للقبعات.. وثلاثون ألفًا للأقمصة.. وأثنا عشرة ألفًا للأحذية.. ومائة وعشرون ألفًا للفساتين.

وكان لابودريت قد قدر النفقات السنوية بأربعمائة ألف فرنك.. ولكن هذه النفقات بلغت في العام الأول مليونًا من الفرنكات.. وهو مبلغ أذهل نانا نفسها.. فلم تعرف أين ذهب.. وكيف أنفق ؟

وهكذا.. كان جميع أصدقائها من الرجال يغمرونها بكل ما يصل إليهم من مال.. ولا يستطيعون ملء تلك الهوة العميقة التي تبتلع كل شيء ولا تمتلئ.

كان عقل نانا أشبه بمعمل لتفريخ وسائل الإنفاق والتبذير.. فلما تعبت من اقتناء كل ما تصبو إليه نفسها.. وأرادت أن يكون فراشها شيئًا لم تره له باريس مثيلًا... شيئًا ينحني الجميع أمامه.. كما ينحنون أمام العروش والهياكل.

يجب أن يكون هذا الفراش سلة كبيرة من سلال الزهور. وأن تجدل هذه المسألة بالذهب والفضة. وأن تحرس أركانها الأربعة تماثيل لإله الحب.

وجاءها لاوبرديت بصائغ كبير. وضع تصميم هذه السلة العجيبة وقدر ثمنها بخمسين ألف فرنك.

ووافقت نانا على التصميم.. أما الثمن فيجب أن يقدمه إليها موفات.. على سبيل الهدية بمناسبة العيد الجديد.

أما زخرفة الجدران.. فتتكلف ثلاثين ألف فرنك. ولابد لأحد الرجال أن يدفع هذا المبلغ. وستعين هي في الوقت المناسب أسم الرجل الذي سيدفع.

شيء واحد نانا لم تفهمه.. وذلك هو افتقارها في بعض الأحيان إلى بضعة فرنكات.. رغم كل هذا الذهب الذي يحيط بها ويغدق عليها.. وفي هذه الحالة

كانت تقترض من لويز.. أو تحصل على حاجيتها بوسائل أخرى. ولكنها لم تكن تعمد إلى هذه الوسائل إلا بعد أن تفرغ جيوب أصدقائها. وتفرغها بمعنى الكلمة على سبيل الدعابة.

وقد ظلت ثلاثة شهور تستنزف نقود فيليب بهذه الطريقة. ولما تعمد الضابط الشاب أن ينسى حافظة نقوده، تجرأت نانا.. وراحت تطالبه بقروض صغيرة لا يتجاوز كل منها مائتي فرنك.. ولكن مجموع هذه القروض أربي في النهاية على عشرة آلاف فرنك.ورغم ذلك ظل الضابط الشاب محتفظًا بابتسامته المرحة.. وإن كان قد شحب لونه.. وهزل جسمه في المدة الأخيرة.

وذات ليلة قالت نانا.. إن اليوم التالي هو عيد ميلادها. فأغدق عليها أصدقاؤها الهدايا.. وحمل إليها فيليب آنية بديعة من الخزف المذهب الثمين. دفع ثمنها ثلاثمائة فرنك.

وكانت نانا جالسة في غرفة الثياب... وأمامها مائدة تحمل جميع الهدايا.. وقد كسرت فعلًا زجاجة من البلور الثمين وهي تحاول فتحها صاحت عندما أبصرت به:

– ما أكرمك. وأطيب قلبك. دعني أرى هذه الهدية.. يا إلهي. أليس من الجنون أن تبذر نقودك ثمنًا لشيء كهذا؟!

استقبلته بهذا التعنيف. لأنها تعلم أنه فقير.. وأن مدام هيجون تعامل ولديها معًا بالتقتير.. ومع ذلك فقد سرها أن ينفق لأجلها كل هذه النقود.. وهذا دليل على الحب تقدره هي حق قدره..

وتناولت الآنية. وراحت تفحصها. وتفتحها. وتقفلها.

قال لها:

- حذار.. فإنها رقيقة سريعة الكسر.

ولكنه ما كاد يتم عبارته حتى سقطت الآنية من يدها.

هتفت في ذعر:

- يا إلهي.. لقد تهشمت.

ونظرت إلى حطام الآنية على الأرض، ثم انفجرت ضاحكة ضحكة الطفل الشرير. الذي يجد لذة في تحطيم كل ما تصل إليه يده.. وامتقع وجه فيليب.. لم تكن نانا تعلم كم عانى من الآلام في سبيل الحصول على ثمن هذه الآنية..ولاحظت نانا اضطرابه وازعاجه. فملكت نفسها وقالت:

- اؤكد لك أن الذنب ليس ذنبي. أنها كانت مشروخة.. ارأيت كيف رقصت على الأرض قبل أن تتهشم..

وضحكت مرة أخرى. وظل فيليب على عبوسه.

قالت: أنت مجنون بغير شك، إن تحطمها لا يقلل من شكري وامتناني وبعد.. فقد صنعت كل هذه الأشياء لكي تتحطم.. ولولا ذلك ما استطاع النجار أن يبيع شيئًا.. أنظر إلى هذه المروحة. أنها ليست أشد صلابة من آنيتك.وتناولت مروحة ثمينة من الحرير. وفتحتها بقوة فتمزقت.

وأثار ذلك في نفسها غريزة الهدم والتخريب. وأرادت أن تبرهن له على أنها لا تقيم وزنًا لجميع هذه الهدايا.. وإن كل شيء قابل للتلف، وتناولت الهدايا وحطمتها واحدة بعد أخرى. ونظرت إلى حطامها وهي لامعة العينين. موردة الوجنتين. قالت:

- انتهينا.. ولم يبق ما أحطمه.

ثم تحولت إليه فجأة وقالت:

– هل تستطيع أن تأتيني بمائتي فرنك غدًا أيها العزيز؟

ففر لونه.. وظهرت على وجهه دلائل الهم والتفكير. وقال:

– سأحاول.

ثم ساد بينهما صمت طويل.. ونهض الضابط الشاب.. ووقف أمام النافذة وألصق جبينه بزجاجها.. وبعد بضع دقائق. نظر إليها.. وقال ببطء.

– نانا. يجب أن تقترني بي.

وبدا لها هذا الاقتراح من الغرابة.. بحيث تهالكت في مقعدها لتغرق في الضحك.

قالت:

– هل جننت أيها العزيز؟! أتريدني على أن أقترن بك لمجرد أنني طلبت أن تقرضني مائتي فرنك؟!

ودخلت لويز في هذه اللحظة فصمتا.

الفصل الثاني والعشرين

أمرت نانا الخدم بمنع جورج من الدخول.. ولم يعلم جورج بهذه المنع، فقصد إلى بيتها كالمعتاد.. واتفق أن أحدًا من الخدم لم يره ولم يصادفه. فوصل إلى غرفة نانا، وسمع أخيه. فأنصت بالباب ولم تفته كلمة واحدة من حديث فيليب.. ولما اقترح الضابط فكرة الزواج، أظلمت الدنيا في عيني جورج وشعر كأن أصابع من فولاذ قد قبضت على قلبه، وكان قطعة من الثلج قد استقرت في جمجمته. فانصرف وهو يترنح.. وعاد إلى بيته.. واستلقى على فراشه. وأطلق العنان لدموعه.

لم يبق لديه شك..

كانت فكرة هذا الزواج. شيئًا متناهيًا في الفظاعة. فقضى النهار كلها. وهو يبكي. ويعض شفته. ثم جاء الليل. فكان أشد هولًا من النهار.. ولو كان أخوه في البيت في تلك الليلة لأنقض عليه وقتله.

ولما أشرقت شمس اليوم التالي.. كان الفتى قد حزم أمره على الانتحار.. ولكنه أراد أن يتزود بنظرة أخيرة من نانا.. فارتدى ثيابه وأخذ يهيم على وجهه في شوارع باريس. في انتظار الساعة الثالثة. وهو الموعد الذي حددته نانا لاستقبال زائريها.

وحول الظهر. انتهى إلى مدام هيجون نبأ وقع عليها كالصاعقة.. علمت أن ولدها فيليب قد قبض عليه في الليلة السابقة، وألقى في السجن. بتهمة اختلاس أموال الفرقة. التي كان هو أمين صندوقها. وإن هذا الاختلاس قد بدأ منذ ثلاثة شهور. ولم يفتضح في الوقت المناسب بسبب ضعف الرقابة، وكان أول ما فعلته الأم حينما علمت بهذه الكارثة التي قوضت شرف الأسرة.. ولوثت اسمها بالأوحال أنها صبت لعنتها على نانا.

كانت تعلم أن ولدها المسكين.. قد وقع أيضًا في براثن هذه المرأة الجهنمية.. وقد حدثها قلبها منذ أيام بكارثة ما. ولكن ماذا في استطاعتها الآن أن تفعل!!وجرى ذهنها في الحال إلى ولدها جورج، إنه الآن عزاؤها الأوحد.. وهي تستطيع أن تعتمد عليه.. لعله يعمل لإنقاذ الموقف.

وقصدت إلى غرفة ولدها.. لكنها لم تجده. وقال أحد الخدم أنه انصرف مبكرًا.. ورأت الأم غرفة ولدها من مظاهر الاضطراب والفوضى ما هداها إلى الحقيقة.. وأشعرها باقتراب نكبة جديدة.

لقد ذهب جورج إلى تلك المرأة.. ذلك لا شك فيه. وارتدت الأم ثيابها في سكينة مؤلمة.. وذهبت للمطالبة بولدها.

الفصل الثالث والعشرين

خيل لنانا في ذلك اليوم أن جميع الناس يأتمرون بها.. لإزعاجها ومضياقتها.. وقد بدأت سلسلة المضايقات عندما جاء الخباز في الصباح مطالبًا بنقوده.. وهو مبلغ تافه لا يتجاوز مائة وثلاثين فرنكًا.. ولكنها عجزت عن سداده رغم ما يحيط بها من مظاهر الترف وسعة العيش، وكان الخباز قد جاء مرارًا قبل ذلك.. فتحزب الخدم له.. وقال له جوليان.. أنه لن يحصل على نقوده.. ما لم يتصلب في المطالبة، ويحدث ضجة وثورة.

ثم أجلسته في الردهة.. ولم يخطر نانا بقدومه.. ففوجئت به عندما قصدت إلى غرفة الطعام.. ولما طالبها بغلظة وقحة. تناولت منه ورقة الحساب. وطلبت إليه أن يعود في الساعة الثالثة.. وانصرف الرجل وهو يهدد بالقدوم في الموعد المضروب.

ولم تأكل نانا إلا قليلًا. وقضت الوقت أمام المائدة تفكر كيف تدبر نقود الخباز؟ ثم تذكرت فيليب.. والمبلغ الذي وعدها به فاطمأنت.

وانقضى الوقت.. ولم يأت فيليب.. ثم أقبل "لابورديت".. فتنفست الصعداء.. بعد أن دار الحديث بينهما حول فراشها الذهبي.. وما تم فيه.. قالت له:

– هل أجد معك مائتي فرنك؟!

وكان للابورديت مبدأ لا يحيد عنه.. هو أن لا يقرض النساء.. فأجابها بعبارته المألوفة في مثل هذا الموقف:

– كلا يا عزيزتي.. ليس معي سنتم واحد.. هل أذهب إلى موفات في طلب هذا المبلغ؟!

– كلا.. لا ضرورة لذلك.

كان موفات قد نقدها خمسة آلاف فرنك منذ يومين.. وما إن أنصرف لابورديت.. حتى أقبل الخباز..وكانت الساعة لا تزال الثانية والنصف.. ومع ذلك فقد رأى الرجل أن من الحكمة أن يرابط قبل الموعد المتفق عليه.. فجلس في الردهة.. وأخذ يهدد ويزمجر..

وسمعت نانا تهديده وزمجرته.. وسمعت إلى جانب ذلك ضحكات الخدم، فامتقع وجهها. وخيل إليها أن كل إنسان قد هجرها حتى خدمها..

وخطر لها أن تقترض من "لويز" وكانت تدين فعلًا بمبلغ من المال.. ولكنها عدلت عن هذه الفكرة اشفاقًا على كرامتها وكبريائها من الرفض.

قالت لنفسها:

– لم يبق لي إلا أن أعتمد على نفسي للخلاص من هذا الموقف..

وقررت في الحال أن تذهب إلى مدام "تريكو".. وأخذت ترتدي ثيابها بسرعة، دون الاستعانة بوصيفتها.

وجرى ذهنها إلى فيليب. فقالت:

– أنه رجل دنيء.. جميع أصدقائي أدنياء، وإلا ما أضطررت إلى الالتجاء لهذه المرأة.

ولكنها ما كادت تبرح غرفتها حتى رأت جورج واقفًا وسط قاعة الاستقبال.. ولم تلاحظ امتقاع لونه.. ووميض عينيه.. وأفلتت من فمها آهة ارتياح. وهتفت:

– هل أرسلك أخوك؟!

فأجاب وقد زاد امتقاعه:

– كلا..

فهزت كتفيها بيأس.. ماذا جاء يصنع إذن!! ولماذا يقف في طريقها..

سألته:

– هل معك نقود؟

– كلا..

– طبعًا.. أنا أعلم ذلك.. وقد كان من الحماقة أن أسأل.. أنك لا تملك دائمًا ثمن تذكرة أومنيبوس. إن والدتك لا تسمح.. يا إلهي. هل هؤلاء رجال؟ ومرت به لتخرج.. فأمسك بيدها.. وأراد أن يتحدث إليها ولكنها قالت في غضب أنها تريد الانصراف.. وليس لديها متسع من الوقت.. هتف:

– أصغي إلي. أنا أعلم أن في نيتك الاقتران بأخي.

كانت مباغته عجيبة.. فارتمت نانا على مقعد وأغرقت في الضحك.

واستطرد الفتى:

– نعم. وقد جئت لأقول لك. أنه يجب ألا تقترني به وأنني أجدر بأن أكون زوجك.

فذهلت نانا وهتفت:

– ماذا ؟ أنت أيضًا تريد الاقتران بي؟ يخيل إلى أن هذا مرض وراثي في أسرتكم.. أنت مجنون يا بني. فليس في نيتي أن أقترن بأحدكما.

فتنهد جورج بشيء من الارتياح.. ترى هل كان على خطأ؟

قال:

– هل تقسمين لي أن أخي ليس عشيقك؟!

فصاحت في ضجر:

– الحق أنك لا تطاق. منذ لحظة كان حديثك مبعثًا للتسلية.. أما الآن فإنه سخافة وسفه. ما شأنك أنت والمسألة عن أصدقائي؟! هل تقوم بالإنفاق علي.. لكني تسألني حسابًا عن حركاتي؟ نعم. إن أخاك عشيقي..

فهز ساعدها بعنف وصاح:

– اصمتي.. لا تقولي ذلك. ولا تقولي ذلك مرة أخرى..

فانتزعت ساعدها من قبضته وصاحت:

– حقًا أنك غلام مؤدب.. تفضل بالانصراف. إنني كنت أستقبلك هنا بدافع الشفقة فحسب.. لأن اهتمامي بك قد ضعف منذ زمن بعيد. لقد كان من الجنون أن أعرفك على الإطلاق.. كان ذلك جنونًا وخطأ.

وأصغى إليها الفتي.. والألم منطبع على سحنته..كانت كل كلمة خنجرًا يصيب مكانًا من قلبه، ولكنها لم تر عذابه وألمه.. وكأنما سرها أن تثأر منه جميع المضايقات التي استهدفت لها منذ الصباح.

قالت:

– ما أشبهك بأخيك!! أنه وعد أمس بأن يأتيني اليوم بمائتي فرنك.. ولكني لم أرى وجهه.

والآن هل تريد أن أقول لك شيئًا؟

إن أخاك قد أخلف وعده.. ولهذا أخرج الآن.. للحصول على هذا المبلغ من أول عابر سبيل.

كانت هذه الطعنة أشد عنفًا مما سبقها.. فأن الفتى أنين الحيوان الجريح.. ووقف في طريقها ليمنعها من الخروج.. وصاح:

– كلا.. كلا.. لا تفعلي هذا!!

– حسنًا.. هل معك هذا المبلغ؟!

–كلا.. ليس معي هذا المبلغ.. وهو لم يشعر قط بعجزه.. وتفاهة شأنه كما شعر في تلك اللحظة..

وكان يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.. فأخذتها الشفقة به وأبعدته من طريقها بلطف وهي تقول:

– يجب أن أذهب أيها العزيز.. كن عاقلًا.. إنني أحبك وأعطف عليك، ولكني الآن في أشد الحاجة إلى نقود.. فلا تحزن.. ولا تحدث أخاك بشيء مما سمعت.. أنني لا أمسك نفسي عندما أغضب.

وضحكت.. واجتذبته إليها. وقبلت جبينه، وانطلقت وهي تقول:

– وداعًا أيها العزيز. وداعًا.. يجب أن ينتهي كل شيء بيننا.

وتركته في وسط الغرفة.. وكلمات الوداع.. ترن في أذنيه كرنين أجراس الموت، وأحس الفتي بالأرض تميد تحت قدميه..كان يفكر في شيء واحد.. هو أن أخاه قد أصبح عشيق نانا.وعادت به إلى الذاكرة إلى الليالي السعيدة التي قضاها معها في قصر "مبنوت" ثم إلى اللحظات السعيدة التي اختلسها في ذات هذه الغرفة التي رددت جدرانها كلمات الوداع.لقد حل أخوه في قلبها محله. فماذا يكون من أمره الآن.. وكيف يكون مصيره؟ لقد امتزج حب هذه المرأة بدمه.. وأصبح عنصرًا من عناصر حياته.. وقد فقد الآن هذا الحب.. ولم يبق له إلا أن يموت. وكانت الأبواب مفتوحة. والخدم يروحون ويجيئون. ويتساءلون في دهشة. لماذا سارت سيدتهم على قدميها.. ولم تستقل مركبتها؟!

وراح جوليان يداعب الخباز ويحبذ سلوكه.. ويبادله النكات.

ودخلت لويز المخدع. ووجدت جورج. وسألته هل يريد انتظار سيدتها..

فأجاب أنه سينتظر، لأنه نسى أن يقول لها شيئًا يهمها.

ولما انصرفت الوصيفة.. نظر جورج حوله.. ولم يجد أفضل من "مقص" حاد كانت نانا تستخدمه لبعض شؤونها، فدسه في جيبه.. وانتظر ساعة أو بعض ساعة ويده تعبث بالمقص في جيبه. وكانت لويز ترقب سيدتها من إحدى النوافذ فهتفت:

– هي هي قد عادت.

وحدثت حركة غير عادية.. وفتحت أبواب وأغلقت أبواب.. ودخلت نانا. وأعطت الخباز نقوده ثم قصدت إلى مخدعها.. وهي تسير ببطء. وترفع خصلات شعرها المشعث عن جبينها.

وأبصرت بالشاب واقفًا بباب المخدع فصاحت:

– ماذا ؟! أما زلت تنتظر؟! هل تريد أن أعنفك ؟

ومرت به ودخلت المخدع. فقال لها بصوت هادئ:

– نانا.. ألا تريدين الاقتران بي؟

فأوصدت الباب في وجهه.. ولكنه أمسك الباب بإحدى يديه، وأخرج المقص من جيبه بيده الأخرى ودفن نصله في صدره. ونظرت نانا وراءها. لتتأكد من أن الباب قد أغلق فأبصرت بالمقص في يد الشاب فصاحت:

– هذا مقصي.. ماذا.. يا إلهي.. يا إلهي.. وامتلأ قلبها ذعرًا.. وسقط الشاب على ركبتيه.. وطعن نفسه مرة أخرى.. وتمدد جسده على عتبة الباب..

وعندئذ أضاعت نانا صوابها. وصرخت في فزع. ولم تجسر على المرور فوق الجثة لتطلب النجدة.

صاحت:

– لويز.. لويز.. أسرعي.. أنه يقتل نفسه.. وفي منزلي.. يا إلهي. هل سمع أحد بمثل هذا؟

وحملقت في وجهه بعينين رائعتين ،. فرأته شاحبًا مغمض العينين. ولم تجد أثرًا للدم. فتشجعت. وهمت بالوثوب فوق جثمانه. ولكنه رأت في هذه اللحظة سيدة متقدمة في السن. تدنو من المخدع بخطىء بطيئة. فنظرت إليها بعينين مرتعبتين. وعرفت فيها مدام هيجون.. ولم تستطع نانا. أن تفهم سر وجود هذه السيدة في بيتها في هذه اللحظة. وظننتها في أول الأمر شبحًا. ودب الذعر في قلبها. وسقطت في مكانها. وهي تهتف:

– ليس الخطأ خطأي. اقسم لك. الخطأ خطأي. لقد أراد أن يقترن بي. فرفضت فقتل نفسه.

واقتربت مدام هيجون. وجهها الشاحب وشعرها الأشيب. وقد أكسبها ثوبها الأسود مزيدًا من الشحوب. ومزيدًا من الوقار.

كانت.. وهي في طريقها إلى بيت نانا.. قد نسيت جورج وانصب كل تفكيرها على فيليب. وخطر لها أن تستعين بنانا على انقاذه أو تهوين عقوبته. فلعل هذه المرأة تستطيع أن تلتمس للسجين عذرًا.. ولعلها تستطيع أن تقول شيئًا يمس موضع من قلوب قضاته!! ولكنها ما كادت تصل إلى السلم. حتى سمعت صراخ نانا.. فصعدت بسرعة. ورأت شابًا ملقى على عتبة المخدع. وعرفت في هذا الشاب ولدها جورج.

ظلت نانا تردد كأن بها مسًا:

– إنه أراد أن يقترن بي. فرفضت. فقتل نفسه.

ولم تنطق مدام هيجون بكلمة. وغاصت على ركبتيها بجانب الجثة ونظرت إلى الوجه.

– نعم.. إنه جورج.

كان لها ولدان.. ففقد أحدهما شرفه. وقتل الآخر.

لم تدهش. ولم تنزعج. ورأت أعز ما تملك في الحياة ينهار حولها.

دون أن تنطق بكلمة. وإنحنت فوق الجثة. وألصقت أذنيها فوق موضع القلب. دون أن تحول عينيها عن الوجه. وبدأ عليها كأنها تصغي.

وهال نانا وقار هذه المرأة. وهالها صمتها. فراحت تقول:

– أنه قتل نفسه. ولم أقتله. أنظري لقد كنت في الخارج. وعدت في التو واللحظة.

ورفعت مدام هيجون رأسها فجأة. ولمعت عيناها. ونظرت المرأة التي تفصلها عنها جثة ولدها. فقالت نانا:

– أقسم لك يا سيدتي. أنني لم أقتله. ولو جاء أخوه في هذه اللحظة لأوضح لك الحقيقة.

فقالت الأم بصوت هادئ:

– إن أخاه قد امتدت يده إلى مال لا يملكه. وهو الآن في السجن. فذعرت نانا.

ولكن ما ذنبها هي إذا كان الأخ قد سرق! ما ذنبها إذا كان الأخوان مجنونين!؟

وأقبل الخدم، فأصدرت إليهم نانا أمرًا.. ولكن مدام هيجون أصرت على اصطحاب ولدها في مركبتها. وعلى أن لا تدعه في ذلك البيت لحظة أخرى.وحمل الخدم الجثة. وسارت الأم وراءها، وهي تترنح، وتستند على الجدران تارة، وعلى الأثاث تارة أخرى لتمنع نفسها من السقوط، ولما وصلت الأم إلى السلم.. تحولت إلى نانا.. وقالت بصوت مسموع:

– أنك جلبت علينا الخراب.

ولم تزد.

وبقيت نانا جامدة في مكانها حيث تركتها مدام هيجون.. ولم يخطر لها حتى أن تخلع قبعتها..

ووجدها موفات في ذلك المكان حين عاد لزيارتها بعد ساعة.. وما إن أبصرت به حتى تكلمت.. وتكلمت بسرعة.. لترفه عن نفسها..

وصفت ما حدث.. وذكرت التفاصيل بالدقة.. صغيرها وكبيرها.. وتناولت المقص الملوث بالدم.. وقلدت حركات الشاب عندما طعن نفسه.. ثم سألت:

– والآن.. هل كان الخطأ خطأي أيها العزيز!! إنني لم أطلب إلى فيليب أن يسرق.. كما لم أطلب إلى أخيه أن يقتل نفسه..

إنني أتعس مخلوقة بغير شك. فالناس يدخلون بيتي.. ويزعجونني ويرتكبون كل ضروب الحماقات.. وأكون أن وحدي موضع اللوم.

ونظرت إلى "لويز" وهي تغسل عتبة الباب لإزالة الدم.. ثم انفجرت باكية..

وأصغى موفات إلى التفاصيل وهو واجم.. وأثرت به نكبة مدام هيجون المسكينة..كان يعرف قلبها الكبير.. فتخيلها في قصرها الفسيح.. حزينة وحيدة.. تفتقد ولديها.. وتبحث عن عزاء فلا تجد.واشتد بنانا الحزن فقالت وهي تبكي:

– لقد كان فتي وديعًا.. طيب القلب وكنت أحبه وأعطف عليه كولدي..

وخنقتها العبرات.. فراح موفات يواسيها.. ويشجعها.. ويقول لها إن الذنب ليس ذنبها. ولكنها لم تجف دموعها.. وطلبت إليه أن يذهب في الحال إلى بيت مدام هيجون ليستفسر عن جورج.. وقالت:

– أسرع.. فسأظل نهبة الحزن والقلق.. ولن يقر لي قرار حتى تعود.. فتناول

قبعته.. وانصرف.. وعاد بعد ساعة.. ووجد نانا تنتظره في النافذة.. فقال لها وهو لا يزال في الحديقة. إن جورج حي. وإن هناك بعض الأمل في إنقاذه، وما إن سمعت نانا هذا النبأ.. حتى انبسطت أسارير وجهها.. وراحت ترقص وتغني..

قالت لويز:

– أنظري يا سيدتي.. لقد غسلت بقع الدم مرارًا.. ولكنها لا تزول.. فنظرت نانا.. ورأت البقع كأنها حاجز من الدماء يوصد عتبة المخدع..

قالت:

– لا بأس.. فلسوف تزيلها أقدام الزائرين.

وفي اليوم التالي. نسى موفات. ونسيت نانا ما حدث.

وكان الكونت، عندما انطلق للاستفسار عن "جورج" قد أقسم فيما بينه وبين نفسه.. على ألا يعود مرة أخرى إلى بيت نانا..كان هذا الحادث في نظرة بمثابة إنذار من السماء.. فقرر أن يعتبر بالكارثة التي نزلت بأسرة هيجون، ولكنه مع ذلك لم يعتبر،ولم يشجعه منظر الأم الحزينة وغلامها الجريح المحموم على إنقاذ عزمه. ولما انصرف من بيت مدام هيجون كان يشعر بسرور خبيث لأنه تخلص من منافس طالما ضايقه..كان حبه يسيطر على كل حواسه.. مثل كل حب يهبط متأخرًا على قلوب الرجال الذين لم ينعموا بشبابهم..

كان يحب نانا كعاشق وكأب.. ويريدها دائمًا بقربه.. ويريد أن تكون له وحده..

وكان ضميره يستيقظ في بعض الأحيان.. فيذكر تربيته الدينية ومواعظ الكتب المقدسة ونصائح أمه ومسيو فينو.. ويعترف بأنه خاطئ فاجر.. ثم لا يلبث أن يقنع نفسه بأن خطيئته تحمل في ذاتها عذاب التفكير.. وهل في جهنم عذاب

أشد من عذاب هذه الغيرة التي يعاتبها.. والفضيحة التي يمرغ فيها!! أفلم تنكبه نانا في شرفه.. وثروته.. وهنائه.. وتضله عن سبيل الحق والصواب!!

وفي أحد الأيام.. خرج "فوكارمون"من بيت نانا في وقت غير عادي.. وأبصر به موفات.. فغضب وثار.. وأرغى وأزبد.. وغضبت نانا بدورها وقالت أنها تعبث من غيرته.. وكانت قبل ذلك تعتذر عن خيانتها.. وتطأطئ الرأس.. وتلتمس الصفح. وتعد بالإخلاص والوفاء.. ولكنها في هذه المرة.. كانت شرسة.. قاسية في صراحتها.. قالت له:

– إن "فوكارمون" صديقي وسيأتي هنا كلما أراد.. فإذا لم تكن على استعداد لقبولي كما أنا.. فاذهب عني.. فإنني أريد حريتي.. وفتحت الباب. واستطردت:

– ماذا تقول الآن.. هل تذهب.. أم تبقى؟!

فلم يذهب..

ومنذ ذلك الوقت.. تعلمت نانا أن يفعل ما تريد. فإذا عارض في فتح الباب.. طلبت إليه أن يخرج قائلة أن بحسبها أن تصفر بشفتيها.. لكي يأتيها الرجال أفواجًا.. وكلهم خير منه..كانت تصفعه بالإهانة تلو الإهانة.. فيطأطئ الرأس صاغرًا.. وينتظر بفروغ صبر أن تأخذها الشفقة به.. أو أن تكون بحاجة إلى ماله.. لكي ينعم من حبها وملاطفاتها بلحظات تعوض عليه أسابيع كلها إهانة.. وازدراء.كان على استعدادا لأن يفعل كل شيء إلا أن يفقدها، ذلك لأن حياته العائلية كانت جحيمًا، ولأن بيته لم يكن أفضل كثيرًا.

من بيت نانا.. فإن فوشيري ما كاد يهجر سابين ويعود إلى روز منيون، حتى أسفرت الكونتس عن وجهها.. وقربت إليها من الأصدقاء من يعرفهم زوجها ومن لا يعرفهم.

أما "ستيللا".. فإنها اقترنت بداجينيه.. وقطعت صلتها بوالديها وأثبتت رغم هزالها وما كان يبدو من هدوئها وتفاهة أمرها.. أنها امرأة ذات إرادة من حديد.

ولم يمض وقت طويل.. حتى أصبح المال.. وهو كل الصلة بين نانا وموفات.

وقد حدث ذات يوم أنه وعدها بعشرة آلاف فرنك.. ثم وجد الجرأة على الذهاب إليها صفر اليدين.. فأرغت وأزبدت.. وتقلص وجهها غضبًا.. وقالت أنها لا تفهم كيف يخلف الرجال وعودهم بمثل هذه البساطة.. واستطردت وهي ترتجف غيظًا وحنقًا:

– والآن.. ماذا سيكون من أمري. سوف يحيط بي الدائنون. ويبعيون أثاث بيتي. ويقذفون بي إلى الشارع.أنظر إلى نفسك في المرآة.. هل تظن أنني أحبك لجمالك؟! كلا وأيم الحق.. إن رجلًا له مثل وجهك يجب أن يدفع غاليًا ثمن العطف الذي تغدقه عليه المرأة، إذا لم تأتني اللية بالمبلغ. فلن تلمس بشفتيك ظفر خنصري.

ولكنه جاءها بالمبلغ في المساء.. فمدت إليه يدها.. فطبع عليها قبلة طويلة.. عوضت عليه ما عانى طيلة النهار..

وتكررت هذه المواقف التي كانت دائمًا تبدأ أو تنتهي بطب المال.وأمعنت نانا في الاستمتاع بحريتها. وأصبح موفات يرى على درج السلم وجوهًا لا يعرف أصحابها. ولكنه لم يكن يجسر على السؤال. لكيلا تقول له نانا: "دونك الباب".

وحدث مرة أنه وصل إلى غرفتها دون أن يشعر به أحد. فسمع نانا تتحدث إلى وصيفتها. وتسرد عليها كيف أن رجلًا أنجليزيًا خدعها. ولم يعطها فرنكًا واحدًا.. فتغير لون الكونت. وعاد أدراجه من حيث أتى.

واضطردت زيارات الغرباء. وأقبل على البيت سيل من الرجال. كانت نانا تجردهم من أموالهم واحدًا بعد الآخر، لتملأ البالوعة التي لا تمتلئ.

وقد أفلس "فوكارمون" بعد أسبوعين.. وأضاع ما أدخره خلال ثلاثين عامًا.. ولما طردته نانا.. لم يكن بجيبه سنتيم واحد..كانت نانا تمتص دماء أصدقائها.. ثم تقذف بهم إلى الخارج.. ليس لأنها امرأة بلا قلب، وإنما لأنها ضيقة الصدر، سريعة الضجر والملالة.

وقد أراد هكتور دي لافلواز أن يحظى بشرف الإفلاس على يد نانا، وكان كل رجائه أن ينعم بصداقتها شهرين حتى يتحدث عنه الناس في كل أنحاء باريس، ولكن حقوله ومزارعه الواسعة لم تقو على احتمال الضغط أكثر من ستة أسابيع، لأن نانا كانت تلتهم المزرعة في لقمة واحدة، وخرج دي لافلواز من المعمة قانعًا، راضيًا، لأن جريدة "الفيغارو" كتبت عنه مرتين في معرض الكلام عن حفلات نانا..

وكان "فوشييري" قد أنشأ جريدة خاصة، ولكنه وقع كذلك فريسة الذبابة ذات الأجنحة الذهبية، فابتلعت نانا المطبعة والورق واختفى فوشيري بعد شهر واحد، وقيل أنه ذهب إلى الريف للاقتران بإحدى قريباته..وعلمت نانا بذلك، فهزت كتفيها، وقالت لموفات:

– إنك حسن الحظ أيها العزيز، فمنافسوك يتوارون الواحد تلو الآخر..

فامتقع وجه موفات، ولم يجب.

كان كلما دخل مخدعها، نظر على الرغم منه إلى بقع الدم التي تصبغ العتبة، وخيل إليه أنه يستطيع أن يحصي عدد الرجال الذين مروا فوقها ودخلوا المخدع.

وكانت أقدام فوكارمون ولافلواز وفوشيري، وغيرهم، قد محت آثارها قليلًا،

ولكنها ظلت مع ذلك واضحة ظاهرة، وكان وجودها وزوالها على السواء نذيرًا له بسوء المصير.

وفي منتصف شهر ديسمبر. فرغ الصائغ من صنع الفراش المجدول من الذهب والفضة. وبعث به إلى نانا.

وكان موفات قد سافر إلى "نورماندِيا" لبيع بعض أملاكه، وأعطى نانا بأربعة آلاف فرنك. كانت وقتئذ بحاجة إليها. وكان من المقرر أن يعود من رحلته بعد يومين، ولكن التوفيق حالفه، فعقد الصفقة بسرعة، وعاد إلى باريس قبل الموعد، وقصد توًا إلى بيت نانا.

فتحت "لويز" الباب، وأبصرت به واضطربت، وأرادت أن تقوده إلى قاعة الاستقبال ولكنه رفض فغمدت إلى تعويقه وقصت عليه كيف أن رجلًا يدعى مسيو فينو قد استفسر عنه مرتين، لأمر قال أنه غاية في الخطورة.

غير أن موفات ارتاب في سلوك الوصيفة ولاحظ اضطرابها. وأدرك أنها تعمل على تعويق لغرض ما.. فاضطرمت في قلبه نار الغيرة.. وأسرع إلى المخدع.. وفتحه.. ودخل.. ولكنه ارتد إلى الوراء على الأثر.. وأفلتت من فمه صرخة حيوان يموت.

رأى نانا والمركيز دي شوار في الفراش المجدول من الذهب والفضة.. الفراش الذي باع مزرعته لتدفع نانا ما تبقى من ثمنه.

وأشاح المركيز بوجهه في خزي.

ووثبت نانا من الفراش لتغلق الباب.

يا الله.. ما أتعس حظها مع موفات.. أنه يدخل دائمًا في غير الوقت المناسب.

وبعد.. فلماذا سافر إلى "نورماديا"؟

إنها كانت بحاجة إلى أربعة آلاف فرنك.. وقد جاءها المركيز بهذا المبلغ. فسمحت له بالبقاء.

صاحت نانا وهي تغلق الباب بعنف:

– الذنب ذنبك.. لماذا جئت قبل موعدك ؟

وترنح موفات كالثمل وسقط على ركبتيه وهو يصيح:

– يا إلهي.. يا إلهي.. هذا كثير.. أقتلني يا إلهي.. فلست أريد أن أرى.. أو أسمع.. أو أشعر.

وشعر في هذه اللحظة بيد توضع على كتفه برفق فتحول ورأى مسيو فينو:

صاح وهو يلقي بنفسه بين ساعديه:

– خذني.. اذهب بي من هذا المكان.

فضمه فينو إلى صدره وقال في حزن:

– هون عليك يا ولدي.

كان مسيو فينو قد جاء مرتين قبل ذلك.. يقول له أن زوجته هجرت بيتها.. وهربت مع أحد عشاقها

الفصل الرابع والعشرين

كانت هذه المقابلة الفجائية بين موفات والمركيز دي شوار مبعثًا لضحك نانا.. وتسليتها، ولكنها لم تلبث أن شعرت بالأسف حين أدركت أنها فقدت موفات، وفقدته إلى الأبد.

وكأنما شاءت الأقدار ألا تكون هذه المفاجأة.. هي آخر المفاجآت السيئة في ذلك النهار.. فقد زارها لابورديت في المساء.. وتحدث إليها عن أثاث ثمين يباع بالمزاد العلني، ثم ذكر عرضًا أن جورج قد مات.

وكانت نانا تصغى إليه في ضجر وملالة.. ولكنها ما كادت تسمع هذا النبأ، حتى وثبت من مكانها وصاحت في ذعر:

– مات..

ونظرت على الرغم منها إلى بقع الدم، ثم انفجرت باكية، وسالت أحزانها المكظومة دموعًا، وظلت تردد:

– مات.. مات..

وقال لها لابورديت بضع كلمات على سبيل العزاء والترفيه، ولكنها ظلت تبكي، حتى رفه عنها البكاء ثم قالت:

– إنني سيئة الطالع حقًا.. سوف يتحدث الناس عني مرة أخرى وسوف يقولون أنني امرأة تعسة بغير قلب، وإنني أجلب الخراب والموت على من يتصل بي.. ولكن هل الذنب ذنبي؟ وهل أنا قاسية وبلا قلب كما يزعمون؟ أنني أجود بكل ما أملك.. ولا أوذي ذبابة..

وبعد.. فهل أنا التي اجتذب الرجال على الرغم منها.. أو إنهم يأتونني

بمحض إرادتهم!! إنهم يزعجونني ويضايقونني.. ولو كانت لي رغبة في الزواج لأصبحت مركيزة أو بارونة أو أميرة منذ زمن بعيد. ولكني كنت أرقص دائمًا، لأنني بعيدة النظر، ولأنني كنت أشفق على زوجي من أن يقتل أباه وأمه.. لإشباع شهوتي إلى الترف والنعيم.

أريد أن أقول لك كلمة لم أذكرها لأحد من قبل.. أفلم أساعد داجينيه على الاقتران بفتاة غنية من أسرة نبيلة؟! أفلم أمده بالمال قبل زواجه؟! ولكنه قابلني أمس وأشاح بوجهه عني، فهل يوجد عنصر أعق من الرجال؟

كلا.. كلا.. إن المجتمع شديد القسوة على النساء.. والناس يلومون المرأة حيث يجب أن يلام الرجل. ولولا الرجال لكنت الآن أعيش في أحد الأديرة، لأنني امرأة متدينة، أخشى الله واليوم الآخر.

الفصل الخامس والعشرين

وفي أحد الأيام. اختفت نانا فجأة عن جميع الأنظار.

وقبل اختفائها باعت قصرها وأثاثها، وظهرت على مسرح "الجايتيه" في مسرحية وضعت خصيصًا لها.. وأصابت نجاحًا حجب نجاحها في دور "فينوس".. وبينما الناس لا يتحدثون إلا عنها. وبينما اسمها ملأ الأبصار على اللوحات الكبيرة الملصقة على جميع الجدران. إذا بها تختفي فجأة وتتوارى عن الأبصار.. وانقضت الشهور. ونسيها الناس.

أما أصدقاؤها. فكانوا يذكورنها في بعض الأحيان. وعندئذ كان اسمها يقترن بأعجب القصص. فقائل أنها رحلت إلى تركيا واقترنت بأحد أغنيائها، وهي الآن تعيش في قصر منيف يحيط بها عشرات من العبيد تتوقف حياتها على كلمة من فمها. وإشارة من أصبعها. وقائل: بل إنها وقعت في غرام زنجي جردها من كل ما تملك وهي الآن تستجدي أكف المحسنين في شوارع الاستانة.

وفي أحد الأيام. دهش أصدقاؤها حين قيل لهم بصيغة التأكيد أنها شوهدت في روسيا.

وحينئذ تنوقلت عنها أعجب الأنباء، فقيل أنها أصبحت عشيقة أحد الأمراء. وأنها تملك الآن ثروة طائلة من الحلي والمجوهرات. وذهب البعض إلى أبعد من ذلك، فراحوا يصفون هذه المجوهرات ويذكرون عددها وثمنها.

وذات مساء. كانت كارولين هيكليه تهم بدخول أحد الحوانيت. حين سمعت صوتًا يناديها. ورأت لوسي ستيوارت في مركبتها.

سألتها لوسي بلهفة:

– هل تناولت الطعام؟! هل أنت على موعد؟! تعالي معي أيتها العزيزة.. لقد عادت نانا.

فوثبت كارولين إلى المركبة دون أن تنطق بكلمة.

قالت لوسي:

– ألا تعلمين أنها ربما كانت قد ماتت الآن ونحن نتحدث عنها..

فصاحت كارولين:

– ماتت؟! ماذا تعنين؟! وأين هي؟

– إنها في الفندق الكبير. وقد أصيبت بالجدري.

– يا إلهي..

ومضت لوسي فقالت:

– إنها رحلت من روسيا. ولا أدري لماذا. ولعلها اختلفت مع عشيقها الأمير. ولما وصلت إلى باريس تركت حقائبها في المحطة، وذهبت إلى عمتها. وهناك وجدت ابنها مريضًا بالجدري. وقد مات الطفل في اليوم التالي. وتشاجرت نانا مع عمتها. والظاهر أن العمة لم تتوفر على العناية بالطفل لضيق ذات يدها، ولأن نانا لم تبعث إليها بنقود.

ومن ثم قصدت نانا إلى أحد الفنادق. وهناك قابلها منيون وهي تشرف على نقل أمتعتها وحقائبها.. وفجأة. أصيبت نانا بإغماء.. فنقلها منيون إلى غرفتها في الفندق.

كل هذا لا غرابة فيه.. إنما الغريب ان روز منيون ما كادت تعلم من زوجها بمرض نانا، حتى أسرعت إلى فندقها لتعنى بها وتسهر عليها.وأنت تعلمين أن كلا منهما كانت تمقت الأخرى. وأنهما كانا أشبه بثورين غاضبين في حظيرة واحدة.

ومع ذلك فإن روز أصرت على ملازمة غريمتها.. ثم حملتها على الانتقال إلى الفندق الكبير. حتى إذا حدث وماتت كان موتها في مكان خليق بالمرأة التي زلزلت باريس.

ومنذ ثلاثة أيام. وروز تلازم عدوتها ليل نهار.

ولما سمعت بكل هذا من لابورديت. قررت أن أذهب لرؤية نانا فهتفت كارولين في فضول شديد..

وما إن وقفت المركبة بباب الفندق. حتى وقع بصر المرأتين على منيون.. وكان واقفًا بالباب. فأسرعتا إليه. وأمطرتاه وابلًا من الأسئلة ولكنه هز كتفيه وقال:

– إنني لا أعلم شيئًا.. وروز تلازمها منذ ثلاثة أيام.. ولكني لم أخاطر بحياتي.. كما فعلت هذه المجنونة روز.. هل رأيتما أشد حماقة من هذه المرأة؟! ماذا يكون مصيرنا إذا أصيبت بالعدوى وفقدت جمال وجهها.

وفي هذه اللحظة.. مر فونتان فدعاه منيون.. لما علم الممثل بمرض نانا قال:

– مسكينة.. يجب أن أزورها.. ما نوع مرضها؟

فأجاب منيون:

– الجدري..

وكان فونتان قد هم بدخول الفندق، ولكنه ما كاد يسمع هذه الكلمة.. حتى دار على عقبيه.. وانصرف..

قالت لوسي:

– من هذا الرجل الذي يروح ويجيء أمام الفندق.. ولا يحول بصره عن النوافذ..

وأشارت إلى رجل أنيق. يسير على الرصيف الآخر. وقد أخفى نصف وجهه بمنديلة.

فأجاب منيون صوت خافت:

– إنه الكونت موفات. ومنذ أنبأه لابورديت بمرض نانا في صباح اليوم. وهو يروح ويجيء أمام الفندق، ويتحدث إلى البواب كل نصف ساعة ليسأله عن صحة المريضة..

وفي هذه اللحظة غص الشارع بجماهير غفيرة كانت تهتف:

– إلى برلين.. إلى برلين.

كان المجلس التشريعي قد قرر في ذلك اليوم إعلان الحرب على المانيا..

وما إن خلا الشارع من المتظاهرين.. وساد الهدوء.. حتى عبر موفات الشارع.. واقترب من بواب الفندق.. فأجابه البواب قبل أن يسمع سؤاله:

– إنها ماتت يا سيدي. ماتت في هذه اللحظة.

وسمع منيون والمرأتان جواب البواب واستولى عليهم الذعر.

ماتت.. نانا ماتت.. من ذا الذي يصدق هذا..

واستند موفات على باب الفندق، وأخفى وجهه بمنديله.. وظل كذلك وقتًا طويلًا.. ثم تنهد.. وسار بخطى بطيئة وهو مطرق الرأس.. مقوس الظهر.. كرجل هددته الكوارث.

وجففت كارولين دمعة انحدرت من عينيها، وهزت لوسي رأسها بحزن وقالت:

ويا أسفاه عليها. إنني ما زلت أذكرها. عندما ظهرت في مسرحيتها الأخيرة في كهف من البلور؟

إنها رفضت أن تحفظ دورها، قائلة أنه يكفي الجمهور أن يرى بعينيه.. والواقع.. هل شهد الناس يومًا قوامًا أكمل من قوامها. ووجهًا أشد فتنة من وجهها ؟

ويا أسفاه عليها. لابد أنها احتفظت بفتنتها حتى في الموت.

وهمت المرأتان بدخول الفندق. فقال منيون محدثًا لوسي. كارولين. ووقعت أبصارهما على جاجا. وكلاريس وكانتا جالستين على مقعد كبير بالقرب من الباب.

قالت لوسي:

– ما أتعس حظي.. كان بودي أن أودعها قبل أن تموت. وأرسلت بصرها إلى داخل الغرفة.. ولكن الظلام كان دامسًا فلم ترى من الجثة المسجاة على الفراش إلا وجهها.

قالت:

– أنني لم أرها منذ ظهرت على المسرح لآخر مرة.

فهزت روز رأسها بحزن وقالت:

– آه.. أنها تغيرت.. إلى أن تكلمت روز.. وراحت تصف أعراض المرض.. ثم دار الحديث عن ثروة نانا.. ومن يرثها.. ثم طرقت آذانهم أصوات الجماهير في الشارع وهي تهتف:

– إلى برلين.. إلى برلين..

وعندئذ دار حديث السياسة.. كما لو كن يقضين السهرة في أحد الصالونات.

وأخيرًا نهضت كلاريس وهي تقول:

– هلموا بنا.. أننا لا نستطيع أن نرد إليها الحياة..

ونهض.. وألقين على الفراش نظرة أخيرة.. ولكن الظلام كان حالكًا فلم يبصرون شيئًا..

قالت لوسي:

– هلمي معنا يا روز.. إن زوجك يتميز غيظًا بباب الفندق.. فهمست روز:

– نعم.. نعم.. سألحق بكن.. أنها لم تعد بحاجة إلى..

وانصرفت النساء.. وبحثت روز عن معطفها وقبعتها.. وغسلت يديها في وعاء ماء.

ثم أجالت البصر في أنحاء الغرفة.. لتتأكد من أن كل شيء مرتب.. وعندما همت بالانصراف.. خطر لها خاطر فقالت:

– كلا.. لن أتركها في الظلام..

وأسدلت الستار.. وأضاءت الشموع.. فسقط نورها الساطع على وجه الميتة.. ونظرت إليها روز وغمغمت:

– يا إلهي.. كم تغيرت.. كم تغيرت..

وخرجت. وأغلقت الباب وهي تجفف دمعة انحدرت على وجهها الشاحب.

وبقيت نانا وحدها. ونور الشموع يسطع على وجهها.

كانت كتلة من اللحم الفاسد. وقد امتلأ وجهها بالبثور حتى ضاعت معالمه. وأكل المرض عينها اليسرى، فذهبت ولم يبق من آثارها إلا هوة عميقة مظلمة تدل على مكانها.

وقد تهدل لحم وجهها. وارتسم على شفتيها شبح ابتسامة مخيفة. ولم يبق من آثار فتنتها سوى شعر جميل كأنه خيوط من ذهب.

وكأنما الأثم الذي حملت "فينوس" جرائمه من أرصفة الشوارع.

ولطخت به كل من اتصل بها. قد أبى آخر الأمر أن يترك طابعه الأبدي. على وجهها. الذي كان فتنة للناظرين.

الفهرس